عبد الوهاب مطاوع

خاتم في إصبع القلب



الدار المصرية اللبنانية

عبد الوهاب مطاوع

خاتم في إصبع القلب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
۞ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

مقدمة

كان الفراعنة يعتقدون أن فى بنصر اليد اليسرى عَصَباً يتصل بالقلب ، فابتدعوا عادة وضع خاتم الزواج فى هذا الإصبع ليرمزوا بذلك إلى أن من يضع خاتمه فى يد شريك حياته ، إنما يضعه حول قلبه ويقيده بحبه والإخلاص له طوال رحلة الحياة .

وبالرغم من أن الطب الحديث قد أثبت فيما بعد أنه لا وجود لهذا العصب فى بنصر اليد اليسرى ، فقد ظل الرمز قائماً وصحيحاً ، ونقلت شعوب العالم الأخرى هذه العادة عن الفراعنة ، للإشارة إلى نفس المعنى .

ولقد اخترت عبارة « خاتم فى إصبع القلب » وهى عنوان أحد الفصول عنواناً لهذا الكتاب الذى يتضمن بعض المواقف والصور الأدبية المتفرقة التى توقفت عندها خلال قراءاتى الطويلة فى الأدب الإنسانى . . أو خلال تذوقى لبعض الأعمال الفنية الراقية ، أو تعاملى المباشر مع هموم الآخرين .

وهى مواقف إجتذبتنى فتأملتها طويلاً . . واستسلمت لخواطرى

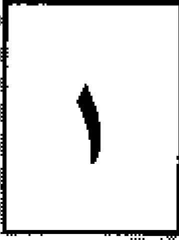
حولها . . وفكرت أن أشرك قارئى فى تأملها معى والاستفادة بعبرتها .

ورغم اختلاف المنابع والمصادر ، فالإنسان هو الإنسان دائما فى كل زمان ومكان . . بضعفه الذى لا حيلة له فيه أمام الألم . . وعجزه أمام أقداره ومعاناته الأبديةمع الغدر . . والكراهية . . وتقلبات النفس البشرية وأهوائها ، وقصور قدراته فى أغلب الأحوال عن تحقيق ما يحلم به لنفسه من سعادة وكرامة وأمان .

إن فى هذا الكتاب صورا متعددة لأحوال الإنسان فى سعادته وشقائه . . أرجو أن نتشارك معاً فى تأملها وتجنب عثراتها . . والاستفادة بدروسها .

عبد الوهاب مطاوع

القاهرة فى ١٠ ديسمبر ١٩٩٥



تعيس ؟ إركب السلم المتحرك !

●● فى فيلم أمريكى شاهدتـــه منذ فترة . . كانت ساليست تالبرت نجمة تليفزيونية محبوبة تؤدى دور البطولة فى المسلسل الذى يذاع كل صباح منذ أكثر من عشرين عاماً . . وتستمتع بحب المشاهدين خاصة ربات البيوت والعجائز اللاتى يحرصن على متابعة مسلسلها منذ سنوات طويلة . . وكل شيء فى شخصية ساليستْ التى يشاهدها الناس فى التليفزيون تدعوهم لأن يحبوها . . فهى جميلة جمالاً أليفاً مريحاً للعين يشعرك أنك تعرفها معرفة شخصية عن قرب وأنها إنسانة بريئة المشاعر وتلقائية فى تصرفاتها تحب الناس ويحبونها . . وتعرف نقاط قوتهم وضعفهم .

وقد « كبرت» أمام أنظار المشاهدين الذين يتابعونها منذ عشرين سنة ، فتحولت من فتاة صغيرة فى نضارة الشباب لا يزيد عمرها عن عشرين عاماً إلى امرأة ناضجة فى الثلاثين ثم إلى امرأة فى قمة النضج

والأنوثة فى الثانية والأربعين من عمرها ، فجمعت العشرة والزمن بينها وبين المشاهدين بروابط متينة ، وأصبحت بحق معبودة أمريكا . . أو «حبة قلب» الجميع خاصة السيدات والفتيات منهم ، فتتهلل وجوههم حين يرونها فى الطريق ، ويطلبون توقيعها على أتوجرافاتهم ، وينتشون بابتسامتها الطيبة ، ويقولون لها : نحن نحبك فتتسع ابتسامتها الساحرة وتجيبهم : وأنا أيضاً أحبكم ، وتنصرف سعيدة كأنها تمشى فوق السحاب .

ولِمَ لا تكون كذلك وكل شىء فى حياتها يدعوها إلى السعادة والابتهاج . . إنها محبوبة . . وناجحة وثرية . . ومازالت جميلة . . وموهبتها فوق المنافسة ، وفى ختام كل سنة يقام مهرجان التليفزيون فى حفل كبير فتفوز بجائزة أحسن ممثلة عن دورها فى مسلسل «الشمس تغيب أيضاً» . . وقد فازت بالجائزة هذا العام أيضاً للمرة الثامنة على التوالى فلماذا لا تكون سعيدة ! .

لكنها للأسف ليست كذلك ، فقد رجعت من حفل مهرجان التليفزيون الأخير مهرولة إلى البيت . . لكيلا تترك حبيبها «آدم» الذى يقيم معها فى مسكنها منذ عامين ، وحده طويلاً ، وبحكم العادة ضغطت على « زرار » جهاز الرد على التليفون لتعرف من سأل عنها خلال غيابها . . فسمعت صوت «رجلها» يقول لها إنه يحدثها من المطار . . وإنه عائد إلى زوجته وأولاده فى ولاية أخرى ؛ لأنه لا يستطيع فراقهم . . ثم وداعا يا ساليست وشكراً لك على الفترة الجميلة التى عشتها معك ! .

وانهارت ساليست الجميلة على الفراش تبكى بمرارة وتتشنج وتعض وسادتها من الغيظ والحسرة والألم .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى الاستديو لتسجل حلقتها اليومية فكانت كعادتها منذ سنوات عصبية خائفة . . لا تثق فى أحد ممن حولها . . وتتشكك فى تآمرهم عليها لإفشالها وتشويه صورتها فى أعين المشاهدين ... وتصرخ بانفعال كل لحظة وتبكى من الغيظ والقهر فى كل مناسبة . . ولم تكن شكوكها من فراغ . . فهى تعمل فعلاً فى وسط محفوف بالدسائس وأساليب المنافسة غير الشريفة ، وبالمسلسل ممثلتان شابتان جميلتان تؤديان أدواراً مساعدة . . وتكرهانها فى أعماقهما كراهية مريرة وتتمنيان أن ترحل عن المسلسل لكى تجد كل منهما فرصتها للتألق والشهرة ، وإحداهما تُغرى مدير الإنتاج بفتنتها وتعده بأن تصبح خليلته إذا نجح فى دفعها إلى ترك المسلسل . . ومدير الإنتاج لا يقصر فى حبك المؤامرات وتعديل دور النجمة المحبوبة بما يسىء إلى صورتها فى أعين المشاهدين لكى تعترض . . وتنسحب من بطولته .

وهى لا تثق فى أحد ممن حولها سوى فى روز السمراء المخلصة كاتبة السيناريو أو رئيس فريق كتاب السيناريو الذين يكتبون حلقات المسلسل ، فمثل هذا المسلسل اليومى المستمر لأكثر من عشرين سنة لا يكتبه مؤلف واحد ولو كان فى عبقرية بلزاك وغزارة إنتاجه .

وهى تغادر المشهد الذى كانت تصوره وتنتحى «بروز» جانباً وتروى لها باكية كيف هجرها «آدم» وعاد لزوجته وأطفاله بدون إنذار وبدون وداع وتقول لها :

ـ بلا وداع يا روز بعد عامين من الحب والعشرة . . بلا وداع سوى رسالة على «الأنسر ماشين» . . على «الأنسر ماشين» . . يا روز . . على الأنسر ماشين . . وليس حتى بخطاب اعتذار . . أو كلمة وداع .

ثم تنخرط فى بكاء مرير وهى تشعر بتعاسة لا حد لها وبأنها قد فقدت جمالها وجاذبيتها كامرأة . . وأصبحت فى حالة يرثى لها حتى يهرب منها من أخلصت له الحب عامين كاملين دون أن يهتم حتى بوداعها .

وتواصل البكاء بلا انقطاع والممثلتان المنافستان ترمقانها عن بُعد بسرور شرير . . وتتمنيان لها مزيداً من الانهيار النفسى حتى تضطر الشركة المنتجة للمسلسل إلى إبعادها عنه . . فالجميع يعرفون أنها قد أصبحت تسرف فى تناول الأقراص المهدئة . . ولا يمضى يوم داخل الاستديو دون أن تصرخ أو تبكى . . أو تنفعل ، رغم طيبة قلبها التى تعيدها بعد قليل إلى طبيعتها فتعتذر لمن انفعلت عليه .

وتنظر إليها الصديقة الوحيدة «روز» فى رثاء صامت وهى تبكى بمرارة وقهر وتشكو لها من وحدتها وغدر حبيبها بها . . وتآمر العاملين معها عليها فتراها سيدة فى قمة التعاسة . . والغُلب رغم كل ما يحيط بها من ثراء وأضواء ونجومية .

وتظل روز صامتة لفترة طويلة ثم تقول لها بهدوء وابتسام :

ـ حسنا . . سنذهب من جديد إلى السلم المتحرك ! .

وتعترض ساليست اعتراضاً صاخباً لكنها تسحب معارضتها حين

ترى صديقتها الوحيدة «روز» تنظر إليها بثبات نظرة تفهم منها أن ذلك سوف يفيدها فى حالتها النفسية المتدهورة هذه ! .

فتسلم برغبتها وتقول لها : لا بأس . . سنذهب مرة أخرى وأخيرة ولن نكررها بعد ذلك .

وتغادر الصديقتان الاستديو ، وساليست تضع نظارة سوداء ضخمة تخفى نصف وجهها وتلف الإيشارب حول شعرها ، وكذلك تفعل صديقتها وتركبان سيارة أجرة إلى وسط المدينة . . وتتوجهان إلى مركز تجارى ضخم من عدة طوابق يربط بينها سلم متحرك كبير ، يزدحم دائماً بربات البيوت والفتيات اللاتى يترددن على محلات المركز التجارى العديدة . وعلى رأس السلم تخلع ساليست الإيشارب وتسوى شعرها وترفع النظارة السوداء وتشير لصديقتها أنها «مستعدة» !

ثم تخطو إلى السلم الهابط . . وتنتظر روز لحظات ، ثم تنزل وراءها ، وفى منتصف رحلة الهبوط والسلم مزدحم بالسيدات الصاعدات والهابطات تصرخ روز فجأة وكأنها اكتشفت شيئاً مثيراً وتقول : أهو أنت؟ . نعم هو أنت . . أنت ممثلة التليفزيون الشهيرة . . ياربى لقد طار من رأسى اسمك مع أننى أعرفك جيداً وأحبك نعم أنت ؟ . أنت؟ . فتجيبها سيدة فى الاتجاه المعاكس من السلم الصاعد بانفعال وابتهاج : يا إلهى . . انها ساليست تالبرت ! وتجاوبها صرخات الصاعدات والهابطات بابتهاج شديد . . نعم إنها ساليست تالبرت . . ساليست تالبرت المحبوبة . . الجميلة الطيبة . . توقيعك يا مسز

تالبرت، صورة معك يا مسز تالبرت ، ويتعطل المرور فوق السلمين الهابط والصاعد على السواء . وتنزل ساليست إلى الدور الأسفل فتتجمع حولها السيدات والفتيات فى دائرة صغيرة تتسع وتتضخم حتى تبدو ساليست وسطها وكأنها نقطة صغيرة فى بحر من البشر .

وتبتعد «روز» عن الزحام بعد أن أدَّت دورها العلاجى الهام لصديقتها التعيسة ، ونفهم أنها قد كررت هذه الوصفة السحرية معها فى أزمات نفسية أخرى من قبل ، وتقف روز ترقبها من بعيد وهى فى مركز الدائرة تبتسم بابتهاج حقيقى للسيدات والبنات المحيطات بها . . وتجيب على أسئلتهن الودودة ، وتوقع لهن فى أتوجرافاتهن ، وتلتقط معهن الصور وقد استردت حيويتها المنطفئة . . وتورَّد وجهها بمشاعر الحب الصادق الذى يحيط بها ، فزالت تجاعيد الكآبة والتعاسة من حول عينيها ومن جبهتها وتألق جمالها الذى كان ذاوياً قبل لحظات .

وبعد ساعدة كاملة استغرقتها مظاهرة الحب هذه تسللت ساليست من وسط الزحام سعيدة ، فرجعت إلى بيتها وقد استعادت رغبتها فى الحياة والتألق والتفوق على المنافسات وعدلت نهائياً عن فكرة الانسحاب من المسلسل التى راودتها قبل ساعات ونامت ليلتها بدون حبوب منومة لأول مرة منذ فترة طويلة ! .

ولن أروى لك ما حدث لساليست بعد ذلك فى هذا الفيلم فليس تلخيص قصته هو هدفى . . لكن ما يعنينى حقاً منه هو هذا المشهد الفريد الذى «أوضح» لى إحساسا مبهماً أو حقيقة غائمة كنت أحس بها



على نحو غامض ، وجاء هذا المشهد فأكد لى صحة إحساسى وأبرز لى معالمه الخافية عنى .

إن الإنسان لا يشعر بالسعادة حقاً إلا وهو بين من يحبونه حباً صادقاً مجرداً من كل غرض ، وإلا حين يبتعد عمن يكرهونه أو يحقدون عليه أو ينفسون عليه ما منحت له الحياة من أسباب النجاح أو السعادة .

فهو وسط الكارهين أو المتآمرين أو الحاقدين أو المنافسين شخص آخر غريب على طبيعته المألوفة وعليه هو شخصياً . . شخص متوتر متحفز للدفاع عن نفسه وصد مخالب الآخرين عن عنقه . . شخص لا يشعر بالأمان ولا الراحة ولا الثقة فى أى شىء حتى فى نفسه ، ولا يستشعر السعادة أو الابتهاج أو الصحة . . لأن جسمه وأعصابه كالوتر المشدود ، أقل لمسة له تصدر رنيناً مزعجاً صاخباً بالانفعال والتشنج والصياح والشك . . إنه ليس نفس الشخص أو نفس الإنسان حين يكون على طبيعته وبين محبيه ، بل هو «قط» خائف يشعر بالخطر فيقوس ظهره ويشبُّ على أظافر أقدامه . . ويقف شعر جسمه ورأسه مدببا كالشوك أو كالمسامير . .

إنه إنسان آخر يتدافع إفراز الأدرينالين داخل جسمه فيزيد توتر أعصابه . . وخفقان قلبه . . ولهاث أنفاسه ، أما وسط من يحبونه . . ويتهللون من قلوبهم لرؤيته ولا يضمرون له شراً ولا حقداً ولا حسداً . . فهو إنسان آخر مختلف تماماً منتظم الأنفاس ناعم الملمس والشعر رقيق الصوت والعبارة لأن أوتاره مسترخية بإحساس الأمان والاطمئنان فتظهر

شخصيته الحقيقية بينهم وإبداعاته وطيبته وخفة دمه ولباقته بل «ونجوميته» أيضاً كإنسان بينهم . . لأنه ليس فى حالة دفاع عن النفس يفرز للآخرين أسوأ ما فيه . . وإنما هو فى حالة استرخاء نفسى وعاطفى يُطلق أجمل ما فيه من مشاعر ورغبات .

إن عِشرة الكارهين والمتربصين . . والحاقدين تعيد الإنسان إلى طبيعته البدائية الأولى حين كان يتقدم بحذر فى الغابة ممسكاً بهراوته ، ينظر شذراً إلى كل شىء حوله . . ويرهف سمعه لأقل صوت قد يحمل له نذير الخطر ، ويبادر الآخرين بهراوته دفاعا عن نفسه حتى ولو لم يريدوا به شراً ! أما عِشرة المحبين . . وذوى النفوس الطيبة فتعيده إلى إنسانيته المفقودة وتحرر عقله من الشكوك والظنون والخوف . . فلا يسىء الظن بأحد ولا يتشكك فى تصرفات أحد .

لقد كان لدى الماركسيين قديما حل سحرى «خطابى» لكل المشاكل . . كانوا يقولون: تريد العدل ؟ تريد المساواة ؟ . . تريد تكافؤ الفرص؟ بسيطة ! «التحم بالملايين» ! .

ولم يكونوا يقولون لنا فى مناقشاتنا الدامية معهم كيف يتحقق هذا «الالتحام بالملايين» وفى أى شارع من شوارع المدينة . . وبأى الوسائل . . وخلال كم من السنين؟ . . أو لماذا لم يتحقق العدل والمساواة وتكافؤ الفرص فى الدول الشيوعية التى التحمت «بملايينها» من زمان فأصبح الحل نكتة . . أو وصفة سحرية لا تتحقق إلا فى الخيال ، حتى

شاهدت هذا الفيلم ووجدت لها فيه تفسيراً غير سياسى ، ربما يكون التفسير الوحيد المقبول لها . .

هل تشعر بالخوف والوحدة والتعاسة . . وفقدان الثقة فى نفسك وفيمن حولك ؟

اركب السلم الكهربائى المتحرك !

أقصد . . اذهب إلى من يحبونك بلا غرض ويعتزون بك ويفخرون بصحبتك ولا يحملون لك مشاعر العداء أو الكراهية أو التنافس . . «والتحم» بهم . . أى احتم بهم من الوحدة والغربة النفسية وشرور الدنيا وشرور النفوس الضعيفة وشرور الملل والكآبة والشك . . والإحساس المؤلم بتفاهة الشأن واللاجدوى . .

وعليك ـ كما يقول لك العظيم عمر بن الخطاب ـ «بإخوان الصدق تعش فى كنفهم فإنهم زينة فى الرخاء . . وعُدة فى البلاء . . واعتزل عدوك . . ولا تصحب الفجار فتتعلم من فجورهم . . واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من خشى الله » .

فأنت بين هؤلاء . . إنسان طيب مُحب ومحبوب وجدير بالحب والاعتزاز بشخصه وصداقته . . ، بل أنت بينهم ملك متوج على قلوبهم ونجم من نجوم الإنسانية مهما كان حظك من نجومية الحياة .

وأنت وسط غيرهم ووسط من يكرهونك أو يضمرون لك العداء والحقد وإن نطقت ملامحهم بغير ذلك قط خائف وبائس وتعيس وغلبان ولا قيمة له . وشكرا للصديقة المخلصة «روز» مبتكرة فكرة السلم

الكهربائى العبقرية هذه . . وشكرا لكل صديقة مثلها أو صديق يحب صديقه بإخلاص ويحاول جاهداً أن يدفع عنه التعاسة والكآبة . . والجنون !

٢

ليس فقيراً.. من يحب!

دُعيت السيدة التى تعيش لابنها الوحيد إلى حفل فى بيت الأسرة الثرية العريقة فى المدينة الصغيرة . وقالت عنها ربة الأسرة الثرية لصديقاتها حين دعتها ، إنها سيدة ليست عريقة النسب ولا غنية لكنها طيبة ومحبة للخير وتشارك فى كل أعمال البر التى تجرى بالمدينة وتكرس حياتها لابنها الوحيد حتى صنعت منه شاباً مهذباً ناجحاً .

وتوافد المدعوون على الحفل . . وجاء الإبن الشاب بصحبة فتاة جميلة لا تخفى حبها له أمام الجميع ، وعرفت ربة الأسرة منه أن أبرز شخصيات المدينة وهو الثرى المرموق الذى يجذب دائماً أنظار السيدات وضيف الشرف فى هذا الحفل قد اختاره سكرتيراً له وسيصحبه معه للخارج بعد أسابيع حين يتسلم منصبه الجديد كسفير لبلاده . .

وابتهجت ربة الدار بهذا الخبر السعيد وتخيلت فرحة الأم الطيبة حين تأتى للحفل وتعرف به .

وجاءت الأم وعلمت بالخبر ، وأغرورقت عيناها بدموع الفرح والتأثر، واصطحبتها ربة الدار لتعرفها بالشخصية البارزة التى فتحت طريق النجاح أمام ابنها . فاقتربت منه شاكرة ومدت يدها لتصافحه، فالتقت عيناها بعينيه ، واضطربت اضطراباً شديداً وكادت تفقد توازنها . يا إلهى . . إنه نفس الرجل الفاتن الذى أحبته وهى فى العشرين من عمرها ، ورفض أن يتزوجها وهجرها إلى العاصمة وتركها وفى أحشائها ثمرة حبه الآثم . . فانطوت بعد رحيله على نفسها وأنجبت ابنها الوحيد ، وكرست حياتها له ، ورفضت أن تتزوج ، والتزمت فى سلوكها بالفضائل وانغمست فى أعمال الخير عسى أن يغفر لها ربها خطيئتها ، وصافحته الأم وهى لا تعى ما تقول ثم انسحبت مضطربة، أما الرجل الفاتن الذى لا يزال يحتفظ ببعض وسامته وجاذبيته فلقد تذكرها بصعوبة ، لكنه لم يهتز للذكرى ، ولم يضطرب إذ ما أكثر النساء فى حياته ، لهذا لم يتوقف طويلاً أمام المصادفة ، وعاد سريعاً للاندماج فى حلقة من الرجال والنساء ؛ ليواصل معهم حديثه الساحر . . أما موضوع المناقشة التى أثارها . . فهو أنه ليس هناك فى رأيه شىء اسمه الإخلاص فى الحب ، وأن كل امرأة يمكن أن تخون من تحب اذا وجدت من هو أفضل منه أو إذا خضعت لتأثير شخص أكثر جاذبية منه . وعارضته فى رأيه الفتاة الجميلة التى تحب سكرتيره الشاب . . فأهانها الثرى المفتون واتهمها بادعاء الفضيلة . . فلم يتردد حبيبها فى

الدفاع عنها وإهانته رداً على إهانته لها ، وتأزم الموقف وانفعل الثرى المرموق على سكرتيره الشاب ، وحذره من أنه سوف يفقد بذلك إعجابه بكفاءته وفرصته للعمل معه إذا تمادى فى هذا الموقف ، فأجابه السكرتير بأن شرف فتاته التى أهانها أهم لديه من العمل والسفر للخارج بصحبته

وتهور عليه الثرى وأهانه وأهان فتاته مرة أخرى فرد عليه الشاب إهانته بإهانة أبلغ ودافع عن فتاته وحذره من أنه قد يقتله إذا عاد لإهانتها ، وذعرت الأم وحاولت وقف تهور ابنها لكن الثرى المفتون تمادى فى حماقته وعاد لإهانة الفتاة واندفع الشاب نحوه ليبطش به مضحياً بكل شىء إلا أن يقف عاجزاً عن حماية فتاته التى يحبها وتحبه ، وتدخلت الأم بينهما . . لكن جنون الغضب سيطر على ابنها للنهاية ، فاضطرت لكى تمنعه من ارتكاب جريمة لأن تعلن له الحقيقة التى هزتها من أعماقها ، وهى أن هذا الرجل المتعجرف هو نفسه أبوه الذى طالما سألها عنه وادعت له وفاته . ويتوقف الإبن ذاهلاً أمام المفاجأة القاسية . . ويتجمد الأب فى مكانه عاجزاً عن الكلام أو الحركة وهو ينقل عينيه بين الأم والشاب مذهولا .

وينصرف الجميع بعد أن تفجرت الفضيحة فى بيت الأسرة الثرية . وتعود الأم مهمومة إلى بيتها . . فقد أضاع ابنها فرصته فى الوظيفة المرموقة ولطخت هى شرفها بالعار أمام فتاته وسيدات الحفل .

ويضطرب الابن الشاب اضطراباً شديداً لما عرف . . لكنه لا يشعر لحظة واحدة بالندم على ما فعل ، ويكتب للثرى المرموق رسالة يقول له فيها : إن من واجبه أن يصلح الخطأ الذى ارتكبه فى حق أمه منذ خمسة

وعشرين عاما وأن يتزوجها ليرد إليها شرفها . . حتى ولو لم يطل هذا الزواج . . أما العمل معه فإنه لم يعد يفكر فيه ، ولن يقبله بعد أن جرى ما جرى .

ويجيء الثرى المرموق إلى بيت الأم محاولا أن يتلمس الطريق إلى صفحها . لقد أحس بضعف شديد أمام هذا الشاب منذ أن رآه لأول مرة وحيره هذا الضعف كثيرا . . ولم يفهم سره إلا حين فجرت أمه المفاجأة فى الحفل . وهو الآن رجل وحيد فى الخمسين من عمره لم يتزوج طوال حياته ولم ينجب وقد سئم حياة المغامرة ، ولن تتيح له الحياة فرصة أخرى لإنجاب شاب ناجح ومهذب كهذا الشاب ليرث عنه أمواله ، ويستند إلى ذراعه فى شيخوخته فلماذا إذن لا يسترده ؟ ويعرض الثرى المرموق عليها الزواج وبدء صفحة جديدة من حياتها مع ابنها فيفاجأ بها ترفض الزواج منه ! ويحاول إقناعها ويعدها وعوداً مغرية ، لكنها تتمسك بالرفض بإصرار عنيد ويضيق برفضها فيطالبها بحقه فى « ابنه » ويعرض عليها أن يأخذه للإقامة معه ستة شهور كل سنة على أن يكون لها فى الشهور الستة الأخرى مقابل أن يورثه أمواله بعد وفاته ، فترفض الأم أن تسمح له بأن يجنى ثمرة لم يشاركها عناء رعاية شجرتها خلال رحلة السنين . وتؤكد له أنه ابنها وحدها ، أما أبوه فلقد مات حين هزأ بمشاعر أمه الشابة ودموعها الذليلة وهى تتوسل إليه منذ خمس وعشرين سنة أن ينقذ شرفها ويتزوجها ، ولهذا فليس من حقه أن يشاركها فيه الآن .

ويتهمها « الأب » بأنها تحرم ابنها من فرصته فى الثراء والاستمتاع

بنفوذه ومكانته بسبب أحقادها القديمة وتجيبه الأم بأن ابنها لم يعد فى حاجة إلى ماله لأنه سيتزوج من فتاته الثرية التى تريده أن يشاركها ثراءها بالحب لا بالأنانية . وينفعل الثرى وينتفض واقفاً للانصراف . . ويرتدى إحدى فردتى قفازه الأبيض ويكرر عليها اتهامه لها بالقسوة وبحرمان ابنها من حقه فى السعادة بسبب أحقادها وأنانيتها . . فتنفعل عليه ، وتصفعه بفردة القفاز الأخرى فتسقط على الأرض ويهرول هو خارجا يرتجف من الغضب والانفعال .

ويعود الإبن مع خطيبته الجميلة الثرية بعد أن عرف من أبيه برفض الأم للزواج منه ويحاول إقناعها بقبوله كاعتراف منه بخطئه القديم فى حقها . . فتقول له مستنكرة :

ـ كيف أقف بين يدى الله لأعاهده على أن أحب الرجل الذى أكرهه وأحتقره ، وكيف أعاهد الله على أن أحافظ على شرف من أضاع شرفى ؟ ! .

ويسكت الإبن احتراماً لأمانة أمه . . ويزداد إعجاب خطيبته بها فتطلب منها أن تعتبرها ابنتها ؛ لأنها أم رائعة وسيدة أمينة ترفض خداع النفس وخداع الآخرين ولو كان المقابل هو الثراء ورد الاعتبار . وتتأثر الأم بكلماتها الطيبة وتعانقها متأثرة ، وفجأة يلمح الإبن الشاب فردة القفاز الأبيض ملقاة على الأرض . . فيرفعها ويسأل أمه ببراءة : من كان عندك اليوم . . يا أمى ؟ فتنظر لفردة القفاز للحظات ثم تشير بيدها إشارة الاستخفاف وتقول :

ـ أوه . . إنه رجل لا أهمية له !

وينزل الستار على المسرحية الرائعة التى كتبها الكاتب والشاعر الإنجليزى العبقرى أوسكار وايلد الذى عاش ٤٦ عاما فقط من ١٨٥٤ إلى ١٩٠٠ والتى اختار لها اسماً معبراً هو « امرأة لا أهمية لها ! » .

وقد قرأت هذه المسرحية الجميلة منذ أكثر من عشرين سنة ، وحين سافرت إلى انجلترا لأول مرة عام ١٩٧٧ ، بحثت عنها فى مسارح حى «الوست الإند » لأشاهدها على خشبة المسرح فلم أجدها ، وواظبت بعد ذلك على البحث عنها كلما سافرت إلى لندن فى الصيف فى دليل العروض المسرحية الذى يضم كل ما تعرضه مسارح العاصمة البريطانية كل صيف . . فلم أصادفها مرة واحدة لسوء حظى معها . فإذا سألتنى . . ولماذا أريد رؤيتها وقد قرأتها أكثر من مرة أجبتك على الفور : لكى أرى هذا المشهد الجميل الذى تأسرنى كلمات حواره وطالما تفكرت فيها . . وهززت رأسى مؤيداً لأفكارها النبيلة . . إنه المشهد الذى تنتاب فيه الأم المخاوف من أن يفقد ابنها حبيبته الأمريكية الجميلة بعد أن اضطرت هى لتلطيخ شرفها أمام الجميع لتنقذه من ارتكاب جريمة ،ثم تفاجأ بالفتاة التى فقد ابنها عمله وفرصته للنجاح من أجلها تؤكد تمسكها بابنها وتتعجل البدء فى إجراءات الزواج . . ورغم ذلك لا تطمئن الأم وتخشى أن تكون الفتاة محرجة من أن تتخلى عنه بعد أن فقد مستقبله بسببها . . فتسألها بقلق :

ـ هل تحبينه ؟

ـ فتجيبها : لقد أحببته دائما .

ـ فتقول لها بمرارة : لكننا فقراء .

فتجيبها الفتاة فى « تعجب » آسر :

ـ كيف يكون الإنسان فقيراً وهناك من يحبه ؟ إننى أكره ثرائى . . وأريده أن يشاركنى عبء حمله ! وتسعد الأم بإجابتها لكنها مع ذلك لا تتخلى عن إشفاقها ومخاوفها فتعود لتقول لها :

ـ ولكننا ملطخون بالعار . . وجريمة الآباء لابد أن يحملها الأبناء . . إن هذه هى شريعة الله !

فتهز الفتاة المحبة رأسها معترضة وتقول للأم :

ـ لا يا سيدتى . . إن شريعة الله . . هى الحب !

هذا هو المشهد الذى يأسرنى أكثر من أى مشهد آخر فى هذه المسرحية الجميلة . . وهذه هى الكلمات التى تدير رأسى كلما أعدت قراءتها وفكرت فى معانيها .

نعم . . نعم . . ليس فقيرا من يحب . . ومن يُحب ولو كان من المعدمين . وليس غنياً من لا يحب أحداً ولا يستدفىء بحب أحد وعطفه فى زمهرير الحياة . . ولو كان من أصحاب الملايين . فجنة الأرض هى راحة النفس واطمئنان القلب ، أما المال القادر على أن يشترى كل شىء فى الحياة فإنه لا يستطيع شراء شيئين أساسيين هما الحب والصحة ، وحتى الصحة أثبت الطب الحديث أن من يستمتعون بالسعادة والحب

الحقيقى فى حياتهم الشخصية أقل تعرضا من غيرهم لأمراض القلب والشرايين والأمراض النفسية والعصبية ، كما أنهم أطول شباباً . . وأقصر شيخوخة . أما تجارب الحياة فلقد أثبتت أنهم أكثر ميلاً للخير وللحياة فى سلام مع الآخرين وأقل عدوانية تجاههم ، وأقل رغبة فى إيذائهم أو إيذاء الحياة ، ولا عجب فى ذلك فالنفس المطمئنة ترعى دائما حدود ربها ، وترتفع عن الأذى والحقد والصراعات حول صغائر الدنيا وتحب الحياة والبشر والحق والخير والجمال .

كما أن الحب الحقيقى يتسع دائما ليشمل الإنسان والحيوان والطيور والأزهار وكل ما يضيف إلى الحياة ولا يخصم منها .

فهل عرفت الآن سر كثير من شرور الحياة التى نشكو منها ؟

شرور الحياة « الفقراء » الذين لا يحبون أحداً من البشر ولا يحبهم أحد ويجثمون فوق صدر الحياة ينفثون فيها أحقادهم وكراهيتهم للجميع . . فادع لهم معى بالثراء العاطفى ليخلصهم من جدبهم . . وللحياة بالتخلص من شرورهم . . إن أصروا على الفقر «اللهم استجب».

٣

وليس حيّاً من لا يحب!

●● قالها أوسكار وايلد فى مسرحيته الجميلة « امرأة بلا أهمية » إنه ليس فقيراً من يحب ، فجاء هذا الفيلم الأمريكى الغريب ليقول لنا : بل وليس ميتاً أيضاً ! أما دليله على ذلك فهو هذه القصة :

لوسى زوجة وديعة جميلة جمالاً هادئاً تحب زوجها المهندس المعمارى الناجح وتتفانى فى رعايته وتقدس حياتها الزوجية . أما شقيقتها فهى غريبة الأطوار تعيش وحيدة بلا زوج وتنفق ساعات طويلة كل يوم فى تجارب تحضير الأرواح وتنشغل بها . وللزوجة الجميلة صديقة من أيام الدراسة لكنها شقت طريقاً مختلفاً فى الحياة . . فتزوجت ثلاث مرات ومات آخر أزواجها وهو فى أحضانها ، وعرفت بتأثيرها القوى على الرجال فخشيت منها الزوجات على أزواجهن !

أما لوسى فلا تخشاها على زوجها لأنها تثق فيه وتثق فى حبها له وفى صمود زوجها فى وجه الغزاة ، وفى المدينة الصغيرة مستشفى قريب يعمل بقسم الحالات الحرجة فيه طبيب شاب رأى لوسى . وأعجب بها وبإخلاصها لزوجها فتسلل حبها صامتاً إلى قلبه . واستقر !

ثم دعت الشقيقة « المشعوذة » شقيقتها الجميلة للغداء ذات يوم وظلت تغريها بالطعام حتى انحشرت قطعة لحم فى زورها وكادت تختنق ، فأسرعت بها شقيقتها إلى المستشفى ، وفى قسم الحالات الحرجة هلع الطبيب الشاب حين رآها . وأدرك خطورة الموقف ، فبذل كل جهده لإسعافها لكنها ماتت بين يديه وهو يبكى ويتوسل إليها ألا تموت لأنه يحبها حباً عظيماً ويعرف أن زوجها لا يستحقها !

وماتت لوسى . . وحزنت عليها شقيقتها الوحيدة حزناً عظيماً وكرست كل وقتها لتجارب تحضير الأرواح على أمل عجيب ومستحيل هو أن تعيدها للحياة مرة أخرى !

وكان منطقها فى ذلك أنك تستطيع أن تعيد للحياة من غاب عنها إذا كنت تحبه حباً عظيماً . . فيظل حبك له يدعوه للعودة من العالم الآخر . . ويلح عليه إلى أن ينجح فى اجتذابه مرة أخرى إلى عالم الأحياء ! وهى تحب شقيقتها حباً عظيماً منذ طفولتهما . . ولابد من أن ينجح حبها ذات يوم فى استدعائها للدنيا من جديد لأن نداء الحب أقوى من نداء الموت ! وتستغرق الشقيقة فى تجاربها الغريبة عاماً كاملاً حتى تنجح « بالفعل » فى إعادة شقيقتها للحياة فتنهض لوسى فى منتصف الليل وتخرج من قبرها

مرتدية نفس الفستان الجميل الذى كانت ترتديه فى مراسم الوداع وتسعد الزوجة بعودتها للحياة وتتخيل فرحة زوجها الحبيب حين يراها بعد عام من الفراق . . ولا تطيق الانتظار حتى الصباح فتجرى عائدة إلى بيتها ، وتتسلل إلى داخل البيت من الباب الخلفى على أطراف قدميها وتدخل إلى غرفة النوم فى هدوء ثم تضىء الغرفة لتستمتع بمفاجأة زوجها بعودتها فتفاجأ هى بوجود صديقتها الأرملة اللعوب فى فراشه نائمة إلى جواره ، وتنهار لوسى للمفاجأة القاسية ويستولى الفزع على زوجها وصديقتها ويشل الخوف حركتهما . . فيتجمدان فى الفراش وتجرى لوسى هاربة تبكى صدمتها إلى شقيقتها التى تهدىء من روعها . . وتبلغها بأن زوجها قد تزوج من صديقتها الحميمة بعد « وفاتها » بشهور ! وتستسلم الزوجة المصدومة لأحزانها بضعة أيام . . وتتسلل كل يوم لرؤية زوجها من بعيد ثم تيأس من استعادته فتقرر أن تتقبل الأمر الواقع وأن تكيف حياتها مع الوضع الجديد . وتخرج إلى الشوارع والمحال فتفاجأ بدهشة الناس لرؤيتها وفزع البعض منها . . لكنها تتقبل كل شىء بحكمة وتؤمن بأن الدهشة والفزع سيختفيان بعد قليل ، وتداوى جراح حبها لزوجها وفجيعتها فيه . والشقيقة سعيدة للغاية بعودتها للحياة ، ولكنها مهمومة بأمر خطير تخفيه عنها ، فقد نجحت فى إعادتها للحياة بقوة حبها العظيم لها . . لكنها لن تبقى على قيد الحياة أكثر من شهر واحد . . ولابد لكى تستمر بين الأحياء أن يحبها إنسان آخر حباً صادقاً نقياً من أى غرض وإلا فإن تأثير حب شقيقتها لها سوف يذوى تدريجياً

فتموت مرة أخرى . وتنشغل الشقيقة بالبحث عمن يحب شقيقتها لكى يبعد شبح الموت عنها .

وتشفق الأقدار على لوسى فتلتقى صدفة بالطبيب الشباب الذى بكى بحرقة يوم وفاتها . . وتفاجأ به لا يفزع لرؤيتها كما يفعل باقى معارفها . . إنما تستولى عليه فرحة طاغية ، ويصدق على الفور قصة عودتها للحياة . . ويعترف لها بحبه الصامت القديم ورغبته فى أن يتزوجها . وتروى لوسى الحكاية الغريبة لشقيقتها . . فتتنفس الصعداء وتعرف أنها قد كتبت لها الحياة من جديد وتنصحها بالزواج منه ، لأن حبه لها هو إكسير الحياة . . والضمان الوحيد لابتعادها عن الموت !

وينتهى هذا الفيلم الخيالى الجميل بلوسى وقد تزوجت الطبيب الشاب وبدأت تستجيب لمشاعره النبيلة وتتخلص من آثار حبها القديم لزوجها الغادر ! أما المشهد الذى لا أنساه منه فهو مشهد لا علاقة له بقصة لوسى مع زوجها أو مع الطبيب الشاب . . لكنه مشهد يثير التأمل فى مغزى حواره الغريب . . فلقد انتشرت قصة عودة لوسى للحياة فى المدينة وعرف الناس أن شقيقتها غريبة الأطوار تعيد الموتى إلى عالم الأحياء ، فجاءها رجل صارم الملامح يبدو من مظهره أنه من رجال العصابات وعرض عليها خمسين ألف دولار لكى تُعيد للحياة شريكاً له مات ، ومات معه سر ثروة كبيرة انفرد بها وأخفاها عنه .

فسألته الشقيقة بتلقائية : هل تحبه ؟

ودُهش الرجل للسؤال غير المتوقع ، وأجابها مستنكراً : أنا أحب

«فلان » هذا ؟! إن أحداً فى الحياة لا يمكن أن يحبه . فلقد كان وغداً بغيضاً لكل من عرفه أو تعامل معه طوال حياته .

فقالت له بهدوء : إذن فلا سبيل لإعادته للحياة مرة أخرى مهما فعلت أو بذلت من المال .

ـ لماذا ؟

ـ وأجابت : لأن السبيل الوحيد لاعادة إنسان إلى الحياة وبقائه بين الأحياء هو أن تحبه حباً قوياً صادقاً نقياً من أى غرض ، وما دام شريكك كما تقول . . فهو ميت . . وسيظل ميتاً للنهاية !

وخرج الرجل خائباً وازددت أنا يقيناً من هذا الفيلم الغريب بأنه ليس ميتاً من يجد من يحبه ، كما عرفتُ من قبل من مسرحية أوسكار وايلد أنه ليس فقيراً أيضا من يحبه أحد !

وكما عرفت ذلك أيضا من قصة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظيمة مع حبيبها الأمير ساكس جوتا التى رواها المؤرخون . فقد أعجبت الملكة بالأمير الشاب فى صمت لمدة ثلاثة أعوام تحول خلالها هذا الإعجاب إلى حب جارف ملك عليها كيانها ، فاستدعته ذات يوم لمقابلتها وقابلته فى قاعة العرش وهى تضع فى أصبعها خاتماً يحمل صورته ، وفاتحته بحبها ورغبتها فى الزواج منه ، فكان حبا بدعوة ملكية استجاب له الأمير الوسيم على الفور . وبعد عام من هذا اللقاء تزوجا وعاشت معه ٢١ عاماً من السعادة الصافية ثم مات ، فاعتزلت الملكة الدنيا حزناً عليه ، وبذل رئيس وزرائها ديزرائيلى جهداً كبيراً حتى نجح

فى إخراجها من عزلتها وإعادتها للحياة من جديد . فخرجت وبنت الامبراطورية البريطانية الواسعة وزينت تاجها بدرة الهند ، وقالت لخلصائها : إن أكبر دافع لها لكى تفعل ما فعلت هو زوجها وحبيبها الذى كان يحثها دائما على أن تخدم بلادها . . وتصنع مجدها ! وحين قيل لها بإشفاق : وكيف يفعل ذلك وهو غائب عنك فى عالم الموتى منذ سنوات ؟ أجابت مستنكرة : كيف يكون غائباً عن عالم الأحياء وصورته فى أصبعى . . وصوته فى أذنى . . ووجهه فى مخيلتى ليل نهار؟

صدقت يا صاحبة الجلالة . . كما صدق كل محب صادق الحب لمن يحب . . وفى ذمة الله « حياة » كل إنسان لا يجد من يحبه مثل هذا الحب العظيم .

وسامحه الله أوسكار وايلد أولاً . . ثم مؤلف هذا الفيلم الأمريكى الغريب ثانياً فيما يثيران من « مواجع » بأفكارهما الجميلة هذه عند «فقراء» الحب و« شهداء » الحياة الخالية منه ! . . .

والملتقى يا حبيبى . . بين أيدى الله !

٤

خاتم .. فى أصبع القلب!

●● كتبت إلى تقول : أنا مهندسة من أسرة طيبة تزوجت مهندساً زميلا لى رغم تواضع أسرته ، وأعددت كل شىء للزواج بنفسى من الإبرة للصاروخ كما يقولون ، وسعد بى زوجى سعادة لا توصف ، فأنا مرحة وجميلة ومريحة وأقوم بكل شىء فى بيتى من أعمال الديكور إلى أعمال طلاء الجدران وطلاء الموبيليات إلى أعمال الكهرباء والسباكة وحياكة الملابس . . إلى الطهى ورعاية الأطفال وتنظيف البيت وغسل الملابس وكى ملابس زوجى والاهتمام بأناقته . . فضلاً عن إقامة الولائم الدائمة لأصدقاء زوجى والإشراف على مذاكرة أولادى ومراقبة تحصيلهم الدراسى حتى أصبحوا والحمد لله من المتفوقين .

ولست أقول كل ذلك لأزكى نفسى ولكن لأصور لك حياتى مع

زوجى فقد كانت حياتناهادئة وسعيدة حتى بدأت ألاحظ على زوجى اهتمامه الزائد بزميلة متزوجة كانت دائما بين ضيوف بيتنا فى الولائم ، وكذبت نفسى فى البداية لكنى عثرت بين أوراقه على رسائل غرامية متبادلة بينهما . . وواجهته بما عرفت بعنف فأنكر وراوغ وتهرب وعشت فى جحيم من الشك والغيرة ثلاث سنوات طويلة لم أفكر خلالها فى طلب الطلاق حرصاً على مصلحة أولادى إلى أن هدأت العاصفة بعض الشىء بفضل صبرى وتعاطف أهله معى ، وابتعدت عنه وعنا هذه السيدة المستهترة . ثم مرض زوجى مرضاً طويلاً فوقفت إلى جواره وخدمته فى مرضه بإخلاص ودعوت له الله أن يحفظه لأبنائه وأسرته ، واستجاب الله لدعائى فشفى من مرضه وعاد إلى عمله ، فلم يمض وقت طويل حتى عاد زوجى إلى شروده القديم وراء النساء ، وبدأت ألاحظ عليه مبالغته فى التودد لكل صديقة أو قريبة تزورنا أو نزورها ، فأحاول أن أباعد بينه وبين كل من أشك فى احتمال استجابتها له ، ثم أقحم زوجى على حياتنا أسرة عائلها يعمل فى الخارج بصفة دائمة إلا شهراً كل سنة ، وبدأ يهتم بالزوجة الوحيدة وتهتم به بالرغم من أنها أكبر منه سناً . . وتكررت لعبة الاستلطاف بين الطرفين وأنا أرقب ما يجرى وأحترق ، وتطور الأمر عند زوجى الشارد أبداً وراء النساء إلى حب جارف لها ، وبدأت أقاوم وأرفض دعوتها لبيتى فبدأ يلقاها خارج البيت ويدافع عنها بأنها سيدة وحيدة تحتاج إلى خدماته .

ووجدتنى مرة أخرى وربما للمرة الرابعة خلال عشر سنوات من زواجى به أواجه الأختيار الصعب بين كرامتى وهدم بيتى والفضيحة

المدوية فى العائلة والعمل وبين مصلحة الأبناء واستمرار استقرار حياتهم، فماذا أفعل يا سيدى وهل أصبحت «الخيانة» هى سمة هذا العصر ؟

***

وكتبت لى زوجة أخرى تقول : أنا سيدة جميلة محجبة لم ينبض قلبى بأى عاطفة تجاه أحد طوال حياتى لأننى ادَّخرت كل حبى ومشاعرى لمن سيجمع الله بينى وبينه ، ثم تقدم لى زميل دراسة سابق يعمل فى إحدى الدول العربية خلال عودته فى الأجازة فقبلت خطبته ومالت إليه مشاعرى ، وتزوجنا وسافرت معه إلى مقر عمله وبدأت حياتى الزوجية معه فتفجرت ينابيع الحب المكبوتة فى أعماقى ، وأحطته بحبى ورعايتى وسعدت بعشرته الجميلة الهادئة وأنجبت له طفلين وأقف إلى جواره حين يعانى من متاعب العمل ثم انتقل زوجى منذ عام إلى عمل جديد وأصرَّ عند عودتنا لبلدنا فى الأجازة على أن يتركنى مع أطفالى عند أهلى لفترة بحجة عدم استقرار ظروف العمل الجديد ، وعاد وحده وأقام شهوراً هناك حتى ألححت عليه فى السفر إليه وعُدت لبيتى ففوجئت بإنسان جديد غير زوجى الذى عاشرته خلال السنوات الماضية ، فلقد أصبح جافاً معى ومنطوياً على نفسه ويعلل ذلك لى بأن ظروف العمل الجديد مرهقة ، ثم فوجئت به ذات يوم يخطىء ويناديني باسم سيدة أخرى وصدمت صدمة قاسية ، وبعد تفكير واجهته فإذا به يعترف لى بهدوء بأنه يحب صاحبة هذا الاسم وبأنها زميلته فى العمل الجديد

ومطلقة . . ثم يسألنى ببراءة الأطفال : وما المانع فى أن أتزوجها ونعيش كلنا معا فى بيت واحد سعداء ! واهتزت الأرض بى . .

ودهشت حين علمت أنها على استعداد لأن تتزوجه ولكن بشرط ألا تهدم بيتى ، لقد توقعت فى البداية أن تكون نزوة طارئة أو عاطفة عابرة لكن الأيام أثبتت لى عكس ذلك .

وأنا يا سيدى إنسانة مسالمة وزوجى هو كل حياتى وعمرى ولا أذكر أننى قد تشاجرت معه ذات مرة وهو حنون ولا يبخل بشىء علىَّ أو على بيته ، لكن ظهور هذه السيدة فى حياتنا قد قلب كياننا رأسا على عقب ، فلقد بدأ يهمل بيته ويدخل إليه مهموماً ويغادره مهموما وبمجرد عودته للبيت تبدأ بيننا المشاحنات حتى قال لى صراحة : إن حب هذه السيدة أكبر منه وإنه عاجز أمامه ثم عرض علىَّ زوجى سامحه الله ثلاثة حلول لأختار منها ما يلائمنى : الأول أن ننفصل ويتزوجها . . والثانى أن يتزوجها مع استمرار الحياة الزوجية بيننا وعدم اعتراضى على هذا الوضع بل والرضا به ، والثالث : ألا يتزوجها ونستمر فى العيش فى هذا الجحيم المستعر بيننا كزوجين على الورق فقط مع استمرار المشاحنات والمشاجرات . . وأنا لا أريده إلا زوجاً لى وحدى يحبنى وأحبه كما كنا طوال السنوات الماضية فماذا أفعل معه يا سيدى ؟

* * *

وكتبت لى سيدة تقول : « تقدم لخطبتى مدرسى بالكلية التى كنت أدرس بها ولم أكن أعرفه أو أحاول لفت أنظاره إلىَّ ، وإنما هو الذى

اختارنى بملء إرادته وعشنا فترة خطبة طويلة سعيدة كان خلالها يزهو بى بين زملائه وأصدقائه ، وتزوجنا وأنجبنا طفلين جميلين ، ووفرت له كل ما يحتاج إليه من هدوء وأحببته بإخلاص فماذا حدث بعد ذلك يا سيدى ؟

لقد هدأت عاطفته تجاهى بعد سنوات قليلة وضاق بالاستقرار والحياة العائلية الهادئة وبدأ يبحث عن الحب خارج بيته وكأن زوجته أنثى من نوع مختلف لا يصلح للحب ! ولم يعد يجد وقتاً كافياً لكى يقضيه معى أو يتحدث فيه إلى ، ولم يعد يشركنى معه فى أفكاره وأحلامه أو يوجه لى كلمة حب واحدة ثم بدأت أحس به يتسلل من الفراش معتقداً أننى نائمة ليمضى السهرة مع التليفون ، ويتحدث بصوت خافت عن لهيب الحب الذى يحرقه فأحترق وأتساءل مقهورة . . ومن قال إننى لا أصلح للحب كتلك التى يقضى الساعات فى الحديث معها خلال الليل ؟ ومن قال له إننى لا أصلح إلا للخدمة وتربية الأبناء وإدارة البيت ، أما الحب فشأن آخر لابد من البحث عنه . . فى الخارج ؟

إننى بشهادة الجميع طيبة وجميلة وحسنة العشرة والخلق ولم أطمع يوماً ما فى مال زوجى بل أنفق دخلى الكبير عن آخره على بيتى وأولادى فما عذره فى أن يبحث عن الحب عند غيرى ؟

إننى أناشد كل زوج ألا يستهين بمشاعر زوجته . . وألا يعرضها لمحن الشك فى إخلاص زوجها لها . . وألا يتمادى فى عبثه خارج بيته مطمئنا إلى صلابة أساس بيته وإلى انصراف زوجته للعناية بأولادها وبيتها

فالكمال لله وحده . . وتكرار الخيانة يفقد المرأة أحيانا ثقتها فى نفسها . . ويشعرها بالهوان والجدب العاطفى وبأنها ليست جديرة بالحب ، فإذا التقت فى مثل هذه الظروف بثعلب ناعم يهمس فى أذنها بالكلام الحلو الذى لم تعد تسمعه من زوجها . . فلربما تنخدع به وتنزلق قدمها إلى الخيانة . . ثم كيف يكون موقف زوجى منى إذا ما انصرفت أنا أيضاً عنه وعن أولادى وجريت وراء لعبة الحب اللذيذة التى يجرى وراءها زوجى الآن ؟

* * *

ثلاث رسائل تلقيتها فى أوقات متقاربة فاهتممت بها واكتأبت لها ، إذ لا شيء يمس القلب كما تمسه شكوى من يحب بإخلاص من خيانة حبيبه له وغدره به ، ولا أحد يستحق العطف أكثر ممن يخلص لمن لا يخلص له ويتمسك بإخلاصه له حتى النهاية ، فإذا كان قد قيل قديماً إنه لا شيء أضيع من وفاء يمنح لمن لا وفاء له ، فإيمانى دائماً هو أن «كل إناء ينضح بما فيه» . وأن الخيانة جريمة أخلاقية تسيء لفاعلها قبل أن تسيء لشريك حياته ، وأن الرد على الخيانة بالخيانة ليس إلا تردياً فى الهاوية التى نشكو من تردى الأعزاء فيها ، وأن اعتدادنا بأنفسنا لابد أن ينأى بنا عن الرد على الخطأ بارتكاب الخطأ ليس وفاء لمن لا وفاء له . . وإنما وفاء لأنفسنا أولاً واحتراماً لها وارتفاعاً بها عن الدنايا .

فإذا كانت الزوجة الأولى تسألنى متألمة . . هل أصبحت الخيانة هى سمة العصر فإننى أجيبها بغير تردد بأنها ليست سمة العصر ولا أى عصر وإنما هى سمة الغدر وسمة من جفت ينابيع الحب فى قلوبهم . .

أو توهموا الحب ثم اكتشفوا زيفه . . أو من ماتت عاطفتهم تجاه شركاء حياتهم ضحية للشقاق الطويل وإهمال رعاية الحب ، أما الحب الحقيقى فهو سياج يحمى المحبين من الوقوع فى الخطأ . . والاستجابة لأية غواية مهما كانت قوتها .

لقد ابتدع الفراعنة عادة وضع دبلة الزواج فى بنصر اليد اليسرى لأنهم كما قال أحد المؤرخين كانوا يعتقدون أن فى هذا الأصبع عصباً يتصل بالقلب ، فكأن الزوج حين يضع خاتمه فى أصبع يد حبيبته فإنما يضعه حول قلبها ويقيدها بحبه ما استمرت علاقة الزواج بينهما . . وكذلك تفعل الزوجة حين تضع خاتمها فى يد زوجها . ولقد كشف الطب فيما بعد أنه ليس فى هذا الأصبع عصب يتصل بالقلب ومع ذلك فإن الرمز يظل قائماً وصحيحاً إلى ما لا نهاية . . والإخلاص هو دائماً ثمن السعادة الحقيقية . . وضريبتها أيضاً ، والضمير لا يمنع الإنسان من ارتكاب الخطأ فى بعض الأحيان . . لكنه لا يسمح له أبداً بأن يستمتع بهذا الخطأ . . استمتاعاً صافياً ولا بأوقاته ، وإنما هى نوبات من اللذة العابرة يعقبها الألم . . ولوم النفس . . واحتقارها أيضا فى كثير من الأحيان . . فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يطلب الإنسان متعة لا تورثه إلا الألم واحتقار النفس بعد حين ؟

لقد قلت لهؤلاء الزوجات الثلاث ولغيرهن ممن يسألننى نفس أسئلتهن الحائرة : إن هبة السعادة . . تشترى بثمن بالغ الفداحة ، ولهذا فلابد من الصبر ومغالبة النفس والكفاح الطويل لاسترداد الطائر الشارد عن عشه . . واستعادته إليه بالفهم لأزمته . . ومعاونته على

استكشاف الحقيقة الغائمة أمام عينيه الآن ، وهى أنه لا سعادة حقيقية إلا للمخلصين . . ولا راحة للقلب والضمير إلا فى جوار من يحبنا بإخلاص وبين أبنائنا وقلت لهن أيضاً إن استعادة الطائر الشارد لبيته لا تتحقق أبداً بالصدام المستمر والمواجهات الصاخبة أو بالنفور منه ، وإنما تتحقق بالتعالى على آلام الزوجة . . ومضاعفة عطائها العاطفى له ومعاملتها لزوجها الخائن كما تعامل الأم طفلها المريض حين تخصه بمزيد من الرعاية والاهتمام إلى أن يبرأ من مرضه ويسترد عافيته .

إنها مباراة مستمرة بين طرفين ، وليس من الحكمة أن تتيح الزوجة لزوجها الغادر فرصته الآثمة لكى يقارن بين ما ينال منها من جفاء ونكد وشجار دائم وغضب عارم للكرامة وهجر له ، وبين ما ينال من الأخرى التى اجتذبته إلى خارج عشه من دفء عاطفى ورقة فى المعاملة وإشفاق عليه مما يعانيه وفهم لظروفه واستعداد لاحتمالها وللصفح عنه والصبر عليه . . فلا تكون المقارنة فى النهاية إلا حطباً جديداً يضاف إلى مدفأة حبه لها فيتعالى لهيبها . . ويتراقص زاهياً بانتصاره !

ونصيحتى الدائمة لكل زوجة تواجه هذا الموقف . . هى أن تتمسك برفض هذا الوضع رفضاً صامتا بعيدا عن الانفجارات والزوابع وألا تسلم به كحقيقة واقعة فى حياتها فيطمئن جانب زوجها إلى استسلامها ويتمادى فى شروده ، وألا تكف فى الوقت نفسه عن الدفاع عن سعادتها وزوجها وبيته ضد غازيات البيوت الآمنة وأن يكون سلاحها فى كل ذلك هو محاورة ضميره ومحاولة إيقاظه من غفوته وإشعاره بمسئوليته الإنسانية عمن تحبه وتتعذب بخيانته وتصبر عليها أملاً فى شفائه من هذه النزوة



العابرة . . وأذكر أن فنانة معروفة قد روت لى ذات يوم قصة مماثلة لهذه القصص الثلاث مع زوجها وهى تبكى متألمة ، ثم سألتنى أن أشير عليها بما تفعل ؟ فكانت إجابتى لها فى كلمات قليلة هى : لا تصادميه باستمرار . . لا تتشاجرى معه كل يوم . . لا تجعلى منه خصماً لك بهذه المواجهات . .

وإنما اجعلى منه جانياً عليك وأنت ضحيته التى تتعذب بخيانته وتحبه فى صمت وتتألم . . استثيرى إشفاقه عليك وإحساسه بمسئوليته عما تعانين من آلام . . ولا تستثيرى حنقه عليك وضيقه بمشاجراتك . . خاطبى فيه ضميره . . ولا تغلقى أبواب صفحك فى وجهه من أجل أبنائك ومن أجلك . . فالعطف طريق الحب . . والجفاء خصمه اللدود . . لا تبكى كثيراً كلما جاء إليك ولكن دعيه يرى عيونك الحمراء من أثر البكاء الطويل فى غيابه . . ثم قابليه بعطف حزين يتحول إلى سهام تشق قلبه وضميره وتوجعه وترده عما يفعل . .

واستمعت الفنانة الشهيرة لما أشرت عليها . . وعملت به . . وكانت النتيجة طيبة والحمد لله .

وليس عندى وصفة أخرى لهذه الحالة للأسف إذا أرادت الزوجة أن تستعيد زوجها ، أما إذا لم تَرِدْ وآثرت الثورة لكرامتها ففى الانفصال متسع للجميع وضحاياه هم الأطفال الذين يرثون الجنة ! نعم . . الجنة التى طردهم منها الآباء والأمهات فى الأرض حين استسلموا لأهوائهم وانفعالاتهم فادخرها الله لهم فى الآخرة . . كما ادخرها أيضاً للمخلصين والصابرين . . وأهل الوفاء .

٥

قلب جديد!

●● ثلاث سنوات وهو يعمل معها فى نفس المكان ، ولم تلتفت إليه، ولم تشعر بوجوده،

إنه شاب خجول منطو على نفسه . . قليل الكلام يؤدى عمله فى صمت، ويغادر المكان فى هدوء ، وهى شابة جميلة تحب الحياة والناس ، لكنها تقول عن نفسها أنها لاتعرف كيف تختار حياتها . . فمن تحبه لا يلبث أن يهجرها بلا سبب ، ومن يرغبها تعمى عنه إلى أن ينصرف عنها ، وليس لها من صديقة سوى زميلتها السمراء التى تعمل فى نفس الكافتيريا وتتهمها دائما بالسذاجة لأنها تقبل على من تحب بلا تحفظ ، وتغمره بحبها فلا يلبث أن يزهد فيها . .

وصديقها قد فاجأها بالغدر على غير انتظار ، فكرهت كل شىء ، وقررت أن تغلق قلبها فى وجه الجميع إلى أن تتعلم خبرة الحب التى تتيح

لها أن تكون هى المرغوبة ويكون الطرف الآخر هو الحريص على الاحتفاظ بها .

وبين حديث العزاء المتبادل بين الصديقتين خلال لحظات الراحة من العمل تلتفت الشابة الحزينة إلى ذلك الشاب المنطوى الذى يعمل فى هدوء فى مطبخ الكافتيريا وتسأل صديقتها السمراء هل هو قادر حقاً على الكلام ؟ وتشاركها صديقتها التعجب لأحواله وصمته وشعره الطويل المنسدل على جانبى وجهه . . ثم تنهض كلتاهما لأداء عملهما قبل أن يوبخهما مدير الكافتيريا أو المطعم .

وفى المساء تغادر الفتاة الحائرة مع قلبها المكان عائدة على الأقدام إلى بيتها فيلاحقها شابان عابثان يتحرشان بها ويتجاذبانها فى الحديقة الخالية التى تقطعها كل مساء فى طريق العودة . . وتدافع الفتاة عن نفسها بكل طاقتها فلا تلبث أن تنهار مغمى عليها ، وفى اللحظة التى يوشك فيها الشابان على اقتراف جريمتهما يظهر فجأة الشاب الصامت عامل الكافتيريا ويطيح بهما وينحنى على زميلته الشابة وينظر إليها بتألم شديد ثم يخلع سترته ويغطى بها ما تكشف من جسمها خلال تعرضها لمحاولة الشابين للاعتداء عليها ، ويحملها على ذراعيه وهى غائبة عن الوعى ، ويتجه بها إلى بيتها فينزلها أمام بابه ويجلس غير بعيد عنها يترقب تنبهها مما غشاها إلى أن تفيق مرتعبة فتنظر إلى نفسها فى فزع وإلى الشاب الغريب الصامت فى قلق ثم تفتح باب بيتها وتغيب وراءه بلا كلمة واحدة ويمضى الشاب فى طريقه عائداً إلى بيته .

وفى اليوم التالى غابت الفتاة عن عملها ولم تذهب إليه ، ثم رجعت إلى عملها تحمل على يدها سترة زميلها ، فتوجهت إلى المطبخ وأعادتها إلى الشاب الصامت شاكرة ، فإذا به يقول لها متألماً وهو يخفض عينيه حتى لا يواجه نظرتها إنه شديد الأسف ، لأنه قد تأخر فى العمل بعض الشيء ليلة الحادث المؤلم فلم يستطع حمايتها من هذين الشابين قبل أن يتجرآ عليها بالإيذاء .

وتكتشف الفتاة أن الشاب الصامت الخجول كان يتبعها دائماً عن بعد كلما عملت فى وردية المساء واضطرت للعودة وحدها إلى بيتها فى وقت متأخر .

وتسأله بدهشة : هل كنت تتبعنى من قبل ؟

ويجيبها ورأسه لا يزال منحنياً على صدره : نعم لأحميك من أخطار الطريق فى الليل .

وتغادره الفتاة لتبدأ عملها وهى مشغولة الخاطر بهذا الشاب الغريب . . لقد حماها من عدوان الشابين العابثين لكنه شديد التألم ، لأنه لم يستطع أن يمنع العدوان من البداية . ولقد كان يتبعها كلما غادرت العمل وحيدة إلى بيتها فى المساء ليحميها من أخطار الطريق ويحرص على ألا تراه أو تشعر به خلال ذلك وهو يتحدث إليها ورأسه منكس إلى الأرض وبصوت خفيض خجول ، ولا يجرؤ على النظر إليها ، فأى مشاعر صادقة يحملها هذا الشاب الصامت تجاهها . وشيئاً فشيئاً تجد الفتاة نفسها مهتمة بهذا الشاب الغامض . . وتلتقى به فى غير أوقات

العمل فتعرف عنه أنه شاب يتيم تربى فى بيت لرعاية الأطفال اليتامى ، وكان طفلا مريضا معظم سنوات طفولته ، وأنه شاب مثقف يقرأ الكتب التى لا يقرأها أمثاله من العاملين بالمطعم ويحتفظ باسطوانات الموسيقى الكلاسيك ، ويفسر لها وجود عدد كبير من الكتب فى مسكنه بأنه لا ينام كثيراً وأنه اعتاد العزلة منذ طفولته المريضة التى حرمه المرض خلالها من مشاركة الأطفال ألعابهم . . وتزداد الفتاة اقتراباً منه واحتراماً لمشاعره وأفكاره رغم غرابتها وتطلب منه أن يرفع عينيه فى وجهها حين يتحدث إليها ، وتدعوه لقضاء ليلة رأس السنة فى بيتها مع أسرتها .

وتتكتم الفتاة علاقتها الحميمة به حتى عن صديقتها السمراء الوحيدة ، وتفاجأ ذات مساء به وهو يترنح والدماء تنزف منه بغزارة ، فقد كان يخرج بعض المهملات من الباب الخلفى للمطعم فترصده الشابان العابثان بعد أن برآ من جراحهما وأنهالا عليه ضرباً وركلا ثم طعنه أحدهما بمطواة فى بطنه فتحامل على نفسه ونزع المطواة بيده ، ثم دخل إلى المطعم يترنح ويوشك على السقوط ، وصرخت الفتاة الجميلة صرخة مدوية حين رأته يتهاوى أمامها ورافقته فى سيارة الإسعاف إلى المستشفى ، وصارحت الشرطة بما حدث لها يوم محاولة الاعتداء عليها وعلاقة ذلك بما فعله الشابان العابثان بفتاها . . فألقت الشرطة القبض عليهما .

ولازمت الفتى الجريح فى المستشفى وراحت تسأل الطبيب بقلق عن حالته فيجيبها بأنها خطيرة ليس بسبب طعنة المطواة وما تعرض له من ضرب وإيذاء وإنما لأن الفتى مولود بعيب خلقى فى القلب ولا علاج له

إلا بعملية زرع قلب جديد فى صدره بدلاً من قلبه المريض . وتهلع الفتاة لما سمعت وتأمل أن ينجح الأطباء فى إنقاذ حياته ، لكن الفتى يرفض بإصرار غريب فكرة انتزاع قلبه من صدره واستبداله بقلب جديد ، ويتمرد على قيود المستشفى فينزع الأنابيب التى تربطه بالأجهزة الطبية ، ويرتدى ملابسه ويغادر المستشفى فى الصباح الباكر ليذهب إلى حبيبته التى لا يطيق الابتعاد عنها وتسعد الفتاة برؤيته لكنها تتساءل عن سبب رفضه إجراء جراحة زرع القلب له فيجيبها دهشاً للسؤال نفسه : لأنهم يريدون أن « يأخذوا » منى قلبى الذى يحبك ! .

وتضحك الفتاة بسعادة وتحاول إقناعه بأن الإنسان إنما يحب بعقله وأفكاره وأحاسيسه وليس بعضو معين من أعضاء جسمه ، لكنه يصر على أنه لن يسمح لأحد بأن يأخذ منه قلبه الذى أحبها به ! . وتأمل الفتاة فى أن تقنعه مع الأيام بإجراء الجراحة الضرورية وتعلن للجميع حبها له وسعادتها به وتفرض عليهم أن يعاملوه بما يستحقه شاب طيب وأمين مثله من احترام وتقدير .

وترسو سفينة الفتاة نهائياً فى مرفأ هذا الشاب الطيب الذى تتعجب لايمانه بخرافة الحب بالقلب الذى لا يعدو أن يكون مضخة للدم رغم ثقافته المميزة وتصطحبه معها فى كل مكان . . ويبدو واضحاً للجميع أنها قد عرفت أخيراً كيف تختار حياتها ومن تمنحه حبها بلا تحفظ أو حسابات فلا يزيده ذلك إلا رغبة فيها وتمسكاً بها .

وتصحبه ذات يوم إلى إحدى المباريات الرياضية فيجلس إلى جوارها

فخوراً بوجوده معها ، وتنتهى المباراة ويغادران الملعب فتقود الفتاة سيارتها الصغيرة ويجلس الشاب الطيب إلى جوارها يتحدث إليها بتلقائيته الحبيبة وتضحك الفتاة من قلبها طوال رحلة العودة بالسيارة وتراودها أحلام الاستقرار والأمان مع هذا الشاب الطيب إلى نهاية العمر وتستريح إلى أنه سيظل يحبها بالقلب الجديد كما يحبها الآن بقلبه المريض وأكثر ، وتستغرق الفتاة فى خواطرها وتأملاتها بعض الوقت ثم تلتفت إليه فتجده نائماً إلى جوارها كالملاك وابتسامة خفيفة تشع من ملامح وجهه الطيب الذى يتدلى على جانب صدره . وتصل السيارة إلى بيتها فتدعو فتاها برفق للاستيقاظ لكى تقدمه إلى أمها وزوج أمها وشقيقها لكن الفتى لايزال مستغرقاً فى نوم الملائكة فتضحك الفتاة لاستغراقه فى النوم كالطفل البرىء ، وتكرر عليه النداء عدة مرات بلا استجابة من جانبه فتهزه برفق وهى تغالب الضحك فلا يستجيب . . فتهزه بشدة أكثر فإذا به نائم نومه الأبدى فلا تصرخ ولا تولول وإنما توسد رأسه صدرها وتحيطه بذراعيها وتبكى فى صمت . . لقد رحل الفتى الطيب عن الدنيا فى لحظة خاطفة سعيداً بأنه قد نال من السعادة ما كان يحلم ببعض منه ، واحتفظ بقلبه الذى أحبها به فوشت ملامحه شبه الباسمة بالارتياح والاستسلام وليس بالألم أو الخوف .

وتمت المراسم المعتادة فى مثل هذه الظروف الحزينة ورجعت الفتاة مع صديقتها وهى تقول لها :

أخيرا عرفت من يستحق حبى . . لكن ها هو غاب عنى إلى الأبد! . .

ثم تسترجع ذكرياته معها فى مخيلتها فتبتسم للذكرى ابتسامة حزينة وتقول لصديقتها : لقد كان كالملاك وعزائى الوحيد هو أننى قد أسعدته . . وسعدت به هذه الفترة القصيرة ! .

وتنتهى هذه القصة القصيرة التى نقلتها السينما الأمريكية وقدمتها فى فيلم شاعرى جميل منذ عدة سنوات ، ويبقى السؤال المؤلم دائما :

ـ لماذا لا تمنح الحياة السعادة للإنسان فى بعض الأحيان . . إلا وهو يسمع أناشيد الختام ؟ .

٦

مسافة بين القلب والعقل!

●● كانت لحظة ضعف عابرة لكن آثارها ستبقى إلى نهاية العمر ! فلقد تلقى الأستاذ الجامعى الشاب دعوة لإلقاء محاضرات لمدة شهر فى جامعة تلك المدينة الصغيرة البعيدة

فحزم حقائبه وودع زوجته الجميلة « وطالبها » بألا تلد مولودها الجديد قبل عودته . . وقبل طفلته الصغيرة ذات العامين ثم ركب الطائرة إلى المدينة البعيدة . وهناك أقام فى ضيافة صديقه الأستاذ الجامعى القديم وزوجته العطوف ، وتردد على الكلية التى يحاضر بها بانتظام .

وفى عطلة نهاية الأسبوع اصطحبه مضيفه فى جولة بسيارته . . فأفلتت منه عجلة القيادة على الطريق السريع واصطدم رأس الأستاذ الزائر بمقدمة السيارة فأصيب بخدش بسيط . . قاده صديقه إلى مستشفى المدينة الصغيرة ليطمئن على سلامته ، واستدعى الطبيبة الشابة صديقة زوجته لإسعافه ، فأدت مهمتها وطمأنت زوج صديقتها

وطالبته بالعودة لزوجته ، لأنها ستستبقى زميله بعض الوقت فى المستشفى للتأكد من عدم إصابته بارتجاج خفيف فى المخ . وأجرت له بعض الفحوص . . وتكرر لقاؤه بها فأحس الأستاذ الشاب بالارتياح لها وسألها عن ظروف حياتها وروت له أنها فقدت أبويها خلال طفولتها وواصلت تعليمها تحت رعاية صديقه الأستاذ الجامعى وزوجته ، وروى لها عن زواجه وسعادته مع زوجته وطفلته والمولود المنتظر . وتكررت اللقاءات وسألها ذات مرة ألا تحس بالوحدة . . وألا تفكر فى أن تكون لنفسها أسرة صغيرة ، فأجابته بأنها لم تلتق بعد بمن يخفق له قلبها ، ولو التقت به فإنها ستتمسك بأن تنجب منه طفلاً ، لكى تربيه ويكون عزاءها عنه إذا حالت بينه وبينها قيود الحياة، وازداد الأستاذ الشاب اقترابا منها وازدادت هى إعجابا به . . كانت وحيدة جميلة رقيقة يشع حزن شفيف فى وجهها وحياتها ، وكان غريبا . . وحيداً بعيداً عن زوجته وحياته المألوفة فضعف أمام جمالها ورقتها وحزنها .

ثم انتهت محاضراته بتلك الكلية الصغيرة . . فودع صديقته الطبيبة الشابة وصديقه الأستاذ الجامعى وزوجته الطبية وركب الطائرة إلى مدينته الكبيرة . . وبعد أسابيع وضعت زوجته طفلتها الثانية ومضت حياته فى طريقها المألوف .

وكبرت الطفلتان . . واكتملت بهما سعادة الأسرة الصغيرة . . وبدا الزوجان دائما مثالا للسعادة الزوجية والحب المتبادل والعطف .

وذات يوم عاد الأستاذ الجامعى إلى بيته فأبلغته زوجته بأن صديقه الأستاذ الجامعى القديم قد اتصل به من مدينته البعيدة ، وسيتصل به

غدا فى مكتبه بالكلية وجاء إليه صوته محييا وانتهت المكالمة فوضع السماعة ساهما واستغرق فى تفكير عميق .

لقد نقل إليه الصديق القديم خبراً غريبا هو أن تلك الطبيبة الشابة التى التقى بها منذ عشر سنوات قد لقيت حتفها فى حادث سيارة وتركت وراءها طفلاً صغيراً وحيداً عمره ٩ سنوات يعيش الآن فى رعايته هو وزوجته . . وأن هذا الطفل هو ثمرة الحب العابر الذى جمع بينه وبين الطبيبة لمدة شهر فى المدينة البعيدة ! .

وعاد الأستاذ الجامعى إلى بيته مهموماً وصارح زوجته بالحقيقة المؤلمة وتحمل غضبها عليه . . واعترف بخطئه فى حقها وحاول الاعتذار عنه بأنه لم ير تلك الطبيبة ولم يتصل بها منذ عشر سنوات .

وادركت زوجته عمق محنته فسألته خائفة : هل تريد السفر إلى مدينته لتراه فأجابها بأن هذا ما كان يفكر فيه بالفعل لأنه ابنه ولابد أن يتحمل مسئوليته عنه لكنه يخشى رفضها وغضبها لذلك .

وأطرقت الزوجة الشابة برأسها قليلاً ثم قالت له : لا أسمح لك بالسفر إليه . . ولكن ادعه أنت لقضاء أجازة نصف السنة معنا لتراه وتتحمل بعض مسئوليتك عنه .

ولم يصدق الزوج ذلك فى البداية لكنها أكدته له وصارحته بأنها تفعل ذلك حتى ولو لم تسترح إليه دفاعاً عن بيتها وطفلتيها وأسرتها الصغيرة . . ودفاعاً أيضاً عن زوجها الذى أخلصت له الحب طوال الأعوام الماضية .

فاقترب منها محاولاً تقبيلها شاكراً . . لكنها تخلصت منه قبل أن يلمسها وانصرفت إلى حجرة نومها . لقد فعلت ذلك استهداء بعقلها . . لكن قلبها لا يستريح لما تفعل ولم يغفر له بعد خيانته القديمة . وبين القلب والعقل مسافة لا تستطيع تقريبها أو القفز فوقها .

واتصل الأستاذ الجامعى بصديقه القديم ليرتب له إرسال الطفل بالطائرة فى أجازة نصف السنة . وفى الموعد المحدد وقف الأب الذى لا يعرف ابنه أنه أبوه أمام باب خروج العائدين من السفر فى المطار يترقب طفله المجهول . . وخرجت إحدى المضيفات وبيدها طفل صغير يسافر وحيداً فتركزت عيناه عليه وتساءل هل هو طفله المنتظر ، لكن المضيفة نادت اسماً آخر وتقدم أحد المنتظرين فاحتضن الطفل مرحباً وشكر المضيفة ، وتوالى خروج الركاب فترة ثم خرجت مضيفة أخرى وبيدها طفل صغير آخر يرتدى بنطلوناً قصيراً وجاكتاً رمادياً وربطة عنق سوداء . . فاشتد خفقان قلبه . . وتركزت كل مشاعره فيه ، فلم يسمع صوت المضيفة وهى تنادى اسمه سوى بعد النداء الثالث . فتقدم من الطفل ذاهلاً وصافحه باضطراب شديد وشكر المضيفة ثم اصطحبه إلى سيارته وهو ينظر إليه باهتمام. كان طفلاً جميلاً حزيناً ليس فيه مرح الأطفال ولا صخبهم . . فازداد قلبه إحساساً بالعطف عليه .

هذا هو إذن ابنه الذى لم يره . . ولم يعرف حتى الآن أنه أبوه وهذه هى ثمرة الحب العابر التى قالت أمه إنها لو صادفت من يخفق له قلبها فسوف تنجب منه طفلاً تحتفظ به لنفسها وتعيش له .

لقد أنجبته فعلاً واحتفظت به لنفسها فلم تتصل به ولم تحاول هدم حياته الزوجية من أجله . . لكنها لم تعش له كما تمنت وإنما اختطفها الموت فلم يعرف أحد أنه ابنه سوى صديقه الأستاذ الجامعى الكهل وزوجته ، فماذا تخبىء الأقدار لهذا الطفل الصغير ؟ .

ووصلت السيارة إلى البيت . . ووقفت الزوجة تنظر إلى الطفل الصغير القادم إليها وهى لا تستطيع أن تحدد مشاعرها تجاهه وتتردد بين النفور منه لأنه ثمرة الخيانة العابرة والعطف على طفل يتيم يبدو حزيناً عديم الحيلة ولا ذنب له فيما حدث منذ سنوات . . وأخيراً تمالكت مشاعرها ورحبت به بأدب وتحفظ ورحبت به الطفلتان بتطلع خفى إلى ما يمثله ضيف صغير جديد من مباهج النزهات الجماعية واللعب البرىء معه .

ونفذت الأسرة خطتها المعتادة للاستمتاع بالأجازة فاصطحبوا الطفل إلى الملاهى . . والمطاعم وبيوت الأصدقاء . ولفت الزائر الصغير انتباه أصدقاء الأسرة بأدبه الجم وتصرفاته المهذبة . . وقدرته السحرية على النفاذ إلى القلوب رغم صمته وعزوفه عن الكلام فى معظم الأوقات . وأحبته الطفلتان سريعاً وارتاحتا لصحبته وفتن به أبوه وتمنى فى أعماق قلبه لو عاش مع أسرته بصفة دائمة وألحقه بمدرسة فى نفس المدينة وأشرف على تعليمه إلى أن يصبح طبيباً كأمه .

أما زوجته فلقد اشتدت معاناتها مع محاولة تقريب المسافة بين عقلها الذى أشار بدعوة الطفل حرصا على زوجها وبين قلبها الذى يضيق به

خوفاً أيضاً على زوجها وطفلتيها . . وكلما رأت الإعجاب الصامت به يلمع فى عينى زوجها وهو ينظر إليه أو يشاركه ألعابه . . اشتد بها الضيق والألم وثارت على زوجها واتهمته بأنه لا ينظر إلى طفلتيه بمثل هذا الإعجاب الخفى فيقف الزوج حائراً أمام ما أصاب علاقتها به من تغير فى الصميم .

وتصارحه الزوجة بهواجسها وهى أنها تعرف أو تحس بأنه يتمنى أن يعيش معهم بصفة دائمة ويعترف زوجها بذلك لكنه يؤكد لها أنه لن يفعل إلا ما يتفقان عليه لأنه لا يريد أن يفقدها أو يدمر زواجه الناجح بها .

ويصارح صديقاً له بحقيقة أمر الطفل محاولاً التماس النصيحة لديه وتصارح زوجته صديقة لها بمحنتها الطارئة محاولة الاستفادة بحكمتها فى مواجهة الموقف . . بينما يواصل الأطفال الثلاثة برنامج الزيارة فى استمتاع كبير لكن عاملاً خطيراً يطرأ على الموقف . . فلقد أسرَّ طفل الصديق لكبرى الطفلتين بأنه قد سمع والديه يتحدثان عن مشكلة أبيها وأن هذا الطفل الصغير الصامت ليس ضيفاً عادياً فى بيتها وإنما هو أخوهما ! .

ويتبدد على الفور الحب والإعجاب الذى أحست به الطفلتان تجاهه ويحل مكانهما الغضب الشديد من الأب . . والغيرة القاتلة من هذا المقتحم المجهول الذى جاء ليشاركهما فيه .

وتواجه الإبنة الكبرى أمها وتسألها عن الحقيقة فتعترف لها بها وتقول

لها إن عليها أن تواجه الأمر الواقع وهو أنه حتى الآباء المثاليون كأبيها قد تكون لهم أخطاء فى الماضى ! . . لكن عقل الطفلة يتمرد على الحقيقة وما أن يعود أبوها من الخارج ومعه طفله حتى تثور على الطفل وتصفعه وتطالبه بالرحيل عن بيت أسرتها . . وتصيح الطفلة الصغرى فى وجهه بأن ذلك الرجل الواقف بجواره هو أبوهما وحدهما ! . ويصعق الطفل الصغير بما سمع وينفلت هارباً من البيت لكن أباه يلحق به ويعترف له بالحقيقة التى يجهلها ويرجوه أن يقبل اعتذاره عن تخليه عنه فى السنوات الماضية ؛ لأنه لم يكن يعرف بوجوده . . ثم يسأله بخوف حقيقى : هل أنت غاضب منى لذلك؟ فيفاجأ بالطفل الذى يتكتم عادة مشاعره يقول له : لا . . بل إنى سعيد بأنك أبى فلقد حدثتنى أمى طويلاً عن أبى وقالت لى إنه رجل رائع عطوف . . وحين رأيتك وعرفتك تمنيت لو كان أبى رجلاً مثلك .

ويختتم الطفل حديثه بأنه سيعود إلى البيت ليحزم حقيبته ويرجع إلى مدينته البعيدة ويحنى الأب رأسه مسلماً بأنه لم يعد هناك مفر من ذلك لكنه يسأله بأمل ورجاء : هل ستوافق على أن تزورنا ذات يوم مرة أخرى؟ فيجيبه بأن ذلك سيسعده كثيراً . . إذا لم يكن يغضب زوجته وطفلتيه .

ويعود الطفل على غرفته ويضع ملابسه فى حقيبته . . ويصافح زوجة أبيه مودعاً بأدب وتحفظ . . وتصافحه مودعة وهى مضطربة المشاعر ، ومترددة بين الارتياح لسفره . . والتألم له .

ويصطحبه أبوه بسيارته إلى المطار ومن مذياع السيارة تنبعث أغنية حزينة جميلة تقول كلماتها :

مُتعة الحب تدوم لحظة

شجن الحب يبقى إلى الأبد

فَتَغْرَوْرَقُ عيناه بـدمـع ثقيـل ويصـلان إلى المطار . . ويجلسان فى انتظار موعد الإقلاع . . ويتكرر النداء على الطائرة فينهضان للاتجاه لباب الدخول ، فيفاجآن بالزوجة والطفلتين يلهثن للحاق بهما قبل السفر . وتعتذر الطفلتان باكيتين عن إساءتهما إليه . . وتسألانه برجاء أن يقبل دعوتهما له للعودة مرة أخرى فى أجازة الصيف القادمة ، ويحنى رأسه موافقاً وشاكراً ثم يودع الزوجة بأدبه الجم فتتخلى عن تحفظها معه وتحتضنه بحرارة وتقبله دامعة . وتأتى المضيفة لتصطحب الراكب الصغير فيسير معه أبوه إلى باب الدخول ، وعندما يصلان إليه ينحنى الأب ويرفع ابنه ويحتضنه بحرارة ويطلق العّنان لمشاعره التى كبتها فى الأيام الماضية احتراماً لمشاعر زوجته وطفلتيه ويبكى بحرارة وألم ويبادله الطفل الصغير مشاعره الحارة ولكن بلا دموع . . ثم تمسك المضيفة بيده وتمضى به إلى باب الطائرة فيتوقف قبل أن يدخلها ويستدير لأبيه قائلاً :

ـ أحبك يا أبى

وتكون المرة الأولى التى ينطق فيها بكلمة «أبى» ويصرح له فيها بحبه . فتنهمر الدموع من عينى الأب بلا تحفظ ويقول له ؛ وأنا أيضاً أحبك . . ولن أنساك . . وسأنتظرك مرة أخرى .

ويغيب الطفل وراء الباب . . ويستدير الأب عائداً فيرى أمامه زوجته وطفلتيه وهن يبكين وينظرن إليه بعطف . . ورثاء ! .

وتنتهى قصة هذا الفيلم الأمريكى الحزين الذى لا أعرف من أين جاءوا له بهذا الطفل الصغير الذى يشع الحزن فى وجهه وروحه بغير أن يعبر عنه بالدموع أو بالكلمات .

ولا لماذا شاهدته أصلاً فأفسد على مشاعرى وتركنى ساهماً مكتئباً لفترة طويلة بعد انتهائه أحس خلالها إحساساً غير مفهوم بأن هذه الأسرة الصغيرة قد «خذلتنى» ولم تفعل ما كنت أرجوه وأطالبها به طوال تلك اللحظات الحزينة الأخيرة ، فلقد «رجوتها» بحرارة وإلحاح ألا تدع هذا الطفل البائس الوحيد يعود إلى مدينته البعيدة ، وهمست مستحثاً الزوجة الشابة والطفلتين أن يستعدن الطفل من يد المضيفة فى اللحظة الأخيرة ويقلن له : إلى أين تذهب ولمن تذهب . . وهنا أبوك وأختاك وبيت أسرتك الحقيقية التى ستسعد بك رغم كل ما حدث . . لقد غفرنا لأبيك خطيئته فى حق الحب والوفاء أو لعلنا لم نغفر له بعد لكننا سنغفرها بالتأكيد بعد بعض الوقت ، وسواء كان هذا أو ذاك فلا ذنب لك فيما جرى ، وليس عدلاً أن تدفع أنت ثمنه وحدك وتنشأ وحيداً محروماً من دفء الحياة الأسرية ولك أسرة صغيرة جميلة تستطيع أن تستمتع بدفئها وتستمتع هى بصحبتك وتفخر بك وبأدبك الجم .

لقد ظللت «أهمس» فى باطنى بذلك للزوجة والطفلتين طوال لحظات الوداع وأنا أترقب أن يستجبن لى فى اللحظة الأخيرة لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . ووقف الأب يبكى بعد سفر ابنه ووقفت الزوجة والطفلتان

يبكين إشفاقاً عليه ، وظللت أنا واجماً فى مقعدى أمامهم أنتظر أن يجىء مالا يجىء ، فلعله يأتى حاملاً معه الأمان والسعادة لهذا الطفل الحزين . . ولكل طفل مثله فى كل زمان ومكان .

ولعلنا نتذكر دائماً هذه الأغنية الحزينة التى تلخص المأساة كلها ومآسى كثيرة مماثلة فى هذه الكلمات القليلة :

مُتعة الحب تدوم لحظة   شجن الحب يبقى إلى الأبد

فهكذا الحال فعلاً منذ قديم الزمان . . لكننا لا نتعلم الدرس أبداً إلا ونحن فى مرحلة الشجن الباقى بعد مرحلة المتعة العابرة بكل أسف ! .

٧

المهم .. السعادة !

وقف جميع أفراد الأسرة الملكية فى حديقة القصر يحتفلون بمناسبة سعيدة ، وبعد الاحتفال اصطفوا جميعا أمام مصور العائلة ليلتقط لهم صورة تذكارية فى هذه المناسبة . استعد المصور لالتقاط الصورة ثم ضغط على زر الكاميرا فانطلق ضوء الفلاش ، والتقطت الكاميرا الصورة فإذا بأفراد الأسرة وقد انتصبت شعورهم إلى أعلى ، وارتسم الرعب على وجوههم جميعاً . ففى نفس اللحظة التى ضغط فيها المصور على الزر كانت كابلات الكهرباء التى تتصل بالكاميرا وتمتد تحت أقدام الأسرة قد فسدت بتأثير المطر فحدث ماس كهربائى صعق جميع أفراد العائلة المالكة وجاءت الصورة معبرة تعبيراً بشعاً عن فزع الموت . وخرجت الصحف البريطانية فى اليوم التالى تحمل الصورة الأخيرة للعائلة المالكة تحت عنوان «مأساة ملكية» .

وواجه القصر الملكى والبرلمان البريطانى مشكلة خطيرة وغريبة هى خلو العرش البريطانى ، ووفاة جميع أفراد الأسرة المالكة المؤهلين لارتقائه . ومن بين كبار مستشارى القصر كان أحدهم هو أكثرهم هما بمشكلة خلو العرش البريطانى ، فراح يقلب فى شجرة العائلة الملكية بحثاً عن وريث للعرش بقى على قيد الحياة ، ويراجع ذاكرته طويلاً إلى أن تذكر أن أحد ملوكها كانت له نزوة خلال زيارة قديمة لأمريكا مع سيدة أمريكية أثمرت طفلاً ، لكن الأم احتفظت بطفلها وانقطعت صلتها بالقصر منذ سنوات بعيدة ، وقدر موظف القصر عمر هذا الطفل الذى لا يعرف عن أصله الملكى شيئاً بحوالى الخامسة والثلاثين ، فأصدر أوامره لاثنين من معاونيه المخلصين بالسفر إلى أمريكا . . والبحث عن هذا الشاب وإحضاره إلى لندن ليجلس على عرش «أجداده» وسافر المساعدان إلى أمريكا ونجحا بعد جهد كبير فى التوصل إلى هذا الشاب الموعود بالمجد فوجداه شاباً أمريكياً جاهلاً وساذجاً يعمل عازفاً للبيانو فى الملاهى الليلية . . وقد فصل لتوه من عمله لإدمانه مشاهدة التليفزيون الصغير الذى يضعه تحت البيانو أثناء العزف ! ، والتقيا به وطلبا منه السفر معهما إلى لندن لارتقاء العرش . . فنظر إليهما مندهشاً ثم رفض الفكرة الجنونية ببساطة لأنه لا يتمنى سوى أن يجد عملاً فى المجال الوحيد الذى يعرفه وهو الموسيقى . ولم ييأس منه المساعدان . . وحاولا إغراءه بكل الطرق إلى أن نجحا أخيراً فى إقناعه بأن عرش بريطانيا «أفضل» قليلاً من حالة البطالة التى يعانيها الآن فى أمريكا . . واصطحباه ببنطلون الجينز والقميص المشجر بلا أكمام إلى لندن . ودخل

الشاب قلعة التقاليد البريطانية العريقة فى قصر باكنجهام فأصيب بالذهول ! وعامله مستشار القصر المخلص المهموم بمشكلة العرش برفق وانحنى أمامه باحترام وهو يخاطبه باللقب الملكى . . يا صاحب الجلالة . . فاهتز الشاب اندهاشا وكاد يجفل طالباً السماح له بالعودة لأمريكا ، لكن المستشار العتيد طمأنه إلى أن كل شىء سوف يكون على ما يرام إذا اتبع نصائحه . وبدأ البرنامج الكبير لإعداد شاب أمريكى جاهل لأن يكون ملكاً على عرش أقدم ملكية فى أوروبا . . وواجه الموظف الملكى صعوبة كبيرة فى إقناع الشاب بالتخلى عن بنطلون الجينز والقمصان المشجرة والتوقف عن سماع موسيقى الجاز والاهتزاز مع أنغامها ، وارتداء البدلة الكاملة الداكنة والقميص الأبيض المنشى وربطة العنق . وواجه صعوبة أشد فى تدريبه على المشى باتزان وبطء . . والجلوس بوقار . . والنهوض فى جلال ورفع يده بتؤدة لرد تحية الرعية . . وواجه أكبر الصعوبات فى إقناعه بأن يأكل الطعام «الملكى» الفاخر . . وأطباق الطعام الإنجليزى التقليدية . . وينسى إلى الأبد «مهزلة » سندوتشات الهامبورجر والشيبسى والآيس كريم التى اعتادها فى حياته السابقة وأن يلتزم بآداب الطعام الملكية ويأكل ببطء . . ويمضغ برفق . . وينهض من المائدة شبه جائع !

وضاق الشاب الذى اعتاد الانطلاق فى حياته بهذه القيود الثقيلة وتاقت نفسه إلى أن يتجول بحرية فى الشوارع ويتحدث مع الناس البسطاء بلا كلفة ، فتسلل فى المساء من القصر الملكى وركب سيارة أجرة وطلب من السائق أن يذهب به إلى حى الليل فى لندن «سوهو»

ودخل أحد الملاهى وجلس سعيداً يرقب عرضاً «للاستريب تيز» تقدمه فتاة انجليزية جميلة . وبعد انتهائه توجه إلى غرفتها وحياها وتعرف عليها وأعجب بها ودعاها لزيارته فى القصر الملكى . . ولم تصدقه الفتاة فى البداية حين قال لها إنه «ملك بريطانيا» المقبل ، لكنها أحست بسذاجته وتلقائيته فمالت إليه بعض الشىء . واهتز القصر للفضيحة التى صنعها الملك الشاب بذهابه إلى الملهى الليلى ومصادقته لفتاة «الاستريب تيز»، ولامه مستشار القصر المخلص على هروبه وتسلله إلى حى الليل لوما شديداً ، لكن الشاب صارحه بأنه لا يجد فى حياته داخل القصر أية متعة . . وأنه لم يشعر بالسعادة منذ جاء إلى لندن إلا خلال اللحظات القليلة التى تحدث فيها إلى هذه الفتاة الصغيرة . . ورق له قلب المستشار الخبير بالحياة ، فوعده بأن يسمح له بلقاء هذه الفتاة بشرط أن يتم ذلك داخل حديقة القصر حتى لا يتسرب الخبر إلى الصحف ويستفيد منه اللورد الشاب الطامع فى العرش . ويشن عليه حملة فى مجلس اللوردات تنتهى بإقصائه عنه وذهاب العرش إلى هذا اللورد الكريه . ويسعد الشاب بذلك . . ويلتزم ببرنامج الإعداد مقابل السماح له برؤية هذه الفتاة التى عرف منها أنها ليست محترفة لأداء عروض «الاستريب تيز» لكنها اضطرت إليها لتنقذ بيت أسرتها من الضياع سدادا لديون البنك على أمها .

ويكتمل إعداد الشاب للجلوس على العرش بعد تدريب شاق ومفارقات عديدة مضحكة . وخلال ذلك يكون اللورد الطامع فى العرش قد اكتشف علاقته بفتاة «الاستريب تيز» ويغريها بالمال الذى يحل

جميع مشاكل أسرتها لكى تستدرجه إلى أحد الملاهى الليلية ليقوم مصور محترف بتصويره فى أوضاع لا تليق بملك بريطانيا المقبل . وتضعف الفتاة أمام الإغراء وتحت ضغط الحاجة فى البداية . . لكنها تتراجع عن اتفاقها معه فى اللحظة الأخيرة ، وتضرب المصور بعد أن يكون قد نجح فى التقاط بعض الصور للملك المقبل ، وتصارح الشاب بكل تفاصيل المؤامرة باكية . . فلا يتوقف أمام قبولها التآمر عليه لحظة واحدة وإنما يتوقف أمام شىء آخر رآه أكثر أهمية فيسألها مبتهجاً : إذن فأنت تحبيننى . . بدليل تراجعك عن الاستمرار فى المؤامرة !

وتطغى فرحته باكتشاف هذه الحقيقة على غضبه العابر منها لمشاركتها فى المؤامرة عليه ، ويصارح مستشاره الأمين موظف القصر الملكى بكل شىء فيطلب منه التوقف عن رؤية هذه الفتاة مؤقتاً حتى يتم تتويجه ويفوت الفرصة على اللورد المتآمر . ويتم تتويج الملك الشاب فى الكاتدرائية العريقة وفقاً للتقاليد البريطانية ، ويلقى خطبة العرش أمام البرلمان بأخطاء قليلة ويبدأ ممارسة حياته كملك للبلاد ، يتعامل مع الناس ببساطة ويلمس الجميع طيبته وسذاجته ، ويسرب اللورد الصور إلى الصحف فتنشرها لكنها لا تنال كثيراً من قبول الرأى العام له ، فقد أسر قلوب الناس بتلقائيته وأخطائه التى تؤكد لهم أنه بشر مثلهم يخطىء كما يخطئون ويحب كما يحبون . ويواجه الملك الشاب أول امتحان له حين يأتى ملك أفريقى شاب لزيارة لندن وتفرض التقاليد على الملك البريطانى استقباله ومصاحبته فى الزيارة . . وينبهه مستشاره الأمين إلى أن الملك الأفريقى قد تعلم فى جامعة كامبريدج وأنه مثقف ثقافة رفيعة ،

ويطالبه بالتحفظ فى الحديث معه حتى لا يكتشف جهله ، لكن طبيعته تغلبه فيتعامل معه ببساطة وينافسه فى رمى الأسهم على دائرة الهدف فتطيش كل سهامه ويفوز عليه الملك الأفريقى الشاب بسهولة فلا يخفى إعجابه وانبهاره بمهارته فى التسديد ويطلب منه أن يعلمه كيف يرمى السهام . . وتنتهى زيارة الملك الأفريقى الشاب بسلام بعد أن كاد مستشار الملك يموت بالسكتة القلبية أكثر من مرة من أخطاء تلميذه الملك الشاب وتعثره فى السجاجيد وطريقته الخارجة على التقاليد الملكية فى التصرف والتعامل .

ويواجهه المستشار بالامتحان الجديد . . سيزور البلاد ملك إحدى دول الشمال الأوروبى العريقة فى الملكية وبصحبته ابنته الشابة المرشحة للزواج منه . . وعليه أن ينجح فى كسب ودها وحبها ليس فقط لكى تقبل الزواج منه ، وإنما أيضاً لكى يوافق برلمان الدولة الأوروبية على منح بلاده امتياز التنقيب عن البترول فى أرضها الذى سيساهم فى تحسين الوضع الاقتصادى لبريطانيا ، ويذكره بمسئوليته الأدبية والتاريخية عن ذلك ، فيقبل أداء المهمة كارها وهو يتساءل . . ولكن لماذا لا أتزوج ممن أحب ؟ ، ويأتى الملك الأوروبى وابنته الأميرة الجميلة ، ويكتشف الملك الشاب أنها رغم جمالها قطعة من الثلج البارد بلا نبض ولا حرارة . . ويعجز عن التواصل معها . . ويحثه مستشاره على أن يلاطفها . . فيقول له وهو ممتعض إن دمها ثقيل للغاية! ويقيم القصر حفل استقبال كبير للملك الأوروبى والأميرة . . وتعزف الموسيقى المقطوعات الكلاسيكية المعتادة فيتذمر الملك الشاب . . ويتمنى لو عزفت الفرقة

موسيقى الجاز السريعة التى يهواها لكى يرقص عليها رقصاته المفضلة وينفذ اللورد حلقة جديدة من حلقات تآمره على الملك الشاب ، فيزيف بطاقة دعوة ملكية لفتاة «الاستريب تيز» لحضور هذا الحفل . . فتأتى إليه خالية الذهن عن المؤامرة المدبرة لإحراج الملك ، وتنجح خطة اللورد الخبيث . . فما أن يراها الملك الشاب وسط المدعوين حتى ينسى كل مالقنه له مستشاره ويندفع إليها متهللاً تاركاً الأميرة ، ويرحب بها بحرارة ثم يأمر فرقة الموسيقى بأن تعزف قطعة سريعة الإيقاع . . ويرقص معها رقصاته الأمريكية الصاخبة ، ويتجمد الدم فى عروق موظفى القصر وكبار الحاضرين ويغضب الملك الاوروبى وابنته الأميرة للإهانة وينسحبان من الحفل ، وتفشل زيارته لبريطانيا ويعود إلى بلاده ساخطاً، فلا تمضى أيام حتى يتخذ البرلمان قراره بمنح امتياز البترول إلى اليابان! ويجد اللورد الشاب فرصته الذهبية لتحطيم الملك فيشن عليه فى مجلس اللوردات حملة شعواء ويتهمه بالإضرار بمصالح بلاده بسلوكياته المعيبة . . ويطالب بإقصائه عن العرش .

لكن الملك الشاب لم يكن فى حاجة لانتظار هذه الحملة فلقد اقتنع نهائياً بأنه لا يصلح لأن يكون ملكاً لبريطانيا ولا لأى دولة . . ولا يصلح إلا لأن يكون عازف بيانو، ويكتشف من مراجعة السجلات الملكية الحقيقية التى حاول مستشاره الأمين إخفاءها عنه طوال الوقت وهى أن هذا المستشار نفسه من السلالة الملكية وأنه الوريث الطبيعى للعرش لكنه يشفق على نفسه من تبعات الملك لهذا فقد أنكر دمه الملكى وسعى حتى جاء به من أمريكا ليتولى العرش بدلاً منه . ويواجهه الملك الشاب

بالحقيقة ويطالبه بتحمل أقداره ومسئولياته تجاه عرش بلاده ويذكره بكلماته السابقة له من أن الإنسان لا يملك فى بعض المواقف إلا أن يمتثل لأقداره ويتحمل تبعاتها ويصرح له بأنه سوف يتنازل عن العرش له . . لكن أمامه مهمة أخيرة لابد أن يؤديها وفاء لحق هذه البلاد عليه قبل أن يترك العرش ، ثم يغيب داخل مكتبه قليلاً ويخرج ليصطحب المستشار إلى مجلس اللوردات المنعقد للنظر فى أمره والذى يصول ويجول فيه ضده اللورد المتآمر ، ويقف الملك الشاب ويواجه الجميع ويقول إنه قبل أن يعلن تنازله عن العرش فإنه قد أدى واجبه حتى اللحظة الأخيرة تجاه بلاده وقد اتصل منذ لحظات بصديقه الملك الأفريقى الشاب . . وحصل منه على عقد اقتصادى كبير يعوض بلاده عما فاتها من فوائد فى عقد الدولة الأوروبية ثم يسأل أعضاء المجلس : من الذى أضر بمصالح بلاده حقاً ؟ هو . . . أم اللورد الشاب الذى تآمر عليه منذ اللحظة الأولى وزيف بطاقة دعوة ملكية إلى محفل استقبال ملكى لاحراجه مع ملك تلك الدولة وعرض مالاً على فتاة مكافحة تعمل لإعالة أسرتها ، لكى يورط ملك بلاده فى فضيحة تنال من هيبة العرش . . وختم كلمته البليغة بإعلان تنازله عن العرش للوريث الحقيقى له . . وهو المستشار الملكى ، فينهض اللوردات تحية له ويصفقون له فى حرارة بالغة . . وتبكى النساء والفتيات وهن يتابعن وقائع الجلسة على شاشة التليفزيون .

ويتولى الوريث الحقيقى عرش بريطانيا . . ويكون أول مرسوم يصدره هو منح لقب فارس أو «سير» «لابن عمه» ملك البلاد المتنازل عن

العرش ، مع تخصيص مرتب سنوى ضخم له كفرد من أفراد الأسرة المالكة . وفى احتفال منحه لقب الفارس يركع الملك السابق أمام الملك الجديد ويمد الملك يده بالسيف ليلمس به كتفه كما تقضى التقاليد الملكية . . فيضع الملك السابق يده بحركة لا إرادية على أذنه فى خوف حقيقى ليحميها من نصل السيف ! فيبتسم الملك الجديد ويتبادل النظرات الباسمة مع مستشاريه وهم يتذكرون واحداً من أحرج مواقف هذا الشاب الراكع الآن حين جرح فى موقف مماثل أذن نبيل بريطانى وهو ينعم عليه بلقب الفارس وواجه الملك الجديد مسئولياته الملكية ، واستسلم لحياة القصور وقيودها وتقاليدها ولتبعات الملك وهمومه فراحت تضيف كل يوم إلى ملامح وجهه تجاعيد جديدة .

وفى مكان آخر من غرب لندن . . انتقلت الكاميرا فجأة فى هذا الفيلم الأمريكى الذى يلخص حكمة السعادة فى قصة خيالية جميلة ، إلى بيت واسع جميل تنتشر فيه أحدث وأغلى أجهزة الاستريو والبيانو وتنتشر فيه أيضاً الفوضى المنظمة الجميلة . . لنرى هذا الملك السابق يرتدى الجينز والقميص المشجر ويضع على أذنيه سماعات الاستريو وجسمه يتراقص بحماس مع أنغام الموسيقى الصاخبة .

وفى البيت يجرى طفلان صغيران يحاولان عبثاً شد انتباه الأب المشغول بكل مشاعره بمتابعة الأنغام الراقصة ، وفى طرف البهو تقف فتاة الاستريب تيز السابقة أمام «أوفيس» المطبخ تعد الطعام . . وتنادى بصوت عال زوجها وتشير إليه بيدها أن يرفع السماعات عن أذنيه ليسمع

ما تريد أن تقوله له . . فيرفع السماعة لحظة قائلاً : ماذا تريدين يا حبيبتى ؟

ثم يعيدها إلى مكانها فوق أذنيه . . ويواصل الاهتزاز والرقص إلى مالا نهاية !

قصة خيالية . . ؟ نعم لكنها جميلة . . وصادقة . . ومعبرة بإعجاز عن حكمة الحياة والأهداف التى تستحق أن يشقى الإنسان من أجلها وتلك التى لا تستحق لحظة أن يبكى على ضياعها أو فوات فرصته فيها .

وفى حياة كل إنسان «عرش» أو هدف لا يصلح له . . ولم يخلق له . ويحكم على نفسه بالتعاسة إذا لهث وراءه بلا طائل . . ذلك أن له دوراً أو هدفا آخر خلق له . . ولم يخلق لغيره ، ومن العبث والجنون والغفلة أن يوليه ظهره ويمضى فى الاتجاه الخاطىء الذى لايقوده إلى نفسه ولا إلى سعادته ولا إلى نجاحه الحقيقى فى الحياة .

. . أو هذا على الأقل هو ما فهمته من هذا الفيلم الجميل الذى شاهدته وأحببته وتمنيت أن أراه أكثر من مرة . . وأن أستفيد بمغزاة الحقيقى فى حياتى ويستفيد به معى الآخرون !

٨

ولكن أى فشل .. وأى نجاح ؟

●● كرهته ناجحاً . .
وأحبته فاشلاً ! . .
هكذا تقول لنا هذه القصة
الأمريكية الجميلة
وهكذا تقول أيضاً تجربة
الحياة لكل إنسان يستغرقه
سعيه المحموم إلى النجاح

العملى فى الحياة فيشغله عن الأهداف الحقيقية الجديرة بالاهتمام ويفقد خلال الطريق أشياء أخرى ثمينة لا يعادلها شىء ولا يعوضه عن افتقادها أى نجاح مهما بلغ شأنه فى الحياة .

إنه محام ناجح مرموق يعرف كيف يكسب قضاياه وكيف يحرج شهود الخصم بأسئلة ذكية بارعة تُربكهم . . وتُظهر تناقض أقوالهم أمام المحلفين حتى ولو كانوا صادقين . . ويجيد استخدام كل وسائل التأثير والإيهام والإقناع فى مرافعته أمام المحلفين فيبدو حديثه لهم مقنعاً . . صادقاً يستميل قلوبهم وعقولهم فيعطون قرارهم غالباً فى صف موكله . . وتنفجر قاعة المحكمة بصيحات الانبهار ويخرج المحامى الناجح المرموق

منتصراً مودعاً بنظرات الإعجاب من معظم الحاضرين ، وبنظرات الحسرة والألم من الخصوم المهزومين ، إلى شركة المحاماه التى يعمل بها . . فيستقبله زملاؤه المحامون بالتصفيق ، ويقام الحفل التقليدى عقب كل انتصار . . ويشرب الزملاء نخب زميلهم الناجح الذى لايقهر .

ويغادر المحامى المرموق حفل الشركة عقب آخر انتصار له وهو يلقى بتعليماته إلى سكرتيرته التى تجرى خلفه لتلاحق هرولته فهو فى سباق دائم مع الزمن وأمامه مهام عديدة يؤديها .

وفى مساء نفس اليوم يرتدى ملابس السهرة ليخرج مع زوجته إلى حفل استقبال فى بيت أحد نجوم المجتمع . . زوجته الجميلة تكمل زينتها . . أما هو فقد ارتدى بدلته الفاخرة . . لكنه مشغول بمحاسبة ابنته الوحيدة الطفلة عن خطأ فادح ارتكبته بأن سكبت كوب عصير البرتقال خطأ على البيانو الثمين الذى يعتز بهِ والطفلة تعتذر لكنه لايفهم الأعذار فلابد أن يكون كل إنسان مسئولاً عن تصرفاته وأفعاله . . ولابد للصغيرة أن تعرف قيمة الأشياء لكى تحافظ عليها وعقابه لها على «جريمتها» هى ألا تغادر فراشها وغرفتها طوال هذا المساء .

ثم يخرج مع زوجته الجميلة إلى الحفل . . وتتركز الأنظار والعيون على المحامى اللامع وزوجته الباهرة ويعودان فى المساء إلى بيتهما فتطلب منه زوجته بشىء من الحزم أن يعتذر للطفلة عن إيلامها قبل أن تنام ويستجيب ويدخل إليها فى غرفتها ، ويحاول أن يكسب ودها بغير اعتذار ، ثم يغادرها فيكتشف أن سجائره قد نفدت ويخرج لشراء

السجائر من محل قريب . . ويطلب السجائر من «البائع» فلا يستجيب وإنما ينظر إليه لحظات فى جمود . . وفجأة يراه يشهر مسدسه فى وجهه ويطلب محفظته ويطلق عليه ثلاث رصاصات ! . لقد جاء المحامى إلى المحل فى أسوأ توقيت ممكن . . بعد أن قتل هذا اللص صاحب المحل وراح يفرغ محتويات الخزينة .

وتتغير حياة المحامى الناجح فى لحظة قَدَرية من النقيض إلى النقيض . . فقد اخترقت رصاصة رأسه وأصابت المخ إصابة جسيمة .

وهرعت الزوجة الجميلة إلى المستشفى فرأت زوجها راقداً فى غيبوبة مستمرة . وبدأت تكتشف الحقيقة المؤلمة شيئاً فشيئاً . . لقد نجا زوجها من الموت لكنه لن يعود إلى الحياة كما كان قبل الحادث . . فهو لا يتحرك . . ولا يتكلم . . ولا يعرف أحداً ، والأمل الوحيد فى العلاج الطبيعى الطويل . . ويتجاوز المحامى المرموق مرحلة الخطر وتدخل إليه زوجته وطفلته مبتسمتين . . فينظر إليهما فى دهشة وانكسار كأنما يتساءل : من هما ؟ .

وتنقل الزوجة زوجها إلى مستشفى خاص للعلاج الطبيعى . . وتبدأ رحلة العلاج الطويلة المرهقة وتنشأ صداقة عميقة بين المحامى المريض والمعالج الأسود الذى يتولى علاجه . . ويتحسن المريض ببطء شديد يستعيد بعد أسابيع طويلة قدرته على الجلوس ثم الوقوف ثم المشى ، ويستحثه المعالج بكل الطرق الممكنة على الكلام حتى ينجح أخيراً فى دفعه إلى أن ينطق كلمة واحدة . . وبمواصلة العلاج يستعيد قدرته

تدريجياً على الكلام . . ويستدعى المستشفى الزوجة لاصطحاب زوجها إلى بيته فقد انتهى برنامج العلاج ، أما الذاكرة المفقودة . . فلن يعيدها إليه إلا التواجد فى الأماكن التى عاش فيها من قبل ، فربما يساعده ذلك تدريجياً على تذكر حياته الماضية وخبراته القديمة . لكن هناك مشكلة طارئة تعترض الطريق ، فالمريض لا يريد العودة إلى «البيت» وهو لا يتذكر بيته ولا زوجته وطفلته ولا يعرف أحداً فى الحياة سوى هذا المعالج الطبيعى الأسود الذى رافقه طوال الشهور الماضية وينصح مدير المستشفى الزوجة بعدم إرغامه على العودة معها إلا إذا صدرت منه الرغبة فى ذلك من داخله وليس من خارجه . . وتسلم الزوجة بوجهة نظر الطبيب ، لكن الطفلة الصغيرة تتسلل إلى غرفة أبيها وتتحدث معه عن بيتهم فيلمع فى رأسه فجأة شىء خاطف . . إنه يتذكر شيئاً ضبابياً عن سجادة رمادية اللون لا يتذكر أين رآها ، فإذا كانت فى هذا «البيت» الذى يتحدثون عنه فليذهب إذن ليراها ويتأكد مما يتذكره .

ويعود المحامى المرموق إلى بيته . . لكنه يرجع إنساناً آخر غير الذى غادره فى ذلك المساء المشؤوم . لقد اختفت النظرة الذكية المقتحمة من عينيه . . واختفت نبرة الثقة والاستعلاء والغرور من صوته . . واختفت الملامح الصارمة الحادة المستهينة بالآخرين من وجهه .

وجاء إنسان آخر كسير النظرة . . مطيعاً . . خجولاً يتحدث ـ إذا تحدث ـ خافض الرأس . . وبصوت خافت لا يكاد يسمع ويوافق على كل ما يطلب منه أو يقال له . . لكن لحديثه رغم ذلك وقعاً غريباً فى نفس زوجته وطفلته وخادمة الأسرة . . هو واقع البراءة وصدق المشاعر !

لقد حذر الطبيب الزوجة من أن زوجها سيعود للحياة «نباتاً» لا يفكر . . ولا يحمل أية مشاعر لأحد أو للأشياء . . لأنه الآن إناء خال من كل الخبرات والمشاعر القديمة ، لكن ما أعجب الحياة فهى تستريح لهذا «النبات» الجديد أكثر مما كانت تستريح لحياتها مع الرجل «الآخر» قوى الإرادة جاف المشاعر الذى كرهته فى سنواتها الأخيرة وهمت قبل الحادث بأيام أن تطلب منه الانفصال ! .

حتى طفلتها تبدو أكثر انسجاماً وألفة مع هذا «النبات» الجديد أكثر مما كانت مع أبيها السابق فهى ترعاه وتتحدث إليه بود لم تألفه علاقته بها من قبل ، وتصطحبه معها إلى المكتبة لتقرأ . . وتعطيه كتاباً ليقرأ معها فيكتشف للأسف أنه لا يستطيع القراءة فقد نسيها فيما نسى من كل خبراته وقدراته السابقة وبحماس غريب • تقبل الطفلة على تعليمه مبادىء القراءة والكتابة من جديد حتى ينجح فى تذكرها ويقرأ أول كلمة فتنتابه فرحة طاغية ويحمل طفلته فوق ظهره ويجرى ليبلغ الخبر السعيد إلى الخادمة وتأتى الزوجة فتعرف الخبر وتشاركهم فرحتهم . . وتتذكر فجأة أن حياتها السابقة مع زوجها لم تشهد لحظة ابتهاج صادقة وتلقائية كهذه اللحظة . . فقد كان شديد التحفظ فى علاقته بالجميع . . وتسعد الزوجة بهذا التغير الجديد فى شخصيته . . وتقول له الخادمة إنها تحبه «الآن» أكثر لأنه قد أصبح إنساناً بسيطاً طيباً ! .

وتنهض الزوجة لتحمل مسئوليتها الكاملة عن الأسرة فلقد أصبحت الأب والأم للطفلة بعد أن فقد الأب قدرته على التفكير واتخاذ القرار وزوجها لا يعترض وانما يعترف لها بذلك ، ويكون أول قرار للزوجة هو

الانتقال إلى شقة أرخص إجباراً بعد تغير الظروف ويقترب موعد التحاق الطفلة بالمدرسة الراقية التى ستقيم فيها إقامة داخلية ، ونجحت فى اختبار التقدم إليها وحدها من بين بنات كل المعارف والأصدقاء . ويتساءل الأب بإشفاق : هل من الضرورى أن ترحل الطفلة بعيداً عن الأسرة ؟. وتجيبه الزوجة أن ذلك كان قراره قبل الحادث وهو فى مصلحتها فيسلم بإرادتها طائعاً . . ويشارك زوجته فى إقناع الطفلة بالذهاب إلى المدرسة البعيدة وتكتشف الزوجة بابتهاج أن زوجها قد بدأ يستعيد بعض قدرته على الإقناع والتفكير من حديثه إلى ابنته لكى تذهب راضية إلى المدرسة . وتلتحق الطفلة بالمدرسة ويدعو صاحب شركة المحاماه . . المحامى المرموق للعودة إلى مكتبه بالشركة بلا عمل حقيقى معترفاً له بفضله فى تحقيق أرباح طائلة للشركة من قبل .

ويعود المحامى إلى المكتب بشخصيته الجديدة الخجولة . . المترددة ويحاول استعادة ذاكرته القانونية فيطلب ملف آخر القضايا التى كسبها ويراجعه من جديد . . ويكتشف خلال المراجعة أنه قد ظلم خصمه فيها وأخفى شهادة كانت كفيلة بأن يكسب دعواه ضد المستشفى الذى أهمل علاجه . . ويسأل نفسه كيف قبل ضميره ذلك ؟ .

ويرجع إلى بيته متألماً ، ويخرج مع زوجته ليتمشيا فى الطريق فتكتشف الزوجة شيئاً جديداً غريباً فيه! . . لقد أمسك بيدها بحنان وهو يتحدث إليها ولم يكن يفعل ذلك أبداً من قبل فقد كان يتحفظ فى إظهار مشاعره تجاهها وتجاه كل البشر وتقول له ذلك باسمة فيصعد إلى مقعد

حجرى من مقاعد الطريق ويجذبها إليه فوقه ثم يقبلها علنا أمام المارة . . وتزداد سعادة الزوجة به ! .

لكن حالته المعنوية تنتكس فجأة حين يسمع عَرَضاً فى حفل استقبال حديث بعض زملائه عن أنه يتقاضى أجراً بلا عمل . . وأنه من المؤسف أن يتحول محام عبقرى مثله إلى شخص أبله !

وينصرف مع زوجته من الحفل ويستسلم لحزن عميق لا تفلح الزوجة فى اخراجه منه ، ويرفض مغادرة الفراش فى الصباح إلى شركة المحاماه . . فتستدعى له الزوجة المعالج الطبيعى الأسود ليعيد إليه ثقته فى نفسه ويبتهج المحامى برؤية صديقه الوحيد ويسر إليه بما يؤلمه . . ويروى له المعالج عن تجربته الشخصية حين كسرت ساقه وهو نجم من نجوم لعبة البيسبول وظن أن حياته قد انتهت فإذا به يجد نفسه فى مجال آخر هو مجال العلاج الطبيعى ، ويكتشف أنه إنما خلق من الأصل لهذا المجال وليس لأى مجال آخر.

وترتفع روح المحامى المعنوية بعض الشىء ويقرر أن يفعل ما يريد أن يفعله وليس ما ينبغى عليه أن يفعل ويتوجه إلى بيت خصمه فى آخر قضاياه ويسلم زوجته المستند الذى أخفاه خلال القضية وأضاع عليه حقه . . وتسأله الزوجة مندهشة لماذا تفعل ذلك فيجيبها بخجل : لأنى قد تغيرت! . ويعود الزوج إلى بيته سعيداً . . فيشاء له حظه أن يكتشف فى أحد أدراج زوجته بضعة خطابات زرقاء يتجرأ على فتحها فيعرف منها أن زوجته كانت تخونه قبل الحادث مع أحد زملائه بالمكتب . . وتعود

الزوجة من عملها فيواجهها بهذه الخطابات فى ألم! . فتعتذر عنها . . وتقول له إنها كانت علاقة عابرة فى حياتها ولم تستطع الاستمرار فيها طويلاً وأنها تورطت فيها لأن حياتها معه كانت بائسة وخالية من المشاعر، فقد كانت تشكو الوحدة وإهماله لها فترات طويلة لكن كل ذلك قد تغير الآن . . وهى لا تريد أن تفقده بعد أن «وجدته» وخفق قلبها له بالحب القديم الذى جمعهما فى بداية الزواج . لكنه يغادر البيت متألماً وهى تلاحقه وتستعطفه وترجوه ألا يهجرها باكية : ليس «الآن» . . ليس « الآن » بعد أن تغيرت كل الأمور ! .

فيمضى فى طريقه ويتوجه إلى شركة المحاماه ويجمع أوراقه ويودع صاحبها . . ويرفض أى اعتذار من الزميل الخائن الذى استغل ظروف زوجته . . ويرفض أيضاً الاستجابة لرجاء المحامية الشابة التى ترجوه ألا يترك عمله وتلاحقه فى الطريق بغير أن يشعر ويهيم على وجهه فيجد نفسه أمام فندق صغير يتعجب لماذا يثير فى نفسه ذكرى غير واضحة ويستأجر إحدى غرف الفندق ويفاجأ بزميلته المحامية تدخل إليه فيها وتناشده العودة إلى عمله . . وتبكى نادبة حظها لأنها فقدت الرجل الوحيد الذى أحبته فى حياتها بعد أن أصبح لا يعرفها ولا يتذكر حبه لها وتذكره بأنهما كانا يلتقيان فى نفس هذا الفندق مرتين كل أسبوع ، وأنه كان يخطط للانفصال عن زوجته من أجلها .

ويكتشف المحامى أنه هو أيضاً قد أخطأ فى حق زوجته . . وليست هى وحدها . . وأنه ربما يكون المسئول عن خطئها بانصرافه عنها إلى امرأة أخرى ويغادر الفندق فجأة عائداً إلى بيته ويطرق الباب فتفتح له

زوجته باكية ويقول لها بأمانة إنه قد عرف أنه قد أخطأ أيضاً فى حقها ويريد أن يعود لمواصلة الحياة معها . . فتنهمر دموعها ساخنة وتقول له إنها تحبه ولا تريد أن تفقده بعد أن أعادت اكتشافه فيقول لها : إنه لا يريد أن يعمل محامياً مرة أخرى ولا يريد أن يعود إلى ارتداء بدلته الكاملة الفاخرة التى كان يرتديها وهو محام ولا يريد أن تبتعد عنه ابنته فى مدرستها البعيدة . . و . . . و . . فتضحك الزوجة بابتهاج وتقول له إن كل ما يريده سوف يسعدها أن يفعله وتحتضنه بحنان بالغ .

وفى الصباح يذهبان إلى المدرسة ويستعيدان ابنتهما من المدرسة الداخلية الراقية لتلتحق بمدرسة قريبة من البيت وتعيش بينهما بعد أن انشغل عن رعايتها طوال السنوات الماضية . وترجع الأسرة الصغيرة التى اجتمع شملها إلى بيتها سعيدة راضية بحياتها الجديدة التى قد لا تكون لامعة ومرفهة كحياتها السابقة ، لكنها ستكون بالتأكيد أكثر دفئاً . . وأكثر إنسانية وأكثر صدقاً وبراءة فى المشاعر من أى وقت مضى! .

وتنتهى هذه القصة التى أثارت تأملاتى . . وصدقنى إن السعداء وحدهم هم الناجحون الحقيقيون فى الحياة وليسوا هؤلاء الذين حققوا نجاحهم فى كل مجال دخلوه ماعدا مجال الحياة الخاصة ! فقس نجاحك يا صديقى على هذا الأساس . واعرف ماذا حققت من نجاح أو فشل فى الحياة . . وحاول إذا كنت من التعساء الفاشلين أن تعيد اكتشاف نفسك والأهداف الحقيقية الجديرة بالسعى إليها لتنضم إلى قافلة السعداء الحقيقيين فى الحياة وليس إلى أصحاب النجاح التعيس منهم ! .

٩

الحب وحده.. لا يكفى

إنها أسرة صغيرة جميلة من زوج وزوجة وطفلة لا تتعدى الخامسة ! . والزوج مغرم بزوجته الجميلة ، والزوجة مفتونة بزوجها الوسيم وسامة الرجولة . .

وقصة حبهما شائعة بين الأصدقاء . . فالسعادة كالتعاسة لاتخفى رائحتها النفاذة على أحد . . والزوجة طبيبة أطفال انتقلت للعمل فى إحدى الدول المتخلفة لإعداد دبلوم فى الأمراض المتوطنة، فلم يطق زوجها المصور الفنان أن تبتعد عنه . . ونقل عمله مؤقتاً إلى مكان عملها . . وجعل من الطبيعة فى هذه الدولة مادة صوره التى يتقدم بها لمعارض الفن . . وقدَّرت له زوجته تضحيته من أجلها ، فاختصرت فترة عملها فى هذه الدولة البعيدة . . وأعدت رسالتها العلمية فى أقصر فترة ممكنة ، ورجعت معه إلى بيتهما الجميل فى المدينة الصغيرة . . وشجعها على ذلك أيضاً أنها تحمل فى بطنها ثمرة الحب الثانية ، وتريد أن تضعها فى بلادها

. . والزوج يريد أخاً صغيراً لابنته . . والزوجة تريد أختاً جميلة لها . . والاثنان يرفضان أن يجريا اختبار معرفة نوع الجنين حتى لا يسعد أحدهما أكثر من الآخر . . ويؤجلان معرفة نوع القادم الجديد للحظة الحاسمة .

وأنشودة الحب متصلة بين الاثنين . . والطفلة الصغيرة بهجة أخرى من مباهج الحياة اللذيذة . . لكن الزوج يتلهف على تحقيق ذاته أكثر فى مجال التصوير الفنى ، وقد طلب من السلطات الهندية منذ أكثر من عام تصريحاً له ولمساعديه بتسلق قمة جبال الهيمالايا لالتقاط صور نادرة عن الحياة فوقها ليقيم بها معرضه المنفرد الأول بعد أن كان يعرض صوره فى المعارض المشتركة . والتصريح قد جاء الآن فجأة . . لكنه جاء فى الوقت غير المناسب فزوجته على وشك الولادة بعد أقل من شهر ، وتحتاج إليه بجوارها فى اللحظات العصيبة . وقد قالت له من قبل إنها لن تجرؤ على دخول غرفة العمليات إلا إذا كان ممسكاً بيدها . . فهل يضيع فرصة العمر ويرفض السفر أم يخذلها فى اللحظة التى تحتاج إليه فيها ويسافر ليبنى شهرته ؟ . ولم يطل تردده فلقد لمحت زوجته فى عينيه لهفته على أن يبنى مستقبله كمصور فنان بهذه الرحلة . . ولم تطق أن تحرمه من فرصته . . فوافقت على سفره على مضض وهى تأمل فى عودته فى الوقت المناسب وسافر الزوج مع مساعد له ومساعدة شابة وعاشوا فوق قمم الجبال ٢٥ يوماً . . ورجع الزوج إلى بلده متلهفاً على رؤية زوجته وطفلته ووليده الجديد ، وغادر سيارة الأجرة أمام بيته جرياً ، وركض فوق السلم صاعداً إلى غرفة نوم زوجته وهو يناديها باسمها المحبوب ، وقبل أن يدخل غرفة النوم فتح باب غرفة الأطفال ليرى الضيف الجديد فى السرير



الصغير الذى اشتراه له قبل السفر فوجده خالياً . . واستدار مذهولاً فوجد زوجته أمامه تعانقه بحزن غامض . . وفهم الموقف بلا كلام فاحتضن زوجته مواسياً وهم ثقيل يجثم على صدره . . لقد فقدت زوجته جنينها قبل مجيئه بأيام وافتقدته كثيراً فى تلك اللحظات الحزينة .

وغشيته الكآبة لبضعة أيام بعدها وفقد حماسه للصور النادرة التى جاء بها من فوق قمم الجبال . . وراح يلوم نفسه على تركه زوجته حين كانت فى أشد الحاجة إليه وضاعف من عطفه عليها وحنانه . . لكن شيئاً غامضاً كان قد تغير فى روحها تجاهه . . فلقد أصبحت زاهدة فى اقترابه منها . . وهى تخرج معه للعشاء فى مكان عام لكنها تظل ساهمة ولا تبادله الهمسات واللمسات كما كانا يفعلان كزوجين عاشقين من قبل . . وصديقه الوحيد الذى يساعده فى عمله ينصحه بالصبر عليها حتى تتخلص من آثار محنتها النفسية بفقد الطفل ، وصديقة زوجته الوحيدة تعاتبها لابتعادها عن زوجها . . وتتهمها بأنها تلومه فى أعماقها على فقد الطفل وتعتبره مسئولاً عن ذلك والزوجة لا تنفى أنها تلوم زوجها فى أعماقها ولكن ليس لمسئوليته عن فقد الطفل وإنما لأنها لم تجده إلى جوارها حين احتاجت إليه فتقول لها الصديقة : لكنه يحبك ! .

وتجيبها الزوجة ساهمة : الحب وحده لا يكفى لاستمرار العلاقة بين شخصين محبين وإنما يجب أن يجد الإنسان أيضاً من يحبه إلى جواره حين يحتاج إليه .

وفى غمار ذلك تأتيها دعوة للسفر إلى بلد بعيد للمشاركة فى مؤتمر

علمى . . وترحب بالسفر وحدها لتختلى بنفسها وتعيد التفكير فى أمرها . . ويشجعها زوجها على السفر متألماً فى صمت لأنها لم تتمسك بسفره معها كما كانت تفعل فى المرات السابقة . . وتسافر الزوجة ويبقى الزوج وحيداً يحاول الانشغال بعمله عن أشجانه ويطول غياب الزوجة أكثر من المتوقع ويفسر زوجها ذلك بأنها تريد الإمعان فى البعد عنه بجسدها بعد أن ابتعدت عنه بروحها منذ فقدت الجنين . . ويواصل الاستغراق فى عمله مكتئباً . . ثم يغادر مكتبه ذات مساء فيلتقى بالصدفة بصديقة زوجته الوحيدة . . عائدة من المدينة ويتحدثان طويلاً عن زوجته . . ويتحدث كل منهما عن وحدته ومتاعبه الشخصية ويوصلها إلى باب بيتها فتعرض عليه أن يتناول معها فنجاناً من القهوة ليواصلا الحديث لبعض الوقت فيرحب بالدعوة آملاً أن يفهم أكثر سر تغير زوجته معه .

وفى اليوم التالى تعود الزوجة من مؤتمرها العلمى فجأة إلى البيت فتجد زوجها فى العمل فتسرع إلى شقة صديقتها القريبة لتزف إليها الخبر السعيد ، لقد فكرت طويلاً خلال رحلتها ووجدت أن زوجها ليس مسئولاً عن شىء ، لكن حزنها على وليدها هو الذى شوش أفكارها فجعلها تظلمه وتتهمه بما لم يفعل . . لقد ظلمته كثيراً وصبر عليها أكثر . . لكنها الآن تحبه بنفس العمق الذى أحبته به دائماً وسوف تقول له ذلك حين يعود إلى البيت فى المساء ، وتواصل حياتها معه كما كانت ، فلقد عرفت بالتجربة أن جذور زوجها فى قلبها أقوى كثيراً من أن تقتلع بمثل هذه العاصفة . . وسمعتها الصديقة تقول ذلك بابتهاج وشاركتها فرحتها بعودة الصفاء بينها وبين زوجها وفجأة لمحت الزوجة شيئاً صغيراً

على فراش صديقتها التى تعيش فى شقتها وحيدة فأمسكت به ورفعته أمام صديقتها وسألتها واجمة :

ـ لمن هذا الشىء يا صديقتى العزيزة ؟ .

إنها ساعة يد زوجها الحبيب . . فكيف وصلت إلى فراش صديقتها الوحيدة .

وهرولت الزوجة مغادرة بيت صديقتها الخائنة . . ولم تنجح معها أية محاولات لإيقافها أو للاعتذار إليها بأنها كانت لحظة ضعف ، وأن زوجك يحبك ولا يحب غيرك، لكنه الشيطان اللعين فى لحظة شعور بالوحدة من الطرفين . . لا لا شىء من ذلك يخفف من فجيعتها المزدوجة فى حبيبها الوحيد . . وصديقتها الوحيدة فالطعنة قاتلة . . والخنجر ذو حدين الأول زوجها والثانى صديقتها .

ولن يجدى أى كلام من زوجها أو من أى إنسان فى الوجود ولابد من الطلاق . . نعم لابد من الطلاق إنه العقاب العادل لخيانة الحب الكبير.

ورفض زوجها الطلاق بإصرار متمسكاً بزوجته وأسرته الصغيرة حتى النهاية وآملاً أن يخفف الزمن من صلابة زوجته ويشعرها بصدق ندمه وشدة حاجته إليها .

وهجرت الزوجة زوجها . . ورحلت إلى الدولة التى أعدت فيها رسالتها العلمية مصطحبة معها طفلتها وعاش الزوج وحيداً فى بيته ، ومضت الشهور وهو مستغرق فى عمله . . ومساعدته فى المكتب تشفق

عليه من أحزانه ووحدته . . وتحاول الاقتراب منه لكنه يصد محاولاتها بأدب ويعتذر لها بأنه يحب زوجته وقد أخطأ فى حقها مرة ولا يريد أن يكرر الخطأ حتى ولو كانت زوجته قد هجرته ولم تصفح عنه . . ويقترب موعد إلحاق طفلته بالمدرسة ويتعلق من جديد بالأمل فى لقائه بزوجته حين تجىء بالطفلة لتبدأ دراستها . . ويراها فى المطار تقترب منه فينظر إليها بحنين غامر وأمل صامت فى الصفح . . ويحتضن طفلته بشوق وينظر إلى زوجته بانكسار . . فتصافحه وهى تغالب مشاعرها المتضاربة . . فهى لم تصفح . . لكنها أيضاً لم تنس الحب القديم . . ويؤلمها أنها لا تنساه .

وتلحق الزوجة الطفلة بالمدرسة وتودعها لدى أسرتها ويلح عليها الزوج فى أن تذهب معه لرؤية معرضه الأول قبل افتتاحه . . وتستجيب لرغبته فى صمت ويصحبها إلى صالة العرض المظلمة ثم يضىء النور فترى صورها تغطى كل الجدران . . نعم صورها هى وليست صور رحلة الجبال التى كانت بداية للمتاعب . . صورها فى أوضاع مختلفة خلال رحلة الحب والزواج وهى تسند رأسها بيدها مفكرة . . وهى تضحك . . وهى تبتسم . . وهى تحلم . . الخ . وتذهل للمفاجأة وتتساءل أين صور جبال الهيمالايا فيجيبها بأنها لن تكون لمعرضه الأول ، فلقد أراده أن يكون كما سماه فى بطاقات الدعوة عن «المرأة التى أحبها»! .

وتتأثر مشاعرها بما ترى . . لكنها تغالب نفسها وتنصرف حازمة أمرها على السفر مرة أخرى ويسألها زوجها فى رجاء : ألا تبقين معى ؟

فتجيبه دامعة : لا

وتسرع بالعودة إلى مقر عملها .

وفى غربتها يقترب منها طبيب شاب وسيم ظلت تصد محاولاته للاقتراب منها طويلاً . . ثم فجأة تقرر أن تستجيب له . . لا تعرف لماذا . . هل تريد أن تنسى زوجها برجل آخر ؟ . . هل تريد أن تجرب طعم الخيانة الذى ذاقه زوجها وهو يحبها ؟. لا تعرف لكنها تستجيب للطبيب الشاب . . وتكتشف بعد المرة الوحيدة التى ضعفت فيها أن الحب رجل واحد هو زوجها وليس أى رجل آخر فتقطع علاقتها بعنف مع الطبيب الشاب . . ويمضى عام طويل . . والزوج فى مدينته . . يصد عنه كل النساء . . والزوجة فى مهجرها تصد عنها كل الرجال ثم يطلع عليها الصباح ذات يوم وهى تجلس فى الخلاء أمام عيادة الأطفال بالبلدة الفقيرة التى تعيش بها فترى من بعيد سيارة جيب قادمة على الطريق وتتذكر فجأة أنه كانت لزوجها سيارة مثلها تركبها الأسرة فى رحلات نهاية الأسبوع فى الأيام الجميلة . . وتتذكر الأسرة السعيدة التى كان الحب يرفرف بجناحيه عليها فتتندى عيناها بالدموع . . ، ومن بين غلالة الدمع ترى السيارة تقترب أكثر وأكثر . . ثم تتوقف . . ثم ينزل منها راكبها فتتنبه مشاعرها فجأة ، يا إلهى إنه زوجها نعم زوجها بوجهه الوسيم وشعره الأسود الناعم يقف أمام السيارة وينظر إليها ضاحكاً . . فى خجل وترقب كأنما يخشى أن يقترب منها فتصدمه من جديد . . فتصرخ من الفرحة صرخة عالية وتجرى إليه مهللة ضاحكة ويهرول إليها

سعيداً بفرحتها . . وتقفز إليه فيلتقطها بذراعيه القويتين ويدور بها حول نفسه وهما يضحكان ويتعانقان ويصرخان .

لقد اكتشف كل منهما أن جذور الآخر فى أعماقه أقوى من الاقتلاع . . وأقوى من الخطأ . . وأقوى حتى من الخيانة العابرة . . ويُسعدهما هذا الاكتشاف فيواصلان الدوران . . والعناق . . والقبلات . . إلى ما لا نهاية .

وتنتهى هـذه القصة الرومانسية البسيطة للقصصية الأمريكية سوجيت .

وأتساءل ماذا أعجبنى فيها حتى أعرضها عليك ؟ فأجيب على تساؤلى بأننى أعرضها عليك لأنه قد أعجبنى فيها معنى قديماً جميلاً ولأنه أيضاً لم يعجبنى فيها معنى آخر لابد أنه من إفراز عالم اليوم العجيب ومتناقضاته العديدة .

فلقد أعجبنى فيها المعنى الذى أكدته الزوجة لصديقتها حين كانت تخفف عنها محنتها بفقد الجنين من أن الحب وحده لا يكفى لاستمرار العلاقة بين شخصين متحابين وإنما لابد أيضاً من عطاء المحب لمحبوبه ومن تلبيته لاحتياجاته الإنسانية منه وأهمها أن يقف إلى جانبه وبالقرب منه حين يحتاج إليه . فالحب ليس كلاماً ومشاعر فقط . . وإنما أفعال وتصرفات وتضحيات . أما ما لم يعجبنى فيها فهو أن الزوجة لم تستجب لندم زوجها ومحاولاته المستميتة لنيل صفحها وإعادتها إليه . . إلا بعد أن «أدركت» بالتجربة الشخصية أن الخيانة العابرة قد لا تنال من عمق

مشاعر الحب الحقيقى الذى يحمله المحب لمن يحبه ، فقد تكون سقطة عابرة فى لحظة ضعف عابر . . لكن الحب شيء آخر أكثر عمقاً . . وأكثر دواما ، لهذا فهى لم تنس ولم تصفح إلا بعد أن «أخطأت» نفس خطأ زوجها وعرفت أنها رغم الخطأ لا تزال تحبه أو ربما قد أحست وبمفهوم عالم اليوم الغريب أنهما قد أصبحا متعادلين فى الخطأ . . ولهذا فلم يعد من حقها أن تجلده بخطئه الوحيد حتى النهاية .

فإذا كنت قد قلت معها مؤيداً : إن الحب وحده لا يكفى . فلقد أردت بذلك أن أقول . . إنه لايكفى فعلاً لأنه لابد معه أيضاً من الإخلاص . . وتطهر المحبوب إلى جانب العطاء والتضحية . . والوجود فى الجوار حين يحتاج إليه من يحبه .

أو هذا على الأقل هو رأيى «المتخلف» فى هذه المسألة .

فهل تؤيدنى فيه؟ .

١٠

دموع الفراشة الجميلة !

ذات يوم رائع بهيج
سنلمح وراء الأفق
سفينة بعيدة مقبلة
يتصاعد دخانها
عالياً فى السماء .
هكذا غنت بقلب طروب
. . وهى تتمايل من الابتهاج

والسعادة فأشفقتُ عليها مما ينتظرها من تعاسة ! وفى فورة النشوة أمرت خادمتها بنثر الزهور فى المنزل الأنيق. . وغنت بصوت جميل :

انثرى البنفسج هنا . . وهناك
واملئى بالورود كل مكان

فازداد إشفاقى عليها . . وتساءلتُ . . بينى وبين نفسى . . لماذا تجيء التعاسة أحياناً . . حين نتوقع أن تمسح الدنيا كل أحزاننا بيد حانية؟

وانتهت من الغناء فطلبتْ من خادمتها أن تحضر لها ثوب زفافها الأبيض الجميل الموشى بالورود لترتديه .

وجلست أمام مرآتها تضع بعض المساحيق على وجهها لتزيده جمالاً وتألقاً ، وانتهت من زينتها فارتدت ثوب زفافها الأبيض . . ووقفت بشرفة بيتها تنتظر زوجها العائد بعد فرقة السنين .

ثلاث سنوات طويلة مريرة مضت منذ رحل عنها فى رحلته الطويلة وقال لها وهو يودعها . . انتظرينى فسوف أعود فانتظرته ولم تفقد الأمل فى عودته ومضت الشهور دون أن يرجع أو يكتب إليها بعنوانه وانقطعت أخباره عنها ومع ذلك لم تكف عن الأمل فى عودته ذات يوم . ولم يتوقف قلبها عن حبه ولم يساورها الشك فيه لحظة واحدة. لقد قال لها : إنه سيعود وستغرد الطيور مرة أخرى فى عشنا الصغير . . إذن فسوف يعود . . وكلما حاولت خادمتها المخلصة إقناعها بأنه لا فائدة من انتظار الزوج الغائب دون إشارة كل هذه السنين ، هزت رأسها بعنف رافضة أن تصدق هذا النذير . وترنمت لنفسها بكلمات الأغنية الجميلة عن اليوم البهيج الذى سترى فيه سفينة آتية من بعيد . . وفوق ظهرها حبيبها .

وحين زارها أحد أقاربها يطلب منها أن تعترف بالأمر الواقع وتتخذ إجراءات الطلاق من الزوج الغائب . . وتقبل يد الرجل الذى أسره جمالها ويرغب فى زواجها بعد إتمام الطلاق ، أجابته بحزن بأن « يدها » تخص شخصاً آخر وقلبها أسير لديه . ولن تمل انتظاره !

وغادرها الرجل خائب المسعى . . حزيناً عليها . وواصلت هى الانتظار بلا يأس . لقد تزوجته منذ ثلاث سنوات وبضعة شهور لم تكن تعرفه ولم تلتق به من قبل . . وقد ترددت فى قبول الزواج منه لأنه ليس

من أبناء وطنها . . وإنما هو ضابط بحرى أجنبى يجوب البحار ، ورست سفينته فى ميناء بلدها . . وستبقى فيها لبضعة شهور فرغب فى أن يتزوج فتاة جميلة من فتيات المدينة . . ورشحها له أحد وسطاء الزواج . . فرفضت فى البداية إشفاقاً على نفسها من انتظار بحار يجوب البحار وتطول غيبته فيها بالشهور . ولم ييأس الوسيط فقدم لها الضابط الشاب فوقعت فى غرامه من الوهلة الأولى ووافقت عليه وتأثر هو بجمالها وطيبتها ورقتها .

وحان موعد الزواج . . فجاء الزوج مع قنصل بلاده لتوثيق العقد وهمس القنصل فى أذنه بأن الفتاة قد زارته فى مكتبه وتحدثت معه عن آمالها فى السعادة مع زوجها فتأثر ببساطتها وإخلاصها ، وحذره من التلاعب بها .

وتم عقد الزواج . . وغادر القنصل والوسيط وموثق العقود وأقارب العروس المكان . . وخلا البيت الجميل الذى استأجره الزوج لحياته الجديدة إلا من العروسين الشابين فجلسا فى شرفته المطلة على الحدائق وشمس الغروب تلقى بظلالها الساحرة على المكان . . وتؤجج مشاعر الزوجة الشابة فتبوح لزوجه بحبها المكتوم ، وتقول له إنها ترددت فى الزواج منه لأنه من بلاد بعيدة . . وتخشى أن يفارقها بعد أن يكون حبه قد تمكن منها ولا يعود ، فيحتضنها زوجها بحنان ويؤكد لها أنهما لن يفترقا بعد ذلك أبداً . . وتسعد بذلك لكنها تسأله بإشفاق :

ـ يقولون إن الرجل فى بلادكم إذا صاد فراشة فإنه يقتلها بإبرة ! فهل هذا صحيح؟

كأنها تريد أن تطمئن إلى أنه لن يطعن قلبها بخنجر الغدر . . بعد أن وقعت فى شباك حبه .

لكنه يهدىء من روعها ويطمئن خاطرها . . فتستسلم لنشوة الحب والأمل فى الحياة إلى جوار من أحبت إلى نهاية العمر .

ومضت أيام السعادة جميلة سريعة كأنها ضيف متعجل لا يطيق البقاء طويلاً ، وحان موعد إبحار السفينة الراسية فى الميناء . . فودع الضابط الشاب عروسه وهو يؤكد لها أنه سيعود إليها فى أقرب وقت ، ويواصلان معاً حياتها السعيدة وبكت الزوجة الجميلة طويلاً وهى تودعه . . وخرجت إلى شرفتها ترقب سفينته الراسية فى الميناء القريب وهى تنسحب منه ببطء إلى المياه العميقة وتطلق صفارة الرحيل الحزينة فتزيد من أشجانها ، وحل الظلام الشفيف فبدت لها السفينة كشبح صغير يمعن فى الابتعاد والرحيل إلى أن اختفت تماماً فى الأفق البعيد .

ومضت الأيام كئيبة ثقيلة . . وغاب الزوج الحبيب وانقطعت أخباره ولم يكتب لها كلمة واحدة شهوراً بعد شهور ، لكنها لم تفقد الثقة لحظة واحدة فيه . . أو فى أنه سيعود إليها ذات يوم قريب . . ووضعت ثمرة الحب طفلاً جميلاً فى غياب أبيه فأفرغت فيه كل حبها وحنينها الحزين إلى الحبيب البعيد .

ومضت ثلاث سنوات طويلة منذ لحظة الرحيل بغير بارقة أمل فى عودته أو فى تلقى رسالة منه ، وزارت القنصل الأجنبى الذى شهد عقد زواجها وبثته حنينهالزوجها ، فتأثر بصدق مشاعرها لكنه لم يستطع مساعدتها فى التوصل إليه ، وقرأت فى عينيه شكوكه الصامتة فى عودة زوجها إليها ، لكنها رفضت من جديد أن تقتنع بها أو تصدقها .

وأخيراً آن للأحزان أن تذوب وانتصر الحب على الشكوك وصدق قلبها الذى أكد لها طوال السنين أن الحب لابد يوماً أن يعود . . وها هى سفينته قد عادت من جديد إلى نفس الميناء . . وأبلغها أقاربها أن زوجها قد عاد عليها . . وسوف يجىء إليها بعد قليل ، فغنت أغنيتها البهيجة وتجملت للحبيب العائد وارتدت ثوب الزفاف الجميل وجلست فى الشرفة ترقب مقدمه فى لهفة وإلى جوارها طفلها وخادمتها المخلصة . . تفكر فى وقع مشهد اللقاء عليها وعليه . . وفيما سيفعل حين يرى طفله الجميل لأول مرة ، فنزل الليل على الشرفة . . ولم يأت الزوج الحبيب وذهبت الخادمة والطفل للنوم . . وبقيت الزوجة المحبة ساهرة فى الانتظار ، وطلع الصباح ، واستيقظت الخادمة فوجدت سيدتها مازالت فى مجلسها فى الشرفة ترقب الطريق وقد بدا عليها الإعياء الشديد . . فتوسلت إليها أن تخلد إلى الراحة بعض الوقت ، واستجابت لرجائها قائلة : نعم . . سأذهب لأنام كى يبدو وجهى جميلاً عندما يعود !

دخلت غرفة نومها . فما أن أغلقت عليها بابها ، حتى تكشفت الحقيقة القاسية . فقد جاء الزوج الحبيب فعلاً ولكن مع زوجته الجديدة التى تزوجها فى بلاده ومع القنصل الأجنبى . لا لكى يستأنف الحياة مع

زوجته المتفانية فى حبه وإنما لينتزع منها طفلها لينشأ فى بلاده البعيدة وتربيه زوجته الجديدة على قيم مجتمعهم وعاداته . أما زواجه بها فلم يكن زواجاً جاداً من البداية ، وإنما كان زواجاً مؤقتاً محدداً بفترة توقف سفينته فى الميناء القريب . فقد عرف أنه سيبقى لفترة فى هذه البلاد ولجأ إلى وسيط لإتمام الزواج وعرف من البداية أنه يستطيع أن يلغى عقد الزواج حين يرحل عن هذه البلاد . . وأن يلغى أيضاً عقد إيجار البيت الذى تعيش فيه زوجته ، فهكذا يفعل البحارة من زملائه حين يأتون إلى هذه البلاد البعيدة ، وتتقبل ذلك فتياتها كأمر واقع لقاء بعض المال عند الرحيل ، لكن زوجته الجميلة لم تكن من هؤلاء الفتيات . . فهى من أسرة طيبة تقلبت عليها الأيام ففقدت ثراءها ومات أبوها حسيراً . ولم يساورها الشك لحظة فى جدية الزواج . . ولم تتعامل معه كزواج مؤقت وإنما منحت قلبها بإخلاص لهذا الشاب الوسيم وحلمت بزواج أبدى منه .

وتوسلت الخادمة الأمينة للزوج العائد ألا يهدم حياة سيدتها ، بمواجهتها بالحقيقة الأليمة وبانتزاع طفلها منها . . وذكرته بحبها له وتفانيها فى إسعاده وحدثته عن أحاديثها عنه طوال السنوات الماضية . . وكيف كانت تتذكره كل يوم وفى كل لحظة من عمرها . . وترتب البيت كل صباح . . وتضع الورود فى زهرياتها . . انتظاراً لعودته فى أى لحظة . . فأحس بوخز الضمير . . وسرح فى ذكرياته الجميلة معها فبدت له الشهور التى عاشها معها كحلم فضى جميل فيغادر البيت هارباً من الذكريات وتاركاً لزوجته الجديدة وقنصل بلاده أداء المهمة الثقيلة . لقد

ضعف قليلاً أمام مشاعر زوجته الرقيقة التى ذكرته بها خادمتها لكن واقعه أقوى من حبها الحالم الرقيق ، ولابد له من العودة إلى بلاده مع زوجته التى تتناسب مع مستواه الاجتماعى وتتوافق مع روح مجتمعه وتقاليده ، مصطحباً طفله لينشأ فى رعايتها . إنها مهمة حزينة وثقيلة . . لكن لابد من القيام بها ولابد من مقاومة ضعفه الطارىء أمام الذكريات الهانئة ونهضت الزوجة المحبة من نومها وغادرت غرفتها . . ففوجئت بالزوجة الأخرى وتساءلت عن شخصيتها .

وترفق بها القنصل والخادمة فأبلغاها بإشفاق بالحقيقة القاسية تدريجياً فارتج كيانها من الأعماق ، لكن صدمتها المروعة لم تخرجها عن طبيعتها الرقيقة المهذبة . . فتمالكت نفسها بعد قليل وهنأت الزوجة الجديدة بزواجها ولم تشعر تجاهها بأية مرارة لأنها لا ذنب لها فيما تقاسى هى من معاناة ، وأدركت أنه لا مفر أمامها من التخلى عن طفلها لها لأن أباه يستطيع بحكم القانون فى بلدها أن ينتزعه منها . فتفكرت قليلاً ثم أبلغت الزوجة بأن الطفل سيكون جاهزاً للرحيل معها بعد نصف ساعة ولكن بشرط أن يأتى أبوه معها لاستلامه !

ويوافقها القنصل والزوجة الجديدة على رغبتها الأخيرة وينصرفان واعدين بالعودة مع الأب بعد قليل . وتعد الخادمة الطفل للرحيل وتجمع له ملابسه ثم تحمله إلى أمه الغارقة فى أحزانها فتحتضنه . . وتغنى له أغنية الوداع الحزينة . . ودموعها تنساب بغزارة . . ثم تغطيه بحنان بوشاح أبيض رقيق . . وترقده على الأريكة ليكون فى انتظار أبيه حين يعود وتغيب هى خلف إحدى الستائر .

ويرجع الزوج والقنصل والزوجة الجديدة فيجدون الطفل فى انتظارهم بوشاحه الأبيض الرقيق . . ويجدون أمه راقدة على الأرض إلى جوار أريكته سابحة فى دمائها و إلى جوارها خنجر نقشت عليه هذه العبارة :

ـ إذا لم تستطع أن تعيش كريماً . . فمت كريماً .

وأضيئت الأضواء فى أوبرا فيينا العريقة . . وتلفت حولى فرأيت من وراء سحابة «الغيوم» المستقرة فى عينى طوال الفصل الأخير الدموع تلمع فى عيون النساء والرجال الذين يرتدون ملابس السهرة الأنيقة ، ثم انفجر الجميع فى التصفيق الطويل ، وانفرج الستار عدة مرات عن أبطال أوبرا «بترفلاى» التى شهدتها قبل ذلك أكثر من مرة وكتبها دافيد بيلاسكو وجون لوثر ووضع ألحانها المثيرة للشجن الموسيقى الإيطالى جياكومو بوتشينى وقدمت لأول مرة فى ميلانو عام ١٩٠٤ وصورت مأساة غرام فتاة يابانية بضابط أميركى ، وانتحارها حزناً على ضياع الحب . . و إعدام الأمل .

وغادرت مبنى الأوبرا . . وسط جموع الخارجين ، مشحوناً بانفعالات عديدة وأحسست كعادتى حين أشاهد عملاً فنياً رائعاً ، أنى أريد أن أختلى بنفسى فلا أتحدث لأحد لأطول وقت ممكن حتى لا يبدد الكلام والانشغال بشئون الحياة العادية . . ما تركه فى أعماقى من أحاسيس وتأملات وشجون ، فمشيت طويلاً فى شوارع العاصمة النمساوية منفرداً بنفسى . . ومحاولاً أن أطيل وحدتى ومعايشتى لهذه الأوبرا الجميلة بقدر ما أستطيع قبل أن أضطر للاتجاه إلى المقهى الذى ينتظرنى

فيه صديق تواعدت على اللقاء معه بعد انتهاء الأوبرا . وواصلت المشى صامتاً . . لأكثر من ساعة وأنا أسترجع وجه «بترفلاى» الجميل وانفعالاتها البريئة الصادقة وصوتها المؤثر . . وغناءها البهيج حين علمت بقرب عودة زوجها ثم غناءها الحزين حين صدمت فى حبها وحين ودعت طفلها الوداع الأخير فأنشدت له بصوت يحمل كل أحزان الحياة :

إبنى الحبيب
يا من منحتنى إياه السماء
من جنتها الخالدة
وداعاً . . للأبد !

وازددت إحساساً بالإشفاق على كل من تقسو عليه الحياة بالحرمان من طفله . . وكل من حرمته الدنيا من حبه الوحيد وحلمه المشروع فى السعادة والأمان ثم قادتنى قدماى بغير أن أشعر إلى شارع المقهى فقلت لنفسى وأنا أهم بفتح بابه :

ما أكثر الضحايا وأقل الوفاء . . وما أكثر الأوغاد فى كل مكان وزمان !

ثم دفعت باب المقهى وحييت صديقى معتذراً له عن تأخرى الطويل !

١١

ديون لا يسددها أحد

غادر مدينته الصغيرة

مجروح القلب والكرامة . .

فلقد صدم فى حبه

ونكثت خطيبته

بعهدها معه . .

وخذله أقرب أصدقائه

ولم يقف معه فى أزمته .

فضاقت نفسه ببلدته . . وغادرها فى الفجر ليبدأ حياته مرة أخرى فى بلدة جديدة لا يعرف أحداً من أهلها . وإمعاناً فى الغربة أقام فى بيت صغير منعزل بأطراف البلدة وتجنب الناس فاجتنبوه . . وكرهوه . وكانت وسيلته للحياة نُولاً قديماً للنسيج يملكه وينسج عليه حريراً يدوياً فاخراً . . يعرف قيمته تجار النسيج بالمدينة التى يعيش بأطرافها ويشترونه منه كلما أهل عليها مطلعُ كل شهر . . فيبيع نسيجه ويشترى مخزونه من الطعام والشراب والتبغ . . ويعود إلى بيته المنعزل لا يحيى أحداً ولا يحييه أحد .

ويواصل نسج الحرير من جديد ويسلى وحدته بتدخين الغليون واجترار الذكريات الحزينة .

وفى هذه الوحدة الموحشة عاش خمسة عشر عاماً كاملة تجمع لديه خلالها مبلغ لا بأس به من النقود . وكانت تسليته الوحيدة أن يعدَّه ويعيد ترتيبه من حين لآخر ثم يعيده إلى موضعه الأمين . لقد اعتزل الناس خيارهم وشرارهم بعد صدمته فى وفاء خطيبته وإخلاص أصدقائه . . لكن شرارهم لم يعتزلوه . . فعاد ذات يوم من رحلته الشهرية إلى سوق المدينة فوجد باب بيته مفتوحاً ولم يجد ثروة العمر التى جمعها بالحرمان من مباهج الحياة طوال السنين . وحزن على ماله المسلوب كما حزن من قبل على الحب الضائع . وذاعت قصة سرقة مال ذلك الغريب المنطوى على نفسه فى طرف المدينة فرقت له قلوب بعض أهلها لأول مرة ورثوا لحاله . وبدأوا يحيونه إذا التقوا به فى الطريق . . ويعرضون عليه مساعدته إذا رغب فى شراء ما يحتاج إليه من طعام أو خيوط حريرية . وتأثر الرجل الوحيد بمشاعر جيرانه لأول مرة وشكرهم بحرارة عليها .

ثم جاءت ليلة رأس السنة بجو قارس البرودة . وتساقط الثلج معظم ساعات الليل على الحقول القريبة . . ففتح الرجل الوحيد باب بيته يتأمل قطع الثلج المندوف التى تتساقط ثم عاد إلى مقعده المنخفض واستلقى عليه . . واستسلم لإغفاءة قصيرة ، حلم خلالها حلماً عجيباً هو أن نُقوده قد عادت إليه بطريقة غامضة وأنها إلى جواره الآن ، فمد بحركة لا إرادية يده وهو نائم ليمسك بها . . فإذا بيده تلمس ضفائر شعر ناعم! أراد أن يواصل حلمه الجميل لكن ملمس الشعر نبه حواسه

ففتح عينيه ليرى طفلة صغيرة جميلة عمرها عامان ترقد على الأرض فى براءة إلى جوار مقعده المنخفض !

يا إلهى . . من أين جاءت هذه الطفلة . . ومتى دخلت بيته وكيف نسى باب البيت مفتوحاً فتسللت منه ؟ وللحظات خاطفة تصور أنها أخته الطفلة الصغيرة التى كان يهدهدها بحنان وهو صبى قبل أن ترحل عن الحياة فى عمر الورود . . وخيل إليه أنها عادت إليه بطريقة غير مفهومة لتؤنسه فى وحدته ، وضاعف من حيرته أنها تشبهها إلى حد كبير . وتنبهت الطفلة من نومها وبكت صائحة : ماما فاحتار فيما يصنع لإسكاتها . . وتصور أنها ربما تكون جائعة فنهض لإعداد بعض الطعام لها وراح يطعمها باهتمام غريب ، وتوقفت الطفلة عن البكاء حتى انتهى من إطعامها ثم عادت للبكاء من جديد وتكرار كلمة : ماما . وخيل إليه أنها تحاول أن تجذب انتباهه إلى أن أمها فى مكان ما قريب من بيته ، فأمسك بيدها وغادر بيته وتلفت حوله فلم يجد الأم . . لكنه وجد آثار أقدام الطفلة الصغيرة على الأرض المبتلة فقرر أن يتتبعها لعلها تقوده إلى المكان الذى جاءته منه . وتتبع الآثار فقادته إلى الحقول المجاورة . . ورأى امرأة شابة ملقاة على الأرض وغائبة عن الوعى وقفت أمامها الطفلة باكية ورددت من جديد : ماما . فحمل الأم الغائبة عن الوعى وعاد بها إلى بيته وحاول إسعافها فلم تجد محاولاته غادر بيته تاركاً الأم والطفلة فيه ليبحث عن طبيب المدينة . وكان الطبيب يقضى سهرة رأس السنة فى بيت أحد أعيان البلدة وسط باقة من رجالها البارزين ونسائها المرموقات، وعرف الحاضرون أن الرجل الوحيد الذى يعيش بأطراف

المدينة قد عثر على طفلة صغيرة عمرها عامان أمها غائبة عن الوعى . . فاستثار ذلك اهتمام أحد الحاضرين بشدة . . لكنه تكتم انفعالاته وتظاهر بأن الأمر لا يعنيه . إنه ابن أغنى أغنياء البلدة الذى يعده أبوه ليرث امبراطوريته الصغيرة من بعده . . ويسعى جاهداً لتزويجه من فتاة جميلة عريقة النسب والثراء .

واقترح الشاب المرموق من باب «الفضول» أن يخرجوا جميعاً مع الطبيب ليروا هذه الطفلة وأمها . . ووافق الجميع على اقتراحه كأنما سيضيف ذلك إلى برنامج السهرة فقرة جديدة مثيرة ! .

وركبوا العربات إلى بيت الرجل الوحيد ودخل الطبيب فلم يلبث أن تأكد بعد قليل من أن الأم قد ماتت قبل العثور عليها بتأثير جرعة زائدة من المخدرات ، وأعلن ذلك لرفاقه فتأسفوا لوفاتها . . وأسفوا أكثر حين علموا أنها غريبة على المدينة ولا يعرف أحد ذويها وأن الطفلة الصغيرة . . قد أصبحت بلا مأوى . . ولا نصير ! .

وفكر الشاب المرموق قليلاً . . ثم اقترح أن يدخل ليرى الأم والطفلة لعله يكون قد رآها من قبل فى مناسبة ما فيساعدهم فى التوصل إلى أحد من أهلها لإرسال الطفلة إليه .

وشجعه الجميع على الفكرة الإنسانية فتقدم من باب البيت متردداً وألقى نظرة متهيبة على المرأة . . ثم نظر إلى الطفلة بانفعال غامض ، ونظرت إليه الطفلة ولم تبد أى انفعال تجاهه فأحس بارتياح «آثم» لأنها لم تتعرف عليه! ثم غادر المكان وهو يحاول تكتم ابتهاجه وأبلغ رفاقه آسفاً

أنه لا يعرف الأم ولم يرها من قبل وانصرف الجميع مرددين عبارات التعاطف مع الطفلة الوحيدة . . ثم لم يلبثوا أن نسوا أمرها بعد قليل وعادوا لاستكمال احتفالهم البهيج بمقدم العام الجديد .

ـ وعندما أطفئت الأنوار عند منتصف الليل فى مقر الاحتفال أفرج الشاب المرموق عن انفعالاته المكتومة وابتسم لنفسه صامتاً كأنما يهنئها على ما صادفه من حظ سعيد فاق كل ما كان يحلم به منذ ساعات . وكان لابتهاجه ما يبرره فلقد تخلص من «العقبة» التى كانت تهدد مركزه عند أبيه . . وسمعته فى المدينة . . ومشروعه المأمول للزواج من أجمل فتاة فيها .

فالأم الراحلة كانت سره الذى يخجل منه ويتكتمه بكل الحيل منذ عدة سنوات وينتظر له حلاً من السماء يخلصه منه . لقد كانت زوجته السرية التى أسره جمالها حين التقى بها فى المدينة القريبة وأحبها وتزوج منها . . ثم استأجر لها مسكناً خاصاً فى الطرف البعيد للمدينة وراح يزورها فيه خفية . لكن المغامرة السرية تحولت بعد ثلاث سنوات فقط إلى هم من أكبر همومه . فلقد أنجبت زوجته طفلة على غير ما أراد . . وضاقت زوجته بوحدتها الطويلة فى انتظاره وبإنكاره لابنته منها . . فتعرضت لأزمات نفسية مؤلمة قادتها تدريجياً إلى طريق إدمان المخدرات ، فأصبحت أسيرة لها . وتكرر خروجها من مسكنها وهى تحت تأثير المخدر تهيم على وجهها فى الطرقات وطفلتها تلاحقها باكية ، فتقترب بها قدماها من وسط المدينة حتى كادت تفضح سره أكثر من مرة . وكلما عاتبها على ذلك وعدته بألا تكررها ثم تستسلم لتأثير المخدرات بعد أيام

وتخرج هائمة على وجهها من جديد . وحين بدأ يضيق بها هددها فهددته فى نوبة يأس بأن تلجأ إلى أبيه وتذيع سره فعاد لاسترضائها وهو يحلم بحل قدرى يخلصه منها ومن مخاوفه بضربة سحرية واحدة فجاء الحل من حيث لم يتوقع وماتت ولم يعرف أحد أنها زوجته ولم تتعرف عليه طفلته الصغيرة وسوف ينتهى بها المصير غالباً إلى ملجأ المدينة فتشب فيه مجهولة الأبوين فوداعاً لكل المخاوف القديمة .. ومرحباً بالمستقبل الواعد الموعود ! .

وفى اليوم التالى دُفنت المرأة الغريبة فى مقابر من لا أهل لهم بالمدينة وتساءل البعض عن مصير تلك الطفلة الصغيرة اليتيمة .. وكان الشاب المرموق أكثرهم اهتماماً بها فزار الرجل الوحيد فى بيته المنعزل بعد أيام ، وسأله عما ينوى أن يفعل معها . ثم قال له كمن لا يعنيه أمرها بأكثر مما يعنى أى إنسان له قلب «عطوف» مثله ! .

ـ إنك لن تحتفظ بها بالطبع .. وسوف تودعها ملجأ المدينة لأنها عبء على رجل وحيد مثلك .. أليس كذلك ؟ ففوجىء بالرجل يجيبه مستنكراً الفكرة بشدة ومؤكداً له أنه سوف يحتفظ بها ويرعاها إلى أن يظهر من يثبت أحقيته فى ضمها إليه ، فإن لم يظهر أحد من أهلها فسوف يكون هو أحق إنسان بالاستئثار بها .. وتربيتها ! .

واهتزت مشاعر الشاب «العطوف» بعض الشىء أمام حرارة استنكار الرجل لفكرة التخلى عن الطفلة ، ثم تمالك مشاعره وقال له : لكنهم فى الملجأ يعرفون كيف يعتنون بمثل هؤلاء الأطفال الذين لا أهل لهم .. وأنت رجل مسن وتعيش وحيداً بلا زوجة .. فهل لا تزال مصراً على الاحتفاظ بها ؟ .

ويجيبه الرجل بتأكيد : نعم سأحتفظ بها .. فكلانا أحق بالآخر فهى «شىء» صغير وحيد .. وأنا «شىء» وحيد منقطع الأهل .. وسيعتنى كل منا برفيق حياته الجديد ! .

واستراح الشاب المرموق إلى تمسك الرجل بطفلته .. وقدم له بعض النقود وألح عليه فى قبولها لتعينه على عنايته بهذا الشىء الصغير الوحيد .. وتقبلها الرجل شاكراً له مشاعره الإنسانية الرقيقة ، وانصرف الشاب مستريحاً إلى ما رتبته له الأحداث من حل مريح . وقرر بينه وبين نفسه ألا يعترف لفتاته التى سيتزوجها خلال أسابيع بأمر هذه الطفلة أبداً .. وأن يكفر عن تخليه عنها بمراقبة تنشئتها عن بُعد .. ومساعدة الرجل على مسئوليتها .. وأن يفعل كل ما يستطيع ليضمن لها حياة كريمة ما عدا شيئاً واحداً فقط هو أن تعرف أنها ابنته ذات يوم أو أن يعرف أحد فى المدينة وخاصة أبوه وفتاته أنه أبوها .

وأغلق الرجل باب بيته .. ورجع إلى طفلته الجديدة ليعد لها طعام الغداء . ومضت أسابيع قليلة تغيرت خلالها حياته من النقيض إلى النقيض فالبيت الصامت الذى لم يكن يسمع من قبل سوى صوت النول الكئيب أصبح يضج معظم ساعات اليوم بأصوات جديدة وغريبة عليه .. كالكلام .. والبكاء والصراخ .. والضحك والهدهدة .. وصوت سقوط «شىء» صغير على الأرض من حين لآخر وصوت صيحة فزع

يطلقها الرجل عند اللزوم إذا استشعر قرب سقوطها على النول . . أو اقترابها بغير حذر من النار . .

ولم يعد البيت الصغير يعرف الهدوء إلا فى الهزيع الأخير من الليل حين ينطفىء المصباح أخيراً ويتسلل ضوء القمر الوانى من النافذة الوحيدة فيلقى أشعته الفضية على شخصين نائمين فى فراش قديم تتردد أنفاسهما فى هدوء وقد حلت بهما وبالمكان سكينة عجيبة .

وتعجب جيران الرجل الوحيد من تمسكه بالطفلة . . ومن حُنوه الزائد عليها . . وتحمسوا لمساعدته فى العناية بها بإخلاص . . فزارته أكثر من سيدة من الجيران حاملة إليه بعض الملابس القديمة الصغيرة وأرشدته باهتمام إلى كيفية مساعدتها على الاستحمام . . وتسريح ضفائرها الناعمة وإعداد الطعام المناسب لها . .

وتعجب الرجل نفسه من أن هذه الطفلة الصغيرة . . قد فتحت له قلوب كل جيرانه ومعظم أهالى المدينة التى طالما أغلقت دونه أو تعاملت معه من قبل بتحفظ وبرود . فالجميع يحيونه الآن باهتمام حين يلتقون به عرضاً فى الحقول المجاورة أو فى سوق البلدة ويسألونه عن أحواله مع الطفلة وكيف يتعامل معها وعن طرائفها معه وبعضهم يذكره بواجبه الدينى تجاهها الذى يلزمه بأن يُنشئها على الأخلاق الكريمة لأن تربية البنات مسئولية يُحاسب الله جل شأنه من يتحملونها ، ولابد من أدائها على خير وجه ! حتى تجار السوق الذين كانوا يتحايلون من قبل لكى

يشتروا منه إنتاجه من الحرير بأبخس الأثمان ثم يبيعونه للأثرياء بأثمان مضاعفة . . أصبحوا أقل رغبة فى أن يبخسوه حقه عند الشراء ! .

وبعد شهور قليلة من ظهور هذه الطفلة الصغيرة فى حياته . . اعترف الرجل لنفسه بأنها قد أسعدته بأكثر مما كانت تفعل نقوده المسلوبة التى كان يعتبرها أماناً له ضد المرض وتقلبات الأيام. فلقد كان يمضى الساعات الطويلة كل يوم منحنياً على نوله القديم ليكسب المزيد من النقود ويزيد من مدخراته القليلة . ويغلق باب بيته ونافذته جيداً فى الليل خشية أن يتسلل منهما لص يسرق ثروة العمر التى جمعها بالحرمان . أما الآن فإن هذه الشيطانة الصغيرة تبعده ساعات كثيرة عن نوله ليؤدى لها ما تحتاج إليه من خدمة ورعاية ومطالب لا تنتهى . . ويستجيب بسهولة لرغبتها الدائمة فى الخروج من باب البيت لتلهو فى الخلاء المجاور وفى الحقول وهو يلاحقها بخطوات متعثرة ليحميها من السقوط فى مجرى صغير للماء أو فوق أشواك النباتات البرية ، ويبرر استجابته لها بأنها صغيرة ويحتاج جسمها إلى أشعة الشمس واستنشاق الهواء النقى خارج البيت لأطول فترة ممكنة حتى تنشأ صحيحة البدن . فقلت ساعات عمله على النول كثيراً ، لكن رزقه منه لم يقل ـ للعجب ـ إن لم يكن قد زاد ! فأسعار الحرير الذى يبيعه قد زادت بعد أن تغير موقف التجار منه وازداد تعاطفهم معه . وقد حار فى تفسير ذلك طويلاً فلم يجد له تفسيراً سوى أن الله جل شأنه الذى أرسل إليه هذه الطفلة الصغيرة قد أرسل له معها ما يعينه على رعايتها وتحمل مسئوليتها . فرضى عن حياته الجديدة

وسعدبها اختارته له الأقدار وأصبحت أيامه واهتماماته وأفكاره تدور كلها حول محور واحد هو هذا الشيء الصغير الجميل ! .

وجرت الأيام كركض الخيول ، وفى أحد الاحتفالات الدينية التى تجمع سكان المدينة . شاهد الشاب المرموق الذى أصبح الآن فى الثالثة والأربعين من عمره والذى خلف أباه فى إدارة أملاكه الواسعة ، الرجل الوحيد الذى ضم منذ خمسة عشر عاماً الطفلة الوحيدة التى ماتت عنها أمها ، يرقب الاحتفال وقد ابيض شعره ورسم الزمن على وجهه تعاريج جديدة . . وإلى جواره غادة هيفاء فى السابعة عشرة من عمرها تميل عليه بحنان ملفت للنظر وتتبادل معه الهمسات والابتسامات كلما مر أمامهما موكب جديد ، فخفق قلب الرجل بشدة . . وأحس بوخز أليم ! إنها ابنته التى كف عن تتبع أخبارها منذ سنوات وكاد أن ينسى وجودها على قيد الحياة فى غمرة مشاغله الكثيرة بأملاكه وحياته الاجتماعية الراقية .

لقد كانت المرة الأخيرة التى فكر فى أمرها بعض الوقت . . حين تلفت حوله منذ ست سنوات فوجد نفسه سيداً مرموقاً فى بلدته وزوجاً لسيدة راقية جميلة وثرية وعريقة النسب . . لكن بيتهما صامت معظم أوقات النهار لأنهما لم ينجبا أطفالاً ويئسا من أمل الإنجاب . . ففكر لعدة أسابيع فى أن «يتبنى» ابنته . . التى يربيها رجل غريب . . وفاتح زوجته بالفعل فى الأمر . . فعارضت الفكرة بشدة ليس من حيث المبدأ، وإنما لأنها ترفض تبنى طفلة مجهولة الأبوين .

أما على الجانب الآخر فلقد كانت حياة الرجل الوحيد تمضى دافئة

حافلة بالمشاغل والأعباء اللذيذة . وقد شهدت خلال السنوات الماضية خبرات جديدة عليه شملت توقيع العقاب على الطفلة الشقية بحبسها بضع ساعات حين تُفسد غزله أو تكسر آنية من الخزف . . ثم الاستجابة لتوددها بعد الخطأ والصفح عنها . إلى جانب خبرات ومشاعر متنوعة اختلفت مع اختلاف السنين ومراحل العمر ، حتى عرف لأول مرة مشاعر الخوف عليها من غواية الشبان حين استوت صبية جميلة وأسرت بجمالها ابن السيدة الطيبة التى تسكن بالقرب منهما . . فراح يبثها حبه ويعلن عن رغبته فى الزواج منها . وفى إحدى أمسيات الأب والإبنة سألت الفتاة أباها : هل تخشى أن أتزوج يا أبى . . وأتركك وحدك ؟وفكر الرجل فى السؤال فلم يجد جواباً . لكن الفتاة الطيبة لم تدعه لحيرته طويلاً فأكدت له أنها لن تتركه وحده حين تتزوج وإنما سوف تضيف إلى حياته ابنا جديداً هو من تتزوجه لأنها اشترطت على فتاها أن يقيم معهما كشرط وحيد لقبولها له .

ونظر الأب لابنته بامتنان شديد وهى تتحرك فى الكوخ الذى وزعت فيه لمساتها الأنثوية . . فحولته إلى بيت جميل بسيط .

وذات أصيل خرج رجل المدينة المرموق يتجول بين حقوله ويشرف على مزارعه الكبيرة فقادته قدماه إلى الاقتراب من البيت الصغير ورأى عن بعد مشهداً هز مشاعره ودعاه إلى إعادة التفكير فى معنى السعادة . فلقد شاهد الرجل العجوز جالساً أمام البيت على مقعد قديم يدخن غليونه فى هدوء ومن خلفه تقف ابنته تتكىء على مسند المقعد وهى تحيط

عنق أبيها بذراعها فى ألفة وتنظر للأفق الأرجوانى البعيد فى اطمئنان غريب!.

كان المشهد يعكس إحساساً عميقاً بالأمان والدعة .. والحب المتبادل بين الاثنين والذى لايحتاج لأن يعبر عن نفسه بالكلمات فأحس بلوعة غامضة وانصرف عائداً إلى القصر الكبير مكتئباً وغارقاً فى تفكير عميق . وحين اقترب من بيته سأل نفسه بوضوح : لماذا لا أستردها وأعترف لزوجتى بكل شىء وأطلب منها أن ترعاها .. وتعلمها سلوك فتيات الأسر العريقة وتصنع منها فتاة راقية مثلها ؟ .. لماذا لا أغمرها بالثياب والمال والرعاية لأكفر عن إهمالى لها كل هذه السنوات بدوافع أنانية حقيرة؟ ولماذا لم أكن «أنا» هذا الأب الذى تستند هى إلى مقعده وتحيط عنقه بذراعها فى حنان ؟ ثم من يرث هذه الضياع وهذه الأموال بعد رحيلى عن الحياة وزوجتى عريقة فى الثراء وليست فى حاجة إلى المزيد منها ؟ بل ومن يؤنس وحدة زوجتى نفسها إذا رحلت عنها فجأة وتركتها وحيدة فى بيت واسع كبير ليس فيه سوى الخدم ؟ وحزم أمره فى تصميم شديد .. فحث الخطا إلى بيته وصارح زوجته بقصته الكاملة مع هذه الإبنة بلا مداراة وطلب منها كما يتوقع من سيدة فاضلة مثلها أن تساعده على ضم هذه الفتاة إليه والتكفير عن جريمته فى حقها وسداد دينه القديم إليها .

واستوعبت زوجته الموقف بأسرع مما توقع وأدركت عمق أزمته النفسية فلامته برفق على إخفائه هذا الأمر الهام عنها كل هذه السنوات ..

وفى صباح اليوم التالى .. توقفت عربة فخيمة أمام حديقة الورد الجديدة فى بيت الرجل العجوز ونزل منها رجل وسيدة فى ملابس فاخرة وطرقا باب البيت ففتحته لهما فتاة مهذبة جميلة ودعتهما للدخول ثم قدمت لهما مقعدين وجلست إلى جوار أبيها تتطلع إلى الضيفين العظيمين فى هدوء وابتسام . وتردد الرجل المرموق بعض الوقت ثم حسم أمره وصارح الرجل العجوز بما جاء إليه ..

وساندت الزوجة زوجها فتحدثت بلباقة مؤيدة رغبة زوجها ومؤكدة أن هذا هو التصرف الصحيح الذى يمليه صالح الفتاة . وانعكس الحديث غير المتوقع على وجه الرجل العجوز فى نظرة هلع صامتة ، أما ابنته فقد نهضت من مقعدها ووقفت خلف مقعده كما اعتادت أن تفعل وهى طفلة حين تريد أن تحتمى به من خطر عابر .. ومدت يدها بحركة لا إرادية لتضعها على كتفه فأحست بجسمه ينتفض تحت يديها من الانفعال . وران على المكان صمت ثقيل .. وغرق الرجل العجوز فى تفكير حزين ثم بدا له ألا يكون أنانياً ويحرم ابنته من الحياة الكريمة التى تنتظرها فى بيت أبيها والتى سترشحها بالتأكيد للزواج من شاب مرموق بدلاً من ذلك العامل البسيط الذى ستتزوجه ، فنظر لابنته نظرة حائرة ثم قال لها : تكلمى يا ابنتى وحددى ما تريدين أن تفعلى بحياتك ، فتحركت الإبنة من وراء مقعده وتقدمت من الرجل المرموق وزوجته الأنيقة ثم قالت لهما بتهذيب شديد :

ـ شكراً لك يا سيدتى .. شكراً لك يا سيدى على رغبتكما الكريمة .. لكننى لا أستطيع فى الواقع ترك «أبى» مهما كانت الظروف . وتلقى

سيد المدينة كلمات ابنته بخيبة أمل بالغة ارتسمت على وجهه فأثارت عطف زوجته عليه . . وارتجف بعض الوقت ثم قال بضعف :

ـ لكن لى حق عليك يا ابنتى هو حق الأب . . ومن حقى أن أستعيد ابنتى وأن أتكفل بها متى أردت ذلك ! .

فشحب وجه الابنة من الخوف . . وتصورت لوهلة أنه يستطيع أن يجبرها على مالا تريده ، لكن الرجل العجوز انتفض من الانفعال فجأة ثم قال له بكبرياء الأب الذى يدافع عن ابنته : وأين كان هذا «الحق» يا سيدى طوال السنوات الماضية؟ . . ولماذا لم تستردها وهى طفلة وحيدة بائسة . . بل ولماذا لم تستردها قبل أن أحبها وتتشابك معها كل خيوط حياتى حتى لم تعد لى حياة أخرى بعيداً عنها ؟ إنك حين تأخذها الآن منى فكأنك تمد يدك فى صدرى لتنتزع قلبى منه بلا رحمة .

والتقط أنفاسه المتهدجة ثم واصل حديثه قائلاً :

ـ لقد أعطاك الله يا سيدى هبة منه لكنك أدرت ظهرك لهبة السماء فأعطاها لى أنا بعدك ولم يعد لك أى حق عليها . ذلك أن الإنسان حين يطرد البركة من أمام بابه . . فإنها لابد أن تذهب إلى من يستحقونها ، وهكذا غادرتك وجاءت إلى بابى وأصبح الله جل شأنه «ينظر» إليها كابنة لى وليست لك فكيف تفكر فى اغتصابها منى ؟ .

وأثارت كلماته الحارة انفعال الابنة فتجمعت الدموع فى عينيها ببطء وأمسكت بيد أبيها الذى لم تعرف لها أباً سواه وقالت «للآخر» فى ثبات :

ـ شكراً لك على دعوتك لى يا «سيدى» . . لكنى فى الحقيقة لا أشعر

بأن لى أى أب آخر سوى أبى هذا ولم أتخيل لنفسى بيتاً آخر سوى بيت صغير نظيف يجلس فيه أبى هذا فى الركن منه إلى جوار المدفأة يدخن غليونه فى هدوء .

وغص الأب المزعوم بكلام ابنته الحاسم فألقى عليهما تحية مقتضبة ثم انصرف مع زوجته فى وجوم .

وأسرعت الأيام فى ركضها بعض الشىء ، وبعد شهور قليلة من هذا اللقاء المشحون كان السيد المرموق يجلس إلى جوار زوجته فى شرفة منزله الفخم الذى يطل على الطريق الرئيسى بالمدينة الصغيرة . . فشاهدا موكب عرس بسيط يتجه إلى فندق المدينة تتصدره فتاة رائعة الجمال ترتدى فستاناً بديعاً أهدته لها زوجة الرجل المرموق منذ أيام وتتأبط بإحدى ذراعيها شاباً وسيماً بسيط الملابس . . وبالذراع الأخرى شيخاً أبيض الشعر مجعد الوجه يرتدى أحسن ما عنده من ملابس وإن بدت رغم ذلك بسيطة ، والفرحة الآسرة تشع فى وجوه الثلاثة . . بينما تحيط بهم سيدات ورجال كثيرون ليسوا من أعيان البلدة ولا من أثريائها ، لكنهم جميعاً فى غاية الابتهاج والمرح والسرور . . ولا يكفون عن مداعبة العروسين والأب العجوز ولا عن رش الثلاثة معاً بالملح جلباً للسعادة والحظ السعيد . وراقب الرجل المرموق من شرفته المشهد البهيج بأحاسيس متناقضة نبهت ذكريات مخجلة كثيرة فى حياته ، فلم يدر هل يبتهج لزواج ابنته أم يحزن . . ولم يدر هل يخفى انفعالاته أم يطلق لها العنان ليستريح . . وارتسمت أفكاره المشحونة على ملامح وجهه . . فتنبه على يد زوجته تربت على ذراعه فى عطف كأنها تخفف عنه ضيقه ،

فتنهد فى استسلام ثم قال لزوجته بصوت حزين : يبدو أن هناك ديوناً لا نستطيع أن نسددها إذا تأخرنا عن أدائها فى الوقت الملائم . . على عكس ديون المال التى نستطيع أن نسددها فى أى وقت مهما تأخرنا فى الأداء مقابل بعض الفوائد الإضافية ! .

فابتسمت زوجته فى عطف وربتت على يده من جديد . فعاد يقول لها :

ـ كما يبدو أيضاً أن الرجل العجوز كان محقاً حين قال لى : إن من يطرد «البركة» من أمام باب بيته . . فإنها تغادره إلى غير رجعة . . وتذهب إلى من يستحقها . . وهذا ما حدث معى بالضبط . . فلقد أردت أن أتظاهر بأننى لم أنجب أطفالاً حرصاً على مركزى بين عائلات المدينة . . فحكمت على الأقدار بأن أبقى بلا أطفال إلى نهاية العمر . .

وعادت زوجته للضغط على يده بحنان كأنها تواسيه وتخفف عنه وقع هذا العقاب ، لكنها فى نفس الوقت تذكرت ما قاله لها أبوها رجل القضاء القديم حين التقيا بهذه الفتاة الجميلة نفسها فى سوق المدينة بالصدفة خلال استعداداتها للزواج فصافحاها وتبادلا معها بعض المجاملات ، ثم غادراها إلى شأنهما فإذا بأبيها يقول لها فجأة :

ـ كم وددت لو كان لك ابنة مثل هذه الفتاة الجميلة تؤنس وحدتك لأن الإنسان حين يتقدم به العمر فإنه يحتاج دائماً إلى «عيون صغيرة» تتحرك من حوله . . وتخبره بأن الحياة لا تزال تمضى كما كان عهده بها قبل أن تقعده الشيخوخة . فلم تدر هى أيضاً هل زوجها من يحتاج إلى

عطفها وحنانها ليتخفف من أفكاره وأحزانه . . أم أنها هى من تحتاج إلى عطفه واهتمامه .

. . وانتهت هذه القصة الجميلة الآسرة . . التى لا أستطيع أن أقول إنها من تأليف الروائية الإنجليزية الشهيرة جورج إليوت أعظم كتاب عصرها فى انجلترا (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) كما لا أستطيع أيضاً من باب الأمانة الأدبية أن أزعم أنها من تأليفى ، لكننى أستطيع أن أقول بإخلاص ، إنها من «تأثرى» برواية الأديبة الإنجليزية مارى ايفانز التى كانت توقع أعمالها بهذا الاسم الأدبى المستعار . . جورج اليوت ! .

فقد قرأت هذه الرواية عدة مرات وأحببتها كثيراً وتأثرت بها وتوقفت خلال قراءاتى المتكررة لها أمام عبارتين ساحرتين من عباراتها ، فقررت أن أشركك معى فى الاستمتاع بهما . لكننى اتبعت فى ذلك أسلوباً غير مألوف فلقد نحيت الرواية الأصلية جانباً . . وهى بالمناسبة رواية «سيلاس مارنر» وهو اسم الرجل العجوز الوحيد فيها . ثم نحيت من ذاكرتى أيضاً كل خيوطها العديدة المتشابكة وأمسكت بهذا الخيط الإنسانى الذى مس قلبى ، وأهملت كل التفاصيل الأخرى واستسلمت لقلمى وهو يلاحق بحب وعطف وإشفاق هذين «الشيئين» الوحيدين فى الحياة وكل منهما تتشابك خيوط حياته بحياة رفيقه إلى أن أصبح كل منهما جائزة السماء للآخر وتعويضها له من حرمانه ووحدته ، وأحسست ـ عفواً ـ بشماتة لم أستطع كبح جماحها حين عجز الأب «المزعوم» عن استرداد ابنته التى أنكرها كل هذه السنين وتملت طرباً حين اختارت أباها الحقيقى . . وحبيبها البسيط وقالت للجميع

بوجدان سليم إنها لا تستطيع أن تحيا إلا بين من اعتادت أن تعيش بينهم! .

أما العبارتان اللتان من أجلهما فكرت فى أن أشركك معى فى الاستمتاع بهما فى هذه القصة . . فقد جاءت أولاهما على لسان ذلك الرجل العجوز ، حين قال للسيد المرموق :

ـ إنك حين تطرد «البركة» من أمام بابك فإنها تذهب إلى من يستحقها ولا تعود إليك مرة أخرى .

وأما العبارة الأخرى فلقد جاءت على لسان ذلك الأب المزعوم نفسه حين أدرك حقيقة هامة من حقائق الحياة بعد فوات الأوان فقال : إن هناك ديوناً لا نستطيع أن نسددها إذا تأخرنا عن أدائها فى الوقت الملائم.

ومن أجل هاتين العبارتين اللتين اهتز لهما وجدانى تجاهلت باقى خيوط القصة ، ورويت لك هذا الخيط وحده . . ومستعد لتحمل كامل المسئولية الجنائية إذا قاضانى ورثة الروائية الانجليزية الشهيرة بتهمة العبث باحدى رواياتها الخالدة أو الإساءة لسمعتها الأدبية فى بلاد العرب . لكنى أرجو فقط ألا تحرمنى من دعواتك بالبراءة إذا حدث ذلك فعلاً . . وشكراً .

١٢

تعساء.. ولكن أنانيون !

ليست القصة
فى حد ذاتها
هى التى استوقفتنى
رغم جمالها وصدقها
الإنسانى الفريد، لكنه هذا
«المغزى» المخيف الذى أرادت
أن تقوله لنا . .

فأفزعنى وأثار حيرتى لفترة . . أما القصة فعن لحظة مؤلمة من لحظات شقاء الإنسان المعذب بهمومه وآلامه منذ الأزل . . وأما «الألم» فهو فى قمته حين يستولى على المرء فيفقده الرغبة فى الكلام والحركة ومساعدة الآخرين ! .

فالطبيب الريفى الفقير الذى يعيش حياة بسيطة مع زوجته المريضة ، يواجه محنة قاسية هى مرض ابنه الوحيد بالدفتريا منذ ثلاثة أيام ، وقد أمضى الليالى الثلاث الأخيرة ساهراً بجواره يحاول بكل ما أوتى من علم وخبرة إنقاذه من الموت فلم تجد محاولاته شيئاً ونفذ السهم فى موعده وأسلم الطفل ذو الستة أعوام روحه بين يدى أمه المريضة البائسة وأبيه

المحطم . . فركعت الأم الحزينة على فراش ابنها صامتة لا تبكى ، ووقف الأب جامداً ينظر إلى طفله الراحل منذ لحظات وزوجته المريضة بلا حراك . . وفى هذه اللحظة المأساوية المؤلمة دق جرس البيت بعنف غير متوقع ، فلم ترفع الأم الحزينة رأسها المنحنى ، ولم يفكر الأب فى أن يغادر موقعه ليفتح الباب . . وعاد الجرس يدق بعنف أشد . . فتذكر الطبيب أنه لا أحد فى البيت سواهما ولا مفر من أن يفتح الباب بنفسه فتوجه ببطء وجمود إليه . . انفتح الباب فظهر رجل شاب يرتدى ملابس فاخرة توحى بثرائه وتشى ملامحه بالاضطراب واللهفة . . وقدم نفسه للطبيب ثم رجاه أن يذهب معه إلى بيته لعيادة زوجته التى هى فى حالة خطيرة .

فقد كانت ـ راح يحكى له ـ «تجلس معى ومع صديق للأسرة تشرب الشاى ونتحدث باستمتاع وفجأة صرخت زوجتى ووضعت يدها على قلبها ثم تراخت على ظهر المقعد . . فحملناها إلى فراشها ودلكنا وجهها بالكولونيا والنشادر . . لكنها لم تفق من إغمائها فهيا أسرع يا سيدى لتعالجها . . ومعى عربة فى انتظارنا » .

اعتصم الطبيب بالصمت طوال حديث الزائر المضطرب حتى بدا وكأنه لم يسمع مما قاله شيئاً ، وحين ألح عليه مرة أخرى فى الخروج معه . . بحث عن صوته حتى استطاع الكلام ثم اعتذر له بعدم قدرته على ذلك لأنه منذ خمس دقائق فقط قد مات طفله الوحيد! .

وارتبك الزائر الشاب ارتباكاً شديداً . . واعتذر عن مجيئه إليه فى وقت غير مناسب تماماً لطلب أية خدمة منه . . لكنه رغم ذلك تمسك بمطلبه

منه فى الخروج معه لإنقاذ زوجته لأنه ليس هناك طبيب آخر سواه فى هذه المنطقة . . ولابد مما ليس منه بد .

ولم يجد الطبيب الحزين أية جدوى فى مناقشة زائره . . فتركه فى بهو البيت وصعد إلى غرفة نوم طفله الراحل . . واقترب من الفراش فرأى زوجته لاتزال راكعة خافضة الرأس بلا نحيب . . ورأى الصمت يخيم على المكان . . ولم يبك أيضاً . . فقد كانت معاناته ومعاناة زوجته فوق البكاء . . فالطفل الذى رحل عن الحياة قد رحل معه أيضاً آخر أمل لهما فى الإنجاب . . فالطبيب فى الرابعة والأربعين من العمر . . لكن جفاف الحياة جفف نضارة الشباب فيه فبدا شيخاً فى الستين . . وزوجته فى الخامسة والثلاثين لكن المرض امتص رحيق شبابها . فذوت صحتها وجمالها . وفى صمت أبلغ من كل كلام أدرك كل منهما فى أعماقه أن ابنهما الراحل لم يكن فقط طفلهما الأول . . بل والأخير أيضاً .

وبغير هدف غادر الغرفة مرة أخرى وهبط إلى بهو البيت ففوجىء بالزائر الشاب مازال فى انتظاره كأنما كان قد نسى أمره فى هول أحزانه . . وتعجله الشاب الخروج معه . . فكرر عليه قوله إنه لا يستطيع ترك زوجته وحيدة فى الليل إلى جوار طفلها الراحل . . فراح الزائر يتوسل إليه للخروج معه . . ويناشده باسم الإنسانية أن يذهب معه لإنقاذ زوجته .

فأجابه الطبيب ذاهلاً : وباسم هذه الإنسانية نفسها أرجوك أن تتركنى فى حالى . . فأنا لم أنم منذ ثلاث ليالٍ ولا أكاد أقوى على الوقوف ولا أصلح لأى شىء الآن .

لكن هيهات أن يدعه الزائر الشاب لشأنه . . فقد راح يلح عليه فى الخروج معه . . واحتد الموقف بينهما فى بعض اللحظات حين ذكره الشاب بقانون الطب ومسئوليته عن نجدة المرضى ، ثم تراجع عن حدته وقال له إنه لا يستدعيه فى هذا الوقت المؤلم لعلاج ألم عارض فى الأسنان وإنما لإنقاذ حياة زوجة شابة تحتضر . . فإذا كان ابنه الطفل قد مات منذ دقائق . . فمن غيره يستطيع أن يفهم مأساته ويقدرها ! .

ولم يؤثر التهديد فى الطبيب البائس . . لكنه تأثر فقط بالمناشدة الأخيرة . . فتحرك وارتدى معطفه وأحضر حقيبته وغادر البيت فى ظلام الليل مع الزوج الشاب . راحت العربة تنهب الأرض فى طريقها إلى فيللا الزوج الشاب أو قصره الصغير ، وبعد وقت عصيب وصلا إلى البيت . . ودخلا بهوه الفخم . . فترك الزوج الطبيب فى الصالون وصعد السلم مسرعاً إلى غرفة نوم زوجته وهو يقول للطبيب فى اضطراب : لو حدث لها شىء فلن أستطيع الحياة . . وجلس الطبيب صامتاً يتأمل الصالون الذهبى الفاخر والبيانو الأثرى الكبير والثريات الثمينة التى تتدلى من السقف . . فلم تمض دقائق حتى رجع الزوج الشاب إلى الصالون ولاحظ الطبيب رغم همومه أنه «ليس الرجل» الذى صعد السلم ركضا منذ لحظات . . فقد اختفت من وجهه علائم الارستقراطية والترفع التى لم تفارقه حتى وهو يتوسل للطبيب للحضور معه . . وحلت محلها ملامح متهدلة منكسرة بائسة . وبصوت متحشرج اقترب الزوج من الطبيب وهو يمسك بورقة فى يده ويقول له : خدعتنى ! خدعتنى ! لم تكن مريضة . . ولم تفاجئها نوبة قلبية كما ادعت أمامى وإنما تظاهرت

بذلك لأسرع إليك . . فتهرب هى مع صديقى الذى تركتها فى رعايته . . الخائنة .

وطفرت الدموع من عينيه . . فراح يذرع الصالون فى خطوات عصبية وهو يقول للطبيب كأنما يحدث نفسه : : ماذا فعلت لها حتى تخدعنى بهذه الطريقة القذرة ؟ .

ففوجىء الطبيب يسأله وكأنما لم يسمع شيئاً مما قيل :

ـ عفواً ولكن أين المريضة؟ .

فصرخ الزوج الشاب وهو يضحك ويبكى فى وقت واحد وقال :

ـ المريضة ؟ . . ليست هناك مريضة لقد دبرت كل شىء مع صديقى الخائن ودفعانى للذهاب إليك ليهربا ، فامتلأت عينا الطبيب بالدموع فجأة وتلفت حوله فى تعجب ثم قال :

ـ لكن ابنى مات وزوجتى تعانى فجيعتها فى البيت وحدها وأنا لم أنم منذ ثلاث ليال فكيف يشركاننى معهما فى هذه اللعبة القذرة ؟ .

فراح الزوج يبث الطبيب «بلواه» وينعى على نفسه أنه لم يلاحظ من قبل كثرة زيارات صديقه الغادر له فى البيت . . ويتساءل فى ألم . . وماذا كان يمنعها إذا كانت قد أصبحت لا تحبه من أن تصارحه بذلك ويفترق كل منهما بشرف بدلاً من هذا الخداع الحقير ؟ .

ثم ، يلتفت إلى الطبيب والدموع تملأ عينيه وجسمه كله يرتعش ويقول له : إنك شاهد على «مأساتى» إننى أقسم لك بأننى قد أحببت

هذه المرأة من كل قلبي ونفسي وضحيت من أجلها بأهلي ووظيفتي وكل شيء . . فانظر كيف كانت عاقبة حبي وتضحيتي من أجلها ؟ .

كان الزوج يتحدث عن بلواه في صدق وحرارة متوقعاً أن يشاركه الطبيب مأساته فإذا به ينتفض فجأة في غضب ويقول له :

ـ لماذا تقول لي كل ذلك ؟ . أنا لا أريد سماعه ولا أريد معرفة أسرار حياتك الشخصية المبتذلة ، لماذا جئت بي إلى هنا ؟ . إذا كنتم من الرفاهية تتزوجون ومن الرفاهية تركبكم الشياطين فتختلقون هذه الخيانات والمآسي فما دخلي أنا بكل ذلك ؟ . افعلوا بحياتكم ما تشاءون ولكن إياكم والسخرية بكرامة الناس ! .

وذهل الزوج الشاب لرد فعل الطبيب المفاجىء وسأله باندهاش عن معنى كلامه هذا . . فانفجرت ثورة الطبيب المكلوم أشد عنفاً وراح يواصل هجومه العنيف على الشاب وطبقته المرفهة و«آلامها» المفتعلة . . ويشتد غضبه حين يقاطعه الشاب مدافعاً عن نفسه بأنه لم يسخر من آلامه كما يتهمه ، لأنه هو أيضاً إنسان تعيس مثله فيضحك الطبيب باحتقار «ساخراً» من هذه التعاسة المزعومة التي لا تقاس بتعاسة التعساء الحقيقيين في الحياة ، ويتأزم الموقف بينهما إلى أقصى حد حتى ليكادا يتضاربان بالأيدي وتبلغ الأزمة قمتها حين يضع الشاب أتعاب الطبيب على المائدة فيقذف بها الطبيب على الأرض رافضاً هذه الإهانة الجارحة ، ثم يقف كل منهما في مواجهة الآخر ويروح في سورة الغضب يكيل للآخر الإهانات الظالمة وقد تكشفت في كل منهما «أنانية التعساء

. . فالتعساء أنانيون ، شريرون ، ظالمون ، قساة القلوب ، وأقل من الحمقى قدرة على فهم بعضهم بعضاً ، ذلك أن التعاسة لا تجمع بين الناس بل تفرقهم ، وحتى في تلك الأحوال التي يخيل إليك فيها أن تشابه البلوى ينبغي أن يربط بين الناس فإنه قد يقع في هذه الأحوال بين التعساء من الشرور والمظالم ماهو أكثر بكثير مما يقع في أوساط الهانئين»! .

وينتهي الموقف أخيراً بمغادرة الطبيب لبيت الزوج الشاب الذي كلف أحد خدمه باصطحابه بعربته إلى منزله . . وطوال الطريق لم يكن الطبيب يفكر في طفله الراحل ولا في زوجته الحزينة المريضة ، وإنما في ذلك الشاب وفي زوجته وصديقها الذي هربت معه . . وفي تلك الحياة اللاهية التي يعيشها أمثال هؤلاء المرفهين ، وكانت أفكاره كما يصفها الأديب العظيم كاتب هذه القصة انطون تشيكوف . . قاسية . . وظالمة بصورة لا إنسانية . . فقد ظل طوال الطريق يمقتهم ويحتقرهم . . بلا نهاية ! .

هذه هي القصة الفريدة التي شغلتني أياماً طويلة عقب قراءاتها ليس فقط لعبقرية نسيجها . . ولا لصدقها الإنساني المؤلم إلى حد الفزع . . وإنما أيضاً بسبب ما أرادت أن تهمس لنا به من أسرار جديدة للنفس البشرية ربما لم يضع أحد إصبعه عليها في حدود علمي قبل تشيكوف ! .

ولقد لخصت هذه «الهمسة» المؤلمة فيما حرصت على تسجيله حرفياً من كلمات القصة التي تتحدث عن أن التعساء أنانيون وشريرون وقساة وظلمة . وأن التعاسة لا تجمع بين الناس وإنما تفرق بينهم ، وعن أنه



حتى فى حالة تشابه البلوى فإنه قد ترتكب بين أصحاب البلاء المشترك فظائع عديدة أكثر بكثير مما يقع فى أوساط السعداء والهانئين! .

فهذا هو بالتحديد ما أفزعنى منها وأدار رأسى . . فنحن نقول دائماً إنه لا يشعر بآلام الآخرين ويقدرها حق قدرها إلا من عانى مثلها وخبر من قبل لسع الألم ونقول كثيراً مع الشاعر العربى : إنه «لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا يعرف الحزن إلا من به ألم»

ونقول أيضاً مع الشاعر الآخر «والمصائب يجمعن المصابين» ونستشهد على ذلك بما نراه فى واقع الحياة من مسارعة المبتلين القدامى إلى شد أزر المبتلين الجدد الذين ينضمون حديثاً إلى دولتهم وبما نلمسه أيضاً من رقة قلوبهم لأى ألم إنسانى يصيب الآخرين من بعدهم . . ومن عطائهم النفسى والوجدانى لأمثالهم من التعساء والمبتلين لكن هذا الأديب العبقرى أنطون تشيكوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) يصدمنا برأى آخر مخالف تماماً لكل ذلك ويقول لنا إن التعساء «أنانيون» لأنهم مشغولون بمعاناتهم الشخصية عن الاستعداد لتقدير آلام الآخرين أو العطاء لهم . وأن قسوة آلامهم تجفف منابع العطف على الآخرين داخلهم .

وقد أفزعنى هذا الرأى كثيراً وكاد يغير من بعض آرائى السابقة . . لكن بعد تفكير عميق انتهيت إلى أن ما يقوله تشيكوف قد يكون صحيحاً وله ما يبرره لكنه فى النهاية حال وجدانية مؤقتة وليست دائمة ولا أبدية ، فالتعساء قد يكونون كما وصفهم الأديب العظيم بأنهم أنانيون وقساة وظلمة للآخرين ولكن فى لحظة الذروة فقط لألم غير محتمل وفى قمة معاناتهم لقسوة الألم المشتعل بهم منذ لحظات ينشغلون عن كل

شيء فى الحياة بهذه الآلام الناشبة فى أجسامهم ولحومهم .. ولا يستطيعون فى قمة هذه المعاناة القاسية أن يعطوا من أنفسهم للآخرين أو يستمعوا إليهم أو يتعاطفوا معهم ويقدروا آلامهم .. بل إنه ليس من العدل أصلاً أن نطالبهم وهم فى ذروة آلامهم بأن يقدموا للآخرين أى عطاء ومن أى نوع ، تماماً كما لا يكون من العدل أن تطالب من تشتعل النار فى ملابسه ويصارع لهيبها بأن يشترك فى إخماد حرائق الآخرين ولم ينجح بعد فى إخماد الحريق المشتعل فيه هو نفسه .

نعم .. قد يكون التعساء أنانيين وقساة كما يقول لنا تشيكوف .. ولكن فى لحظات قمة الألم الإنسانى وحدها ولحظات اشتعال اللهيب فى قلوبهم ومشاعرهم ، أما حين تهدأ النيران بعد حين .. فهم كما كنت أعتقد وسوف أظل أعتقد دائماً .. أكثر الناس إحساساً بآلام الآخرين واحتراماً لها .. واستعداداً للمشاركة فى تخفيفها والعطاء لأصحابها والتعاطف معهم .

فهذا هو منطق الحياة رغم عبقرية هذه القصة المؤلمة .. وعبقرية كاتبها الأديب العظيم أنطون تشيكوف ! .

١٣

أشجان بائع جوال !

كالباعة الجائلين ..
كان يطوف الشوارع
يحمل حقيبة كبيرة ..
ويطرق أبواب البيوت
يعرض بضاعته ..
ويمهل المشترين فى
أداء الثمن ..

وككثيرين غيره من الباعة كان غريباً عن البلدة جاء من بلده البعيد وراء رزقه وترك وراءه عبر الحدود زوجة وطفلة صغيرة تطول السنوات قبل أن يستجمع إرادته ويعود لزيارتها شهرا كل عامين أو ثلاثة أعوام .

وبين الأسر التى يتردد عليها عرف دائماً بالطيبة والزهد فى المساومة وعدم المغالاة فى الأسعار ، فتوثقت روابطه بها .. لكنه كان يخص بيت هذا «السيد» بحب خاص .. ليس فقط لدماثة طبعه وكرم أخلاقه وإنما أيضاً لأن له طفلة صغيرة أحبها كثيراً ونشأت بينه وبينها صداقة عجيبة ، فكان يعود إلى بيتها كل يوم أحياناً ويضع حقيبته ويجلس على الأرض فتأتى إليه الطفلة متهللة ويقدم لها قطع الحلوى ويلاعبها

ويضاحكها لوقت طويل . . ثم ينهض حاملاً حقيبته سعيداً وراضياً ، وتوجست الأم من نوايا هذا البائع تجاه ابنتها خاصة وهو عملاق فارع الطول ، لكن زوجها طمأنها إلى أنه رجلٌ طيب وحيد له طفلة فى مثل عمرها فى بلاده البعيدة . . ولعله يتعزى عن افتقاده لها بهذه اللحظات البريئة التى يلاعب فيها طفلتها ، ولم يحل الأب دون استمرار هذه الصداقة الحميمة بين البائع العملاق وطفلته ، فدامت وتوثقت .

وكان من عادة البائع الجوال كلما اقترب موعد عودته إلى بلده أن يتفرغ فى الأيام السابقة للسفر لجمع ديونه لدى زبائنه . . ورغم انشغاله فى هذه الأيام الحافلة بالعمل فقد كان يجد دائماً بعض الوقت ليأتى إلى بيت السيد ويجلس أمام الباب وينادى الصغيرة ليلعب معها ويعطيها ما أحضره لها من حلوى ، وربما حدثها بما اشتراه لابنته وسوف يحمله إليها عند سفره . . وقد يشكو لها أحياناً من مماطلة بعض الزبائن فى سداد ديونهم ، والصغيرة لا تفهم لكنها تضحك فى ابتهاج فيضحك لضحكها فى سعادة ورضا . .

وذات يوم سمع السيد صوت ضجة كبيرة فى الشارع وخرج من بيته ومعه طفلته فرأيا البائع العملاق يمسك به شرطيان وثيابه ملوثة بالدم وفى يد أحد الشرطيين سكين ، واستفسر السيد عن القصة فعرف أن البائع الجوال قد ضاق بإنكار أحد مدينيه لدينه عليه ففقد أعصابه وطعنه بالسكين . .

وانقطع البائع الجوال عن الحضور إلى البيت والنداء على الطفلة الصغيرة ، ومضت السنوات ، ثم فوجىء السيد ذات أصيل بالبائع

يطرق الباب ويدخل عليه محيياً ، ورحب به السيد طويلاً وعرف أنه قد أمضى ثمانى سنوات فى السجن ، ثم اعتذر له بأن فى البيت حفلاً يقام هذا المساء ، وسوف يأتى مدعوون كثيرون ورجاه أن يعود إلى زيارته فى يوم آخر . . وشكره البائع العملاق واستدار لينصرف . . لكنه توقف عند الباب وقال له فى تردد :

ـ ولكن ألا أستطيع يا سيدى أن أرى «الصغيرة» ولو للحظة لقد أحضرت لها قطع الحلوى التى تحبها فهل تسمح لى بلقائها لحظة واحدة؟ . وتنبه السيد فجأة إلى حقيقة غريبة هى أن هذا البائع العملاق مازال يعتقد أن ابنته هى نفسها تلك الطفلة الصغيرة التى ستجرى إليه ضاحكة وهى تترقب ما سوف يعطيه لها من حلوى . .

وتأمل المفارقة متعجباً . . فالطفلة الصغيرة تستعد فى هذه اللحظة للزواج والليلة هى ليلة زفافها . . وهو يود ألا يجرح مشاعر هذا الرجل الذى خرج إلى الحياة بعد سنوات من عزلة السجن وهو يعتقد أن الحياة خارجه قد بقيت على عهدها عندما انفصل عنها . . وفكر أن يدعو ابنته لرؤية صديقها القديم لكنه تحرج من أن يعطلها ذلك عن زينتها وشأنها فقال له بحزم :

ـ عندنا اليوم حفلة كبيرة . . ولن تستطيع أن تراها . .

فنكس البائع العملاق رأسه . . وانصرف صامتاً وحزيناً وأحس الأب بالرثاء له . . وبالأسف لأنه لم يحقق له رغبته البسيطة وقال لنفسه لائماً:

ـ ماذا لو كنت قد أسعدته بتحقيق هذه الرغبة الصغيرة ! . وهم بأن يخرج وراءه ليناديه . . فرآه يعود إليه من تلقاء نفسه وهو يقول له فى خجل :

ـ عفواً . . لقد أحضرت هذه الأشياء للصغيرة . . فأرجو أن تعطيها لها . .

ومد له يده بلفافة الحلوى . . فتناولها السيد وحاول أن ينقده ثمنها لكنه رفض ذلك بإصرار وهم بالانصراف ، فاستبقاه السيد واستدعى ابنته لترى صديقها القديم . . فجاءت فى ثوب الزفاف الأبيض ، وذهل البائع العملاق حين رآها شابة جميلة تستعد للزواج ، وأفاق على حقيقة أخرى مفاجئة هى أن ابنته التى تعيش خلف الحدود لابد قد أصبحت الآن فتاة شابة فى مثل عمر هذه الفتاة . . فهما متماثلتان فى العمر . . وهو لم يرها منذ ثمانية أعوام ونظر إلى «صديقته القديمة» وقال لها ضاحكاً ومرتبكاً :

ـ إذن لقد أصبحت عروساً . . وستذهبين الآن إلى بيت زوجك ! . .

فاحمر وجه الفتاة خجلاً . . وزفر البائع الجوال زفرة طويلة كأنما يقول بها لنفسه . . ما أسرع ما تمضى أمور الحياة ، وقال الأب لابنته العروس إن صديقها القديم قد جاء لها بالحلوى التى كانت تحبها وهى طفلة صغيرة وقدم لها اللفافة فتناولتها باسمه وشكرت البائع وعادت إلى الداخل ، فلم يتمالك البائع مشاعره وجلس على الأرض مستسلماً لتأملاته

وأشجانه ، وراح يحاول أن يتخيل كيف أصبحت ابنته البعيدة فى بلاده الآن ويفكر فى أنه لابد أن يتعامل معها الآن بطريقة أخرى غير طريقته فى التعامل معها وهى طفلة صغيرة .

وبدأت موسيقى العُرس تعزف . . وشمس الأصيل تظلل المكان . . والبائع العملاق جالس على الأرض وهو غارق فى أفكاره ، ثم أفاق منها على يد السيد صاحب البيت وهو يهزه . . ويعطيه ورقة مالية كبيرة ويلح عليه فى قبولها ليستطيع أن يعود لرؤية ابنته فى بلده بعد كل هذه السنوات مؤكداً له أنه حين يسعد ابنته بزيارتها . . فإن ذلك سوف يجلب الحظ السعيد لابنته هو فى زواجها . . وتقبل البائع الورقة المالية بعد تردد طويل ونهض شاكراً السيد من قلبه ومتمنياً لابنته كل السعادة ، وانصرف فى خطوات بطيئة والسيد يرقبه بعطف ويقول لنفسه صحيح إنه سوف يضطر لاختصار بعض نفقات الحفل بسبب ما قدمه لهذا البائع من نقود . . وسوف يسخط ذلك زوجته وسيدات الأسرة ، لكن المؤكد أيضاً أن حفل زفاف ابنته سيكون أكثر بهجه لأنه فى مكان بعيد سوف يلتقى أب بابنته الوحيدة التى لم يرها منذ سنوات وسوف تسعد ابنة محرومة من أبيها بعودته إليها . . ولابد أن يلقى كل ذلك بضيائه الذهبى على حفل زفاف ابنته فيزيده تألقاً وبريقاً رغم اختصار بعض فقراته واستراح الأب لهذه الفكرة فنهض إلى الداخل . . فتلقت اذناه أنغام العرس وأحس لها بوقع أكثر بهجة عما كان عليه قبل لحظات . .

وصدق شاعر الهند العظيم «رابندرانات طاغور» (١٨٦١ ـ ١٩٤١)

فى ختام هذه القصة الجميلة حين أكد «السيد» لنفسه أن ما قدمه من مال ليمكن هذا البائع من رؤية ابنته الوحيدة بعد الغياب الطويل ، سوف يلقى ضياء البهجة والسعادة على حفل زفاف ابنته هو بالرغم مما اضطر إليه من اختصار نفقاته ، فالإنسان يسعد حقاً بإسعاد الآخرين ويحتمى بما يقدمه لهم ضد عثرات الطريق. وتقلبات الزمن وسهام الحاقدين .

أما قمة حسه الشاعرى .. فقد بلغها فى هذه الصورة الإنسانية الفريدة للبائع العملاق الذى غادر السجن بعد ثمان سنوات متوهماً أن الزمن قد توقفت عجلته عند اللحظة التى دخله فيها .. ففوجىء بأن الحياة لا تتوقف انتظاراً لأحد وأن دورة الأيام تطوى فى دورانها كل شىء .. فيكبر الصغار .. وتتغير المشاعر .. وتتبدل الأدوار ويجد الإنسان نفسه مطالباً دائماً بأن يحنى هامته للزمن ويسلم بما تجرى به المقادير ..

لقد عشقت دائماً شخصية شاعر الهند طاغور التى جمعت بين سمات المصلح العظيم وسمات الشاعر الحكيم .. لكنى منذ «اكتشفت» قصصه القصيرة وقرأتها أضفت إلى إعجابى بشعره وحياته افتتانى الشديد بإنسانية قصصه القصيرة التى تذكرنى دائماً بقصص «صديقى» القديم الأديب الفرنسى «جى دى موباسان» وأفكاره الإنسانية النبيلة ..

وقد رأيت أن أعرض عليك إحدى قصصه التى أحببتها كثيراً لعلك تشاركنى الإعجاب به .. فإن لم يتحقق ذلك .. فإنا آسف لتطفلى عليك وأعدك بألا أكررها مرة أخرى ! ..

١٤

أين المفر..؟

إنه مشهد واحد لا يتغير .. الحديقة الأمامية الصغيرة للبيت الذى تعيش فيه الأسرة .. ومع ذلك فلقد بدأت الأحداث .. وتأزمت .. وتعقدت وبلغت ذروة المأســاة فيه .

وفى الحديقة أريكة هزازة .. ومقعدان مريحان ، والبيت لرجل فى الستين من عمره يملك مصنعاً صغيراً للأدوات الميكانيكية ويعيش مع زوجته وابنه الشاب الذى يشاركه العمل فى المصنع ويعتبره مثله الأعلى فى الحياة .

واليوم يوم عطلة .. والشاب سعيد ينتظر فتاته التى أرسل إليها فى مدينتها البعيدة لكى تحضر وتمضى الأجازة مع الأسرة تمهيداً للزواج .. والأب موافق على اختياره وسعيد بسعادة ابنه ، فهو الإبن الباقى له فى الحياة ، أما الآخر الذى كان واعداً بالنجاح وتحقيق الآمال فقد جند فى

الحرب . . وعاد زملاؤه من الجبهة بعد انتهاء الحرب ولم يعد هو واعتبر مفقوداً ، وقد مضت الشهور والسنوات وعاد كثير من المفقودين ولم يعد ابنه . . ومع ذلك فأمه تصر على اعتباره على قيد الحياة وترفض بإصرار أن تقتنع بأنه لن يعود والأم عطوف تحب زوجها وتعطف عليه لأسباب مجهولة . . وتفتقد ابنها البكر الرزين بشدة ولا يخفف حبها لابنها الآخر من افتقادها له بل لعله يزيد منه ، فالصغير عاطفى وانفعالى وسريع التأثر وتتغلب عليه عاطفته عند تقويمه للآخرين حتى لتلومه أمه فى ذلك قائلة :

ـ أكلما تعرفت بإنسان تراه شخصاً مميزاً ؟

والأسرة تمضى فترة الصباح يوم العطلة فى الحديقة تشرب الشاى وتتحدث وتنتقل الأم بين الحديقة الصغيرة وبين البيت الذى لا نراه من الداخل أبداً ، وتجىء الفتاة الجميلة التى ينتظرها الإبن فتستقبلها الأسرة بحرارة . . ويسألها الأب عن أبيها وتسألها الأم عن أمها ، وترحب بها بمشاعر متضاربة . . فقد كانت خطيبة الابن المفقود منذ سنوات وهى الآن . . ضيفة الإبن الآخر وتراها بعض سيدات المدينة الصغيرة فى الحديقة المطلة على الشارع فيجئن لتحيتها ، فالفتاة ليست غريبة عن المدينة . . فلقد كانت تعيش فيها مع أبيها وأمها وشقيقها قبل سنوات . وكان الأب يعمل مديراً لمصنع والد فتاها ثم حدثت ظروف مأساوية ألقت بأبيها فى السجن واضطرت الأسرة للانتقال إلى مدينة أخرى بعد الفضيحة ، ففى فترة الحرب كان مصنع والد الفتى ينتج للجيش قطع موتورات الطائرات المقاتلة . ثم حدث خطأ بشع فى إنتاج كمية من هذه

القطع وتم تسليمها رغم عدم صلاحيتها للجيش وتم تركيبها فى موتورات طراز من الطائرات المقاتلة فترتب على هذا أن سقطت واحدة وعشرون طائرة فى القتال ومات طياروها الشبان ضحية لهذا الإهمال الجسيم . واعتبر والد الفتاة مسئولاً عن هذا الإهمال الجسيم . وقدم للمحاكمة وفى ساحة المحكمة دافع عن نفسه بأنه اكتشف عيوب القطع قبل التسليم واتصل بصاحب المصنع ليلة تسليمها فى الثالثة صباحاً وأبلغه به وسأله عما يفعله فأمره بلحامها وتسليمها ، ونفى صاحب المصنع هذا الاتصال فى المحكمة . . وشفعت له سمعته الطيبة وأعماله الخيرية فى تصديقه وفى استبعاد أن يكون قد فعل ذلك مضحياًبحياة شباب الطيارين الذين يلبون نداء الوطن . وأدانت المحكمة والد الفتاة وحكمت عليه بالسجن وشعرت أسرته بالخزى لفداحة الجريمة ولم تستطع أن تواصل حياتها فى المدينة الصغيرة فهاجرت منها .

ومضت ثلاث سنوات زارت فيها الفتاة أباها بانتظام فى السجن ورفض شقيقها زيارته استنكاراً لما فعل بأبناء بلده . . وبأسرته التى لطخها بالعار . . والآن جاءت الفتاة مستجيبة لنداء شقيق خطيبها المفقود . . وقبلت بواقعية أن ترتبط به وتتزوجه . . فلقد كان الشقيق الأصغر يحمل لها دائماً إعجاباً مكتوماً . . ولم يعد هناك الآن ما يحول دون أن يخرجه من صدره .

لكن الأم تعترض بشدة على زواجه من خطيبة شقيقه السابقة ويناقشها الإبن فى اعتراضها طويلاً ، فلا تتنازل عن موقفها .

وتعلن الفتاة أن شقيقها سيجىء بعد قليل لينضم إليها قادماً من زيارة لأبيه فى السجن . . أول زيارة منه لأبيه بعد موقف الاستنكار والتجاهل الذى كان يتخذه منه خلال السنوات الماضية .

ويجىء الشقيق بعد قليل ويرحب به الجميع . . لكنه يبدو عدائياً وجافاً حتى تجاه خطيب أخته الذى كان صديقاً قديماً له . فلقد غالب مشاعره تجاه أبيه واستجاب أخيراً لتوسلاته إليه لأن يزوره ليسمع منه دفاعه عن نفسه فزاره هذا الصباح فى السجن وأكد له الأب أنه مظلوم وقد أبلغ بالفعل صاحب المصنع بالكارثة فى الليل فأمره بلحام القطع المعيبة وأكد له أنها ستكون صالحة للاستعمال بلا خطر فنفذ أوامره . . لكنه تخلى عنه فى المحكمة حين وقعت الكارثة وقدمه كبش فداء لما حدث .

ويعلن الشقيق ذلك فيتعثر الأب وتضطرب الأم ، ويحاول الأب السيطرة على الموقف فيطلب من الشقيق أن يعرض على أبيه العودة للعمل فى مصنعه بعد الإفراج القريب عنه . . لكن الإبن يرفض إبلاغه بذلك ويظل عدائياً ويطلب من شقيقته أن ترحل معه عن بيت هذه الأسرة التى دمرت أباها وأسرتها ، فتفاجئه أخته بالرفض القاطع ويرحل الشقيق غاضباً . . ويغيب عن الحديقة الأب والإبن بعض الوقت فتطلب الأم من الفتاة أن ترحل عن بيت الأسرة لكيلا تجدد الأحزان . . وتثير الشقاق بين الأخوين حين يعود الإبن «المفقود» ذات يوم فيجدها زوجة لأخيه . . وترفض الفتاة الرحيل وتصارحها بأنها قد فقدت خطيبها الأول وفقدت الكثير بعد مأساة أسرتها ولهذا فلن تضحى بابنها الآخر ولن

تفرط فيه . . وتحتدم المناقشة بينهما . . فتخرج الفتاة من حقيبة يدهاخطاباً من ابنها الأكبر أرسله لها خلال الحرب يقول لها فيه : إنه قرأ فى الصحف خبر الحكم على أبيها فى قضية الإهمال الجسيم ويعرف عن ثقة أن أباه هو المسئول عنه ، بل إنه متأكد من ذلك وسوف يطير بعد لحظات من كتابة هذا الخطاب فى مهمة قتال بطائرته المركب فيها نفس القطعة المعيبة فإذا لم يعد منها فستكون طائرته قد سقطت كما حدث لزملائه . . ويطلب منها فى نهاية الخطاب ألا تنتظره وأن ترتبط بغيره إذا لم يعد .

وتدرك الأم أن الفتاة كانت تعرف من البداية أن أباها مظلوم ،لكنها تسلم بالأمر الواقع الذى لا تستطيع تغييره ، وبهذه الواقعية نفسها ترفض أن تغادر المدينة بلا زوج ولا بيت ولا أسرة جديدة تعوضها عما فقدته .

ويكتشف الإبن الذى يجىء فجأة الحقيقة . . ويدرك أخيراً سر إصرار الأم على اعتبار ابنها الأكبر حياً ويفهم لأول مرة معنى العبارة التى قالتها له من قبل : لابد أن يكون شقيقك حياً لأنه إذا كان قد قتل فسيكون أبوك هو الذى قتله ولأنه ليس هناك أب يقتل ابنه بيده ، إذن فلابد أن يكون حياً !

وينهار الإبن حين يتحطم أمامه المثل الأعلى لأبيه الذى أحبه حباً شبيهاً بالعبادة ، ويواجه أباه حين يرجع إلى مجلسه بالحديقة ويرفض

الأب أن يصدق أن ابنه قد قتل بنفس هذه الطريقة المؤلمة لأنه كان يتعلق بالأمل فى ألا يكون قد عمل على هذا الطراز من الطائرات .

فيجابهه الابن بالحقيقة المؤلمة ويقول له فى مرارة لكن الآخرين أيضاً كانوا أبناء لآباء آخرين . . يا أبى !

ثم يطلعه على خطاب ابنه لخطيبته ويعلنه بأنه سيهجره للأبد ، وسيغادر المدينة فينهار الأب ويعترف له بأنه كان معرضاً للإفلاس لو أهدر هذه القطع المعيبة ولم يسلمها ، وأنه كان ينوى أن يحذر الجيش منها بعد تسليمها فيتجاوزون عن هذا الخطأ ويمتنعون عن تركيبها فى الطائرات لأنهم كانوا يحتاجون إلى إمدادات مستمرة من مصنعه خلال الحرب لكن الأحداث سبقته ، وحين همَّ بتحذير الجيش علم بأنهم قد ركبوها فى الطائرات وانطلقت بها إلى ميدان القتال .

لكنه الآن قد عرف أنه قد أخطأ خطأ لا يغتفر حين تعلق بالأمل فى ألا يكون ابنه طياراً لهذا الطراز من الطائرات لكيلا يكون مسئولاً عن مصرعه ، فالآخرون أيضاً كانوا أبناءه تماماً كابنه المفقود ، بل القتيل بيده وما كان له أن يجازف بتعريض حياتهم جميعاً للخطر وينسحب الأب من الحديقة الصغيرة إلى داخل البيت . . وتقف الأم ترقب ابنها الحزين فى قلق بالغ لقد كانت تعرف الحقيقة منذ البداية . . وكانت إلى جوار زوجها فى الفراش حين اتصل به والد الفتاة فى الثالثة صباحاً ليبلغه بنبأ القطع المعيبة . . لكنها أشفقت عليه من مواجهة الحقيقة القاسية ، فأصرت رحمة به على اعتبار ابنها مفقوداً وليس قتيلاً حتى تخفف عنه عذاب ضميره ، ولم تشأ أن تتخلى عنه بعد أن فقدا ابنهما الأكبر ، وازداد احتياج كل منهما نفسياً وعاطفياً للآخر .

وفجأة يسمع الإبن والأم صوت طلقة رصاص من داخل البيت وتهرول الأم إلى الداخل ثم تخرج بعد لحظات باكية منهارة . لقد وقعت الكارثة التى حاولت تفاديها طويلاً وأطلق الأب مسدسه على رأسه . وينظر إليها الإبن ذاهلاً ويعرف ما حدث فيركع على الأرض منهاراً ويبكى بل يعوى عواء موجعاً باكياً أباه الذى أحبه دائماً منذ طفولته ، ويقول لأمه بين شهقاته : إنه لم يكن يقصد بلومه له وإعلانه أنه سيهجره أن ينتهى به المصير إلى هذه النهاية المؤلمة .

وتنتهى أحداث مسرحية «كلهم أولادى» للكاتب المسرحى الأمريكى أرثر ميللر . . ويظل الستار مفتوحاً عن مشهد الحديقة الصغيرة التى جرت فيها كل هذه الأهوال صباح يوم السبت من العاشرة صباحاً حتى الثانية بعد منتصف الليل ، ودون أن نرى البيت من الداخل أو نقترب منه .

وتبقى «الرسالة» التى أراد الكاتب العظيم أن يقولها لنا ترن فى الأسماع . . وهى أن الإنسان مهما حاول أن يخدع نفسه ويتعامى عن الحقيقة فإنها تظل تطارده إلى أن تنفجر فى وجهه كالقنبلة الزمنية فى أية لحظة . وبقدر ما نهرب من الحقيقة . . بقدر ما يكون انهيارنا أمامها نهائياً ، وبقدر ما تتضاعف الآلام والمشاكل حتى لنتمنى حين نجد أنفسنا أخيراً أمامها لو كنا قد وفرنا على أنفسنا عذاب الهروب والمطاردة وخداع النفس وواجهناها منذ البداية وتحملنا تبعات هذه المواجهة بشجاعة . فلا أحد يستطيع أن يتجاهل الحقيقة حتى النهاية . . ولا أحد ينجو من تبعات ماجنت يداه ذات يوم مهما طال الفرار ومهما كان ماهراً فى خداع نفسه . . وخداع الآخرين .

15

طائر كاسر !

إنها الحب طائر كاسر

يجول فى الغابة !

هكذا غنت الفتاة ساحرة الجمال وهى تمسك فى يدها بوردة حمراء . . تضعها فى فمها حين ترقص . .

وتمسكها بأصابعها حين تغنى . .

ومن حولها تلتف فتيات المصنع ويتهافت الشباب والجنود يخصونها بلفتة اهتمام خاصة .

لكن الجندى الشاب الذى يحرس المعسكر المواجه للمصنع يجلس هادئاً يصلح سلسلة ساعته الفضية ولا يبدى أى اكتراث بالفتاة الساحرة التى يتنافس زملاؤه الجنود عليها ، ولا غرابة فى ذلك فهو يحب فتاة وديعة حباً هادئاً قديماً منذ الصبا ،وأمه تحثه على الارتباط بها وهو يعتزم الوفاء بوعده لأمه بأن يتزوجها وينجب منها أطفالاً يتواصل بهم نسل الأسرة ،وفتاته طيبة هادئة الجمال لا تعرف الرقص أو الغناء ولا تلفت أنظار الآخرين إليها بفتنتها الساحرة كما تفعل تلك الفتاة غجرية

الجمال ، ولن تقدم له الحياة معها إلا رحلة هادئة فى نهر الأيام قد تخلو من المتعة اللاذعة التى تهبها مثل هذه الفتاة الغجرية لكنها ستخلو أيضاً بكل تأكيد من أشواك الغيرة وعواصف الشك .. وبراكين تقلب المشاعر ! لكن الفتاة الغجرية التى اعتادت أن تكون محور اهتمام الجميع أينما حلت تستاء لانصراف هذا الجندى البسيط عنها .. ويستفزها عدم اكتراثه بها .. فتبالغ فى الرقص والغناء وإظهار فتنتها أمامه ، وتدور دورة ساحرة ومن حولها الفتيات والجنود ثم تلقى إليه دون الآخرين وردتها الحمراء كأنها تتحداه أن يستطيع تجاهل فتنتها الطاغية أكثر مما فعل .. فيلتقط الوردة فى حرص ويخفيها فى سترته .

وتنتهى عاصفة المرح بانصراف الفتاة غجرية الجمال ومعها الجميع فى اتجاه المصنع الذى تعمل به فتيات القرية ، ويخلو الجندى الشاب إلى نفسه متسائلاً فى حيرة : ماذا تريد منه هذه الفاتنة التى يتنافس حولها الكثيرون ؟ إن مثيلاتها لا يعرفن الحب الذى يركز المشاعر والأحاسيس المخلصة حول شخص واحد إلى نهاية العمر .. فماذا تريد منه ؟

وفجأة سمع صراخ فتاة قادما ناحية المصنع وتعالى صراخ الفتيات الأخريات بعده وخرج ضابط المعسكر يستطيع الأمر .. فعرف أن تلك الفتاة الساحرة التى تفتن جنوده كلما ظهرت قد طعنت إحدى زميلاتها بمدية خلال مشاجرة عنيفة معها فكلف الجندى الشاب بإحضارها من داخل المصنع والتحفظ عليها حتى يتم إرسالها إلى سجن المدينة ، ويتجه الجندى إلى المصنع ويؤدى مهمته بانضباط ويعود مصطحباً الفاتنة المثيرة التى تبدو غير مكترثه بما حدث وترفض الإجابة على أسئلة الضابط

وتشرع فى الغناء والرقص من جديد متحدية الجميع باستهتار ، ويستشيط الضابط غضباً ويأمر الجندى بالتحفظ على هذه الشيطانة إلى أن يأتى رجال الشرطة لاصطحابها إلى المدينة ويدعها فى حراسته وينصرف .. ويجد الجندى الشاب نفسه أمام الاغراء وجهاً لوجه ، فهى تشع سحرها الغامض فى روحه رغما عنه .. وتخطر أمامه فى إغراء لا يحتمل رغم تقييد يديها من الخلف وتنفث همسها الساحر فى أذنيه :

ـ لماذا لا تدعنى أذهب إلى حال سبيلى .. وتقابلنى بعد انتهاء نوبتك فى الحانة البعيدة التى تعرفها ؟ إنك تؤدى واجبك كل يوم بأمانة .. لكن ماذا تعرف من متع الحياة الحقيقية ؟ إنك مقيد بالقيود مثلى الآن أو أكثر .. فأنت مقيد بمواعيد للنوم والاستيقاظ والطعام والعمل وبآلاف القيود الأخرى .. فلماذا لا تجرب حياة الحرية .. والحب والمتعة بلا حدود ولا قيود .

وتنهار مقاومة الجندى الشاب أمام إغراء الفاتنة التى لا تقاوم ، فيفك قيودها ويصل الجنود الذين أرسلهم الضابط لاقتياد المتهمة فى نفس اللحظة .. فتسرع بالفرار وتثبت تهمة تسهيل فرارها على الجندى المكلف بحراستها .. ويصدر الضابط أمراً بالقبض عليه .

لقد انتهت فى لحظة مشحونة من حياته مرحلة الالتزام الحرفى بالأوامر والاتزان والتعقل والرصانة ، وبدأت مرحلة أخرى لا يعرف ماذا سوف تحمل له الأقدار فيها .

وفى الحانة البعيدة ظهرت الفتاة الغجرية بين زميلاتها ترقص وتغنى

وتثير الفتنة حولها فى كل لفتاتها وإيماءاتها . . ويأتى ضابط الحامية الذى أمر بالقبض عليها من قبل حين طعنت زميلتها . . ليس لمطاردتها هذه المرة وإنما ليخطب ودها . . فهو رجل فى النهاية وهى فتنة للأنظار لا يستطيع الرجال مقاومتها طويلاً . . والفتاة المطعونة لم تمت بطعنة المدية ولم تتقدم بشكوى ضد صديقتها الجامحة . . وانتهى الأمر عند هذا الحد . . لهذا فهو يلح عليها فى أن تخرج معه بعد انتهاء السهرة فى الحانة . . لكنها ترفض تودده وتصارحه أنها «تحب» وتنتظر من أحبته ، ولا تلين لرجائه حتى حين يبلغها بأنه قد أطلق سراح الجندى الشاب من أجلها ، وينصرف الضابط يائساً ويدخل الجندى العاشق الحانة فتهرع إليه الفاتنة مرحبة ويغرق الاثنان فى مشاعر الحب حتى يفيق الجندى على صوت بوق يأتى إلى مسامعه من بعيد يذكره بانتهاء لحظات السعادة التى لم يعرفها قلبه من قبل . . إنه نداء العودة للمعسكر ولابد من الاستجابة إليه . . وتوديع هذه الفاتنة الطاغية إلى حين .

لكن الفاتنة التى عاشت حياتها كالطائر البرى الذى يطير حين يحلو الطيران . . ويحط حين يحلو له الهبوط . . لا تعرف معنى لأن يفترق حبيبان لمجرد سماع صوت بوق نحاسى بعيد . . ولا تعرف معنى أن يعيش الإنسان حياته مقيداً بكل هذه القيود . . إنها طائر كاسر . . يحوم فى المساء كيفما يريد ويتبع هواه وغرائزه إلى حيث تقوده . . لابد أن يكون حبيبها مثلها . . فلماذا يجيب هذا النداء الكريه؟

وتطالبه الفتاة بحسم بألا يعود إلى المعسكر هذه الليلة وتقول له : إذا كنت تحبنى حقا فاتبعنى إلى حيث حياة الحرية فى الجبال ! ويواجه



الجندى الشاب الاختيار الصعب لأول مرة فى حياته . . بين نداء العودة والواجب والقيود ، ونداء الحب والمتعة والحرية بلا حدود ، ويحسم تردده عودة الضابط إلى الحانة وغضبه حين رأى الفتاة الساحرة تفضل هذا الجندى الساذج عليه . فيأمر الجندى بالانصراف إلى معسكره بجفاء شديد ، وتستيقظ روح التمرد لأول مرة فى قلب الجندى الشاب ويرفض ويقف بعناد ويشتبك الاثنان فى عراك عنيف ، يسفر فجأة عن مصرع الضابط ! ويقف الجندى مذهولاً مما تردى إليه حاله خلال لحظات قليلة ، ويفيق من ذهوله على صوت الفتاة الغجرية حاملاً إليه بداية مرحلة أخرى من حياته لم يعد هناك مجال للتراجع عنها :

الآن لم يعد هناك مفر من أن تتبعنى . . إلى النهاية !

فيحنى رأسه ممتثلاً . . ويتبع فتاته إلى حياة الحرية والحب بعد أن أصبح خارجا على القانون .

وفى الجبال تتكشف له حياة فتاته على طبيعتها . . إنها وزميلاتها وزملاؤها يحترفون السطو على البضائع والتهريب . . ولا يعرفون من الحياة إلا المتعة اللاذعة فى كل شىء .

لكنه مسحور بفتنتها الطاغية وجمالها الوحشى إلى مالا نهاية فيشاركهم أعمالهم بعد أن أصبحت حياته السابقة ماضياً يتعذر الرجوع إليه .

ويجىء إلى الجبال بعد شهور مصارع ثيران مشهور سبق أن رأى الفتاة الفاتنة فى الحانة ، وتمنى أن يصادقها لكنها انصرفت عنه حين كانت مشغولة القلب بفتاها الشاب .

ويسأل عنها المصارع زميلاتها ويقول لهن :

ـ سمعت أنها قد وقعت فى غرام أحد الجنود . . لكن حبها فيما أظن لا يدوم أكثر من ستة أشهر !

وكان حدسه صادقاً بالفعل فالطائر الكاسر لا يطيق البقاء فى مكان واحد لفترة طويلة . . ولقد فترت عاطفة الفتاة الغجرية تجاه الجندى البسيط بعد شهور من إقامته معها ، وغلبتها طبيعتها الجامحة فبدأت المشاحنات الصاخبة بينهما وكلما اختلفا حول شىء قالت له : إذا كانت حياتنا لا تلائمك فلماذا لا تعود إلى أهلك ؟ .

ولكن كيف يعود إلى أهله وقد تغير مجرى حياته وتخلى عن واجبه وقتل رئيسه . . وباع شرفه من أجل هذه الفتاة متوحشة الجمال ؟ إنه مازال يحبها ولا يستطيع الابتعاد عنها . . ولا مفر أمام العاشق الذليل من الرضوخ والتجاوز عن الإشارات الجارحة .

وتأتى فتاة القلب الجامحة . . وتتهلل لرؤية مصارع الثيران الشهير الذى تتهافت عليه الفتيات الأخريات ، لقد استنفدت قصتها مع الجندى البسيط فصولها . . وتاقت نفسها المتمردة إلى حياة الإثارة والمغامرة من جديد . . فأهلاً بالحب مرة أخرى مع مثل هذا المصارع الوسيم الشهير . .

وتنهش الغيرة قلب الجندى الجريح فيحاول الفتك بمصارع الثيران ، لكن الفتاة المعبودة تتدخل بينهما . . وينهى المصارع الموقف بدعوتها لمشاهدة حفله القادم فى المدينة .

وينصرف مؤثراً السلامة وتتجه الفتاة إلى إحدى زميلاتها التى تستطلع الحظ بأوراق اللعب وتطلب منها أن تكشف لها عن مستقبلها . . وتخلط زميلتها أوراقها ثم تستطلع حظها مرة بعد مرة فلا يكشف لها الطالع فى اثنتى عشرة مرة متتالية سوى عن شىء واحد يرصدها هو الموت !

وفجأة يجد الجندى الشاب الفتاة البريئة التى كان يرتبط معها بمشاعر الحب الهادىء منذ الصبا أمامه فى المنطقة الجبلية الوعرة . . لقد جاءت تناشده العودة إلى أهله رحمة بأمه المريضة التى توشك على أن تودع الحياة . . ويتردد الجندى الشاب فى الاستجابة لنداء العودة ولكن الفتاة الغجرية تحثه على الذهاب لرؤية أمه فيشتم فى كلامها رغبتها فى التخلص منه . . فيزداد إحساساً بالجرح والإهانة ويغادر الجبال عائداً إلى أهله .

أما فتاته الغجرية . . فتطيح بأوراق اللعب فى الهواء متحدية نبوءة الموت وتعلن للجميع أنها ستعيش وستطول حياتها من أجل حبيبها الجديد . . مصارع الثيران .

ويأتى موعد حفل مصارع الثيران بعد أيام . . ويزدحم الملعب عن آخره بالجمهور . . وتعزف الموسيقى أنغامها المبهجة . . وتدخل عربة مصارع الثيران الشهير إلى الساحة وهو يقف فوقها بملابسه المزركشة الجميلة ملوحاً بيديه للجمهور ، وإلى جواره الغجرية الفاتنة فى فستان مثير تتيه فخراً بحبيبها الشهير الذى تتعالى صيحات الجماهير إعجاباً به .

وتتوقف العربة فى منتصف الملعب . . وينزل منها المصارع الرشيق فى

كبرياء جميل . . ويمد يده ليساعد فتاته على النزول وتتجه الفاتنة إلى أحد جوانب الملعب فى حين يتوارى المصارع خلف أحد الحواجز ليبدل ثيابه . . وفجأة يظهر الجندى الشاب مقترباً من الفتاة الغجرية التى غيرت مجرى حياته وأذاقته كؤوس المتعة والعذاب ويتوسل إليها فى ذل وخضوع أن تعود إليه ويبدآ حياتهما معا من جديد . . ولكن الفتاة تضيق بتذلل حبيبها السابق إليها وتصارحه بحزم بأنه لا أمل لهما فى العودة مرة أخرى فلقد انتهى كل شىء بينهما ! .

ويتعالى صياح الجمهور حين يدخل المصارع المشهور الحلبة وتتوالى صيحات الطرب والإعجاب الجنونى مع كل لفتة من لفتاته . . وتقف الفتاة الغجرية ترقب فارسها الجديد وهى تتيه طرباً بإعجاب الجمهور به ، وتنهش الغيرة قلب الجندى الشاب فيفقد آخر خيوط سيطرته على نفسه ، ويستل مديته ويطعن بها فتاة القلب الغادر فتصرخ صرخة مدوية وتسقط مضرجة بدمائها . . فلا يحاول الفرار من جريمته . . وإنما ينخلع قلبه حين يرى فتاته تتهاوى أمامه على الأرض ويلقى بنفسه فوق جسدها وينخرط فى بكاء مرير طويل وهو يردد بين شهقاته وزفراته :

ـ كارمن . . يا معبودتى !

ويسدل الستار على أوبرا «كارمن» الشهيرة المقتبسة عن قصة الروائى الفرنسى بروسبير ميرميه-التى تدور أحداثها فى أشبيلية بأسبانيا حوالى عام ١٨٣٠ ، وقرأها الموسيقى الفرنسى جورج بيزيه ففتن بها وصاغ ألحانها ليصنع منها واحدة من أشهر أوبرات العالم وأخلدها .

ويتصرف المشاهدون واحداً وراء الآخر من صالة أوبرا باريس العريقة مساء ذلك اليوم من أيام نوفمبر ، وأبقى أنا فى مقعدى ذاهلاً عما حولى .. ورافضاً مغادرة هذا العالم السحرى الذى سلبنى إحساسى بالزمان والمكان وأسرنى بأنغامه وموسيقاه وأصواته السماوية ثلاث ساعات أو أكثر إلى أن سمعت فجأة صوتاً نسائياً يقول لى فى أدب :

ـ من فضلك يا سيدى .

فالتفت تجاهه وأنا مازلت جالساً فى مقعدى مجهداً من الانفعال والتصفيق الحار لفترة طويلة فوجدت طابوراً من الرجال والسيدات يقف إلى يمينى منتظراً تحركى من مقعدى لكى يجد طريقه إلى باب الخروج فانتفضت واقفاً ومتعثراً فى خجلى وغادرت القاعة وسؤال حائر يتردد فى خاطرى ويهمس لى قائلاً :

ـ ترى من هى سيئة الحظ أو سيىء الحظ الذى سيواجه من جديد لحظة الاختيار القاسية هذه بين قيود الحياة والتزاماتها الخلقية والاجتماعية ، وبين نداء السعادة الطاغية التى تحول دونها القيود والمتعة اللاذعة التى تحيى النفوس الخامدة من ركودها فتنهار مقاومته أمام النداء .. ويتبع الطائر الكاسر إلى حيث الحرية فى الجبال . وتطول متعته أو تقصر .. ثم يفيق منها فجأة فإذا بالطائر الذى خسر من أجله حياة الكرامة والأمان .. والسلام قد حلق بعيداً عنه فى الفضاء البعيد .. وحط على مرمى النظر منه فوق رأس جبل آخر .. وهيهات أن يستطيع الصعود إليه .. وهيهات أن ينزل عنه طائره الجموح عائداً إليه مهما توسل له أو استعطفه .

اللهم .. سترك للجميع .. يا كريم !

١٦

كلام « بالعقل » !

تخيل نفسك وأنت تجلس فى عربة من عربات هذا القطار وتتابع عن قرب ما يجرى فيها .

لقد توقف القطار فى إحدى المحطات فصعدت إلى هذه العربة سيدة بدينة فى منتصف العمر ترتدى معطفاً خفيفاً وترفع ياقته حتى تكاد تغطى معظم وجهها ، وصعد وراءها رجل ضئيل الجسم عطوف يبدو من حدبه عليها واهتمامه براحتها أنه زوجها ، فأفسح الركاب الخمسة مكاناً للسيدة وزوجها وجلس الزوج ثم شكرهم لذلك ، والتفت إلى زوجته فثنى ياقة المعطف التى توارى وجهها وقال لزوجته برقة : كيف حالك الآن يا عزيزتى؟ فازدادت الزوجة انكماشاً وجفولاً وأعادت ياقة المعطف إلى ما كانت عليه فأخفت بها عينيها عن باقى الركاب .. ولم تجب على سؤاله .

وأحس الزوج بأن من واجبه أن يقدم للركاب الآخرين تفسيراً لانزواء

زوجته وجفائها، فنظر إليهم مبتسماً ثم قال : إن زوجته تستحق الشفقة لأن ابنها الوحيد الذى كرسا له حياتها إلى حد أن هجرا بلدتها وراءه إلى العاصمة حين التحق بالجامعة قد سمحا له بالتطوع فى الجيش بناء على إلحاحه على أمل أنه سيقضى فترة تدريب طويلة قبل أن يذهب إلى الجبهة ، لكنه فاجأهما (أمس) ببرقية تقول إنه سيغادر العاصمة إلى جبهة القتال غداً ويطلب توديعهما قبل سفره . . ومنذ هذه اللحظة تضاعفت أحزان الأم التى بدأت منذ ثلاثة أشهر عند تطوعه . . وهرولا معاً لرؤية وحيدهما قبل أن يسافر إلى المجهول .

وتبادل الركاب نظرات التعاطف مع الزوج . . أما الزوجة فقد أخفت عينيها خلف ياقة المعطف وغرقت فى قلقها وهمومها . . فقال لها أحد الركاب مهوناً عليها الأمر :

ـ اشكرى ربك يا سيدتى . . فإن حظك أفضل من حظى فلقد ذهب ابنى إلى جبهة القتال منذ اليوم الأول للحرب . . وعاد منها جريحاً مرتين . . ورغم ذلك أعادوه إليها للمرة الثالثة .

ولم تلق كلمات الرجل أى صدى لدى الأم الحزينة . . ولم تلتفت إليه . . أو تجبه بكلمة . فقال مسافر آخر :

ـ وماذا عنى أنا ؟ إن لى ابنين فى الجبهة الآن . . كان الله فى عون الجميع .

واستمع الزوج لما قال باهتمام ثم قال بعد تردد : نعم كان الله فى عون

الجميع . . لكننى أظن أن حالنا أصعب . . لأنه ابننا الوحيد ولا أبناء لنا غيره . فأجابه المسافر بمرارة :

ـ وما الفرق بين ابن واثنين ؟ إن الحب الأبوى ليس رغيف خبز يُقسم بالتساوى بين الأبناء ، وإنما يعطى الأب كل حبه لكل ابن من أبنائه دون تمييز ، فإذا كان لى ابنان فى الجبهة فهذا لا يعنى أن أقاسى «نصف الخوف» على كل منهما . . وإنما يعنى أننى أقاسى الخوف كله على كل واحد منهما وهكذا فإنى أعانى ضعف ما تعانى منه وليس نصفه كما تتصور .

وتنهد الزوج مرتبكاً ثم قال : صحيح ما تقول . . ولكن دعنا نفترض أن أباً له ابنان فى الحرب وفقد أحدهما فإنه يبقى له بعض العزاء وهو ابنه الآخر .

وهم بأن يواصل حديثه فقاطعه المسافر قائلاً فى انفعال :

ـ بعض العزاء ؟ . إذا كنت تقصد أنه سوف يبقى له ابن يعيش من أجله ، فإن ذلك ليس وضعاً أقل إيلاماً له كما تتصور ، لأن الأب إذا فقد ابنه الوحيد فإنه يستطيع أن يموت وراءه ويتخلص من عذابه ، أما والد الاثنين فإنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا «الامتياز» لأنه سيضطر لأن يحيا من أجل الآخر ويقاسى العذاب ما بقى له من عمر وهكذا فإن حالك أفضل من حالى . صدقنى ! .

ومال الزوج لتأييد المسافر تعاطفاً معه ، لكنه قبل أن ينطق بكلمة قال فجأة راكب آخر بدين بغير مقدمات :

ـ هذا كلام فارغ ! .

وتطلع إليه الركاب فى دهشة فواصل حديثه قائلاً برباطة جأش :

ـ نعم كلام فارغ . . إذ هل نحن ننجب أولادنا لكى نستمتع نحن بهم فقط دون النظر لرغباتهم ومشاعرهم وعواطفهم ؟ . إن أولادنا يأتون إلى الحياة لأنهم يجب أن يأتوا إليها ، وهم ليسوا فى الحقيقة ملكاً لنا وإنما لأنفسهم ، وحين يبلغ الواحد منهم سن الواحدة والعشرين فإنه يتصرف كما كنا نتصرف نحن فى سنهم . . وقد كان لكل منا أب وأم لكن حياتنا كانت مزدحمة بأشياء أخرى عديدة إلى جوارهما . . كالبنات والملابس الأنيقة وتدخين السجائر والأصدقاء . . والتطلعات . . وكان هناك الوطن أيضاً الذى لو تعرض للخطر لكنا لبينا نداءه وتطوعنا للقتال دفاعاً عنه مهما كان اعتراض الأب والأم على رغبتنا ، كما يفعل أبناؤنا الآن . . ونحن الآن كآباء نحب أبناءنا . . وأبناؤنا يحبوننا لكن حبهم لبلدهم أكبر . . فلماذا لا نقدر لهم هذه المشاعر ونتعالى على أحزاننا حين يتركوننا لتلبية نداء الوطن ؟ . إن أبناءنا يقومون عنا بهذا فى سنهم وهم حين يموتون فى سبيل ذلك فإنهم يموتون سعداء راضين عن أنفسهم وعما فعلوا . . ثم لماذا لا نتحدث بالعقل ونزن الأمر بحكمة ؟ .

دعونى أسألكم أولاً ماذا يخيف الإنسان من الموت ؟ إن الإنسان إذا مات وهو شاب سعيد فإنه يرحل عن الدنيا وهو لم يعان شيئاً من مرارة الحياة ولا شرورها ولا إحباطاتها . . فأى حظ أفضل من ذلك نتمناه لأبنائنا ؟! . إن من يمت ابنه شاباً سعيداً بريئاً من كل الشرور يجب أن

يضحك كما أضحك أنا الآن ! وأن يشكر ربه على هذا الحظ الطيب كما شكرته أنا حين مات ابنى فى الحرب منذ شهور ! لأنه أرسل إلى قبل أن يموت يقول لى إنه راض عن نفسه وسعيد بأن حياته سوف تنتهى خير نهاية تمناها لنفسه، لهذا حين جاءنى خبر موته لم أبك ولم أولول ولم أستسلم للحزن ولم أرتد عليه ملابس الحداد كما تروننى الآن فى ملابسى هذه ! .

وتركزت عليه أنظار الركاب باهتمام وعطف . . وتحركت الزوجة فى مقعدها قليلاً ومالت للأمام لتتابع حديثه عن ابنه وهو يروى للحاضرين كيف سقط بطلاً فى المعركة وكيف مات ، وأرسلوا إليه أشياءه الصغيرة فى لفافة يعتز بها . ولأول مرة منذ التحق ابنها بالجيش قبل ثلاثة أشهر تجد بعض الكلمات طريقها إلى عقلها وقلبها فتخفف عنها بعض همومها بعد أن فشلت كل محاولات زوجها وأقاربها للتسرية عنها . ولأول مرة لا تتهم من يحاولون التسرية عنها بأنهم لا يقدرون مشاعر الأم . . وتحس بأن من حاولوا التخفيف عنها لم يكونوا مخطئين . . وإنما هى التى كانت مخطئة لأنها لم تستطع أن تسمو إلى مستوى هؤلاء الآباء والأمهات الذين يقبلون بشجاعة وبغير بكاء وعويل ليس فقط فكرة انتقال الأبناء إلى مواقع الخطر بل وموتهم أيضاً . . كما يفعل هذا الأب الشجاع !

وأرخت ياقة معطفها لأول مرة فظهر وجهها . . وتطلعت إلى وجه الأب المحتقن بالاحمرار ثم فجأة وجهت إليه حديثها وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله :

ـ هل حقاً مات ابنك يا سيدى ؟ .

وانتبه إليها الركاب الذين كانوا يتابعون الأب الشجاع باستغراق شديد ورحب الزوج فى قرارة نفسه بمشاركة زوجته فى الحديث واعتبرها بشيرا بتحسن حالتها النفسية بعض الشىء . والتفت إليها الأب البدين ونظر إليها باسماً فى ثبات للحظات وفتح فمه ليجيب على سؤالها . . فلم تخرج منه الكلمات .

وأعاد مرة أخرى محاولة الإجابة على سؤالها . . فخانه صوته . . ثم انكمشت الابتسامة فجأة . . وتقلصت ملامح وجهه بشكل مخيف ، ووضع يده فى جيبه وأخرج منديلاً . . ثم فجأة انفجر فى بكاء مؤلم وعويل يمزق أوتار القلوب وهو يخفى وجهه فى منديله . . وجسمه البدين ينتفض بشدة مع كل شهقة ألم . كأن سؤال الأم العابر قد وضعه فجأة أمام الحقيقة المرة التى حاول أن يتجاهلها ! .

وانتهى السطر الأخير من قصة «الحرب» القصيرة الخالدة للأديب الإيطالى لويجى بيراندللو (١٨٦٧ ـ ١٩٣٦) والتى شككت فى صحة نسبتها إليه وأنا أقرأ صفحاتها الأولى وظننتها فى البداية من ذلك النوع الأجوف من الأدب الدعائى الذى يظهر فى أوقات الحروب ويموت بانتهائها ، إلى أن وصلت إلى نهايتها العبقرية فأدركت عميق فهم هذا الأديب العظيم للنفس البشرية . وعرفت أننى أمام نموذج فريد من نماذج الأدب الذى تحس بعد أن تقرأه أنك قد أصبحت أفضل منك قبل قراءته وأكثر فهماً للنفس الإنسانية . . وأكثر طيبة واستعداداً لتفهم آلام الآخرين والتماس العذر لهم . .

وهذه هى قيمة الأدب العظيم فى إثراء الوجدان وتغذية الروح . . أما ما عرفته أيضاً من هذه القصة الجميلة ومن قصص الحياة الأخرى فهو أن ما يساورنا دائماً من إحساس بأن هناك من هو أشجع منا وأقدر على احتمال الألم الإنسانى برباطة جأش وثبات عظيمين ليس غالباً سوى وهم كبير ، لأن الجميع أمام الألم سواء . . لكن قدرة البعض على الاحتمال تتفاوت حسب قدرتهم على التكيف معه أو مداراته . . أو التعزى عنه بما فى حياتهم من أسباب أخرى للتعويض والعزاء . والمشكلة هى أننا قد نصدق أحياناً من يتظاهرون أمامنا بقوة ليست حقيقية فيهم وبصلابة لا وجود لها فى أعماقهم ، تماماً كما صدق الركاب ذلك الأب المكلوم فى بداية حديثة برباطة جأش عن ابنه ، وتقريعه للآباء والأمهات على تهافتهم وضعفهم مع أبنائهم ، فنحس تجاههم بالنقص ونتمنى لو كانت لنا بعض شجاعتهم ، ثم لا تلبث التجربة أن تكشف عند أول اختبار عن بشر كالبشر يضعفون كما نضعف . . ويبكون كما نبكى فى مواقف الألم وما كانت شجاعتهم ولا لومهم للآخرين على ضعفهم فى الحقيقة سوى حيلة نفسية دفاعية ، تلجأ إليها النفس لا شعورياً فى بعض الأحيان حين تعجز عن حل صراعاتها أو مواجهة مشاكلها الأليمة مواجهة حاسمة ، فتلجأ إلى الحيل الدفاعية المعروفة كخداع النفس وإنكار الواقع والتبرير والإزاحة الخ .

وفى حالة ذلك الأب فى قصة بيراندللو . . فلقد كانت الحيلة الدفاعية التى احتمى بها مؤقتاً هى «التكوين العكسى» . . وهى حيلة نفسية يلجأ إليها الإنسان لا شعورياً حين يعجز على مستوى الشعور عن

مواجهة مشكلة مؤرقة له فلا يجد سبيلاً أمامه للهروب من مواجهة الحقيقة إلا بتكوين مشاعر عكس المتوقعة منه تماماً فى مثل هذه الحالة كأن يشتد الألم النفسى بإنسان ما لعجزه عن حل مشكلة ما . . وبدلاً من أن يعترف بفشله ويحزن لذلك بعض الوقت يعلن فجأة عن «سعادته» بأنه لم يتمكن من مواجهة تلك المشكلة لأن ذلك «أفضل» له . . وأكثر «بهجة» ! .

وفى أعماق كل منا ملامح من بطل هذه القصة الجميلة لكننا جميعاً فى انتظار أديب عظيم كبير كلويجى بيراندللو لكى يسقط عنا ورقة التوت فنرى أنفسنا عرايا على حقيقتها بلا خداع للنفس . . ولا حيل دفاعية أو هجومية ! .

١٧

بريق الكراهية!

ماتت أمها وهى طفلة
وهاجر أبوها وانقطعت
أخباره . .
فلم يعد لها
فى الحياة سوى عمتها
الطيبة وابنها
الوحيد . .

وتولت العمة تربية ابنة أخيها مع ابنها الذى شب ضئيل الجسم معتل الصحة قمىء الشكل ، وحين بلغت سن الصبا طلبت منها عمتها أن تتزوج ابنها . فلم تعترض ، وكيف تعترض وهى أمها الحقيقية . . وابن عمتها وإن لم تكن تحبه فهو عطوف ويحبها . وهكذا تزوجته وحاولت أن ترضى عن حياتها . وانتقلت الأسرة الصغيرة إلى العاصمة وعمل الإبن موظفاً بإحدى المصالح الحكومية .

واشترت الأم بكل مدخراتها محلاً صغيراً للملابس واستأجرت شقة صغيرة فى نفس الشارع الضيق الذى يقع فيه المحل ، واستقرت حياة الأسرة فى المدينة وأصبح لها أصدقاء يجتمعون فى صالون الشقة مساء كل

خميس ويمضون معاً سهرة سعيدة . وكان من بين الضيوف الدائمين زميل للزوج فى عمله ، دعاه ذات يوم فأعجبته الصحبة وواظب على جلساتها الأسبوعية . وكان الصديق شاباً وسيماً قوى الجسم ممشوق القوام يهوى الرسم فلفت أنظار الزوجة شبه المحرومة منذ اللقاء الأول ، ولفتت هى نظره بجمالها الوديع . ولم يمض وقت طويل حتى بدأت خيوط الحب تجمع بينهما وبدآ يتلاقيان فى شقة الصديق البوهيمى ، وتواصل اللقاء ومع تصاعد حرارته يوماً بعد يوم تمكن الحب من قلبيهما وبدآ يضيقان باللقاءات المختلسة ويحلمان بأن يجمع بينهما عش واحد إلى الأبد . ولكن كيف يتحقق ذلك والزوج القمىء لن يفرط فى زوجته التى لم يعرف امرأة سواها طوال عمره . واتفق الاثنان على التخلص منه ، وذات أصيل خرج الثلاثة فى نزهة بقارب فى النهر . . وفى اللحظة الحاسمة قلب الصديق الذى يجيد السباحة القارب وأغرق الزوج الذى قاومه طويلاً وعضه فى عنقه عضة تركت فيه أثراً غائراً ، ثم حمل الزوجة وسبح عائداً بها إلى الشاطىء . وفجعت الأم فى ابنها الوحيد وخيم الحداد على حياتها وحياة الأرملة الشابة ، ولم يتخل الأصدقاء عن الأسرة فى محنتها فراحوا يواسونها ويمضون سهرة الخميس معها كل أسبوع . وأحست الأم «بعرفان» شديد للصديق «المخلص» الذى حاول جاهداً إنقاذ ابنها من الغرق إلى حد تعريض حياته للخطر كما رَوَت لها أرملة ابنها . وتوقفت اللقاءات الخاصة بين العاشقين نهائياً خلال فترة الحداد حتى لا يلفتا الأنظار إليهما ، وبدأت الأسرة تسلو بعض أحزانها . . ولاحظ الأصدقاء إخلاص الصديق «المضحى» للأم وربيبتها الحزينة . .

فتساءلوا لماذا لا تحاول هذه الأم أن تضمد جراحها وتشجع هذا الصديق المخلص على الزواج من أرملة ابنها فتكسب به إبناً آخر يعوضها عمن فقدت ويعيش معها ومع ابنة شقيقها فى نفس الشقة ؟ وتشجع الأصدقاء بعد عشرة شهور من حادث الإبن وحدثوا الأم بأفكارهم ، فرحبت بالفكرة وتساءلت : ومن أحب إلى ممن كاد يغرق وهو يحاول إنقاذ ابنى ؟، وتعهدت لهم «بإقناع» ابنة شقيقها بأن تسمو فوق «أحزانها» وتتقبل الأمر بروح واقعية! وترفض الأرملة الشابة الفكرة فى البداية بعنف مصطنع . . لكن العمة لا تسلم باليأس وتطالبها بإعادة التفكير فى الأمر ، ثم بعد تردد محسوب تقبل الزواج من صديق الأسرة ليس حباً فيه وإنما أمل فى ألا تحرم عمتها الحزينة من ابن جديد يملأ عليها حياتها الخاوية ! وتتحقق الخطة التى رسمها العاشقان بكل تفاصيلها بنجاح باهر . ويتم الزواج بعد عام من رحيل الإبن . . ويتلهف العاشقان اللذان حرما من اللقاء منذ الحادث الأليم لإشباع نهمهما المكبوت ، ويتم الزفاف فى احتفال صغير بالشقة يحضره الأصدقاء، ويدخل الزوجان نفس غرفة النوم التى كانت مخصصة للإبن الراحل، وكل منهما يتلهف على اللحظة التى سيخلو فيها بصاحبه ليفتك به حباً وعشقاً بلا نهاية . وتغلق الأم الباب عليهما وتذهب إلى غرفة نومها وهى تجفف دموعها، ويندفع كل منهما إلى أحضان الآخر فيفاجأ الزوجان بأن حاجزاً غريباً قد قام بينهما هو ذكرى الزوج الراحل وذكرياته فى غرفة نومه . . ويعجز الاثنان نفسيا وجسديا عن الاقتراب من الفراش الصامت فيمضيان الليلة جالسين بملابسهما الكاملة على

مقعدين متجاورين بلا نوم . . ولا كلام ، وفى الصباح يغادران غرفة النوم إلى مائدة الإفطار ويتلقيان تهنئة الأم وهما يتداعيان من قلة النوم والإرهاق العصبى ، ويستمر الحال هكذا بضع ليالٍ لا يجُرآن خلالها على الاقتراب من الفراش وينام كل منهما على مقعد دون أن يلمس الآخر . . ثم يتشجعان بعد أيام أخرى على الذهاب إلى الفراش فيناما فيه بملابسهما الكاملة كغريبين لا يقترب أحدهما من الآخر . وبعد شهور من زواجهما يتعانقان لأول مرة ولكن بلا متعة ولا روح . ويخيم الاكتئاب على حياتهما تماماً . وشيئاً فشيئاً يكتشف كل منهما أنه لا يتخلص من مخاوفه وهواجسه واكتئابه إلا حين يكون بعيداً عن الآخر . . فيطيل كل منهما فترات ابتعاده ويستقيل الزوج من عمله الحكومى ويستأجر شقة صغيرة ليتخذها مرسماً له ويحترف الرسم ، فيكتشف بعد قليل أنه يذهب إلى المرسم فلا يرسم شيئاً وإنما لينام فى أمان بعد أن عزَّ عليه النوم فى مسكن الزوجية . . ثم يرسم عدة لوحات لأشخاص مختلفين فيكتشف بعد قليل أنه لم يرسم سوى وجه واحد يتكرر مع بعض الاختلاف من لوحة إلى أخرى هو وجه صديقه الذى قتله ليتزوج زوجته فيمزقها جميعاً ويعترف لنفسه بأنه رسام فاشل .

وتتدهور صحة العمة الحزينة وتُصاب بالشلل وتفقد القدرة على النطق نهائياً فتترك المحل لابنة شقيقها وتمضى أيامها سجينة فوق المقعد المتحرك بالشقة الصغيرة . ويتعاون الزوجان الشابان على خدمتها ورعايتها بعطف وإخلاص غريبين كأنهما يكفران لها صامتين عما جنياه على حياتها . وتسعد العمة «بحنانهما» لكنها ترقب مشاحناتهما العنيفة

وتتابعها بعينيها وتعجز عن التدخل بينهما وعن فهم سر هذا الحقد المكتوم الذى يكنه كل منهما للآخر . ثم يفقد الاثنان السيطرة نهائياً على أعصابهما فيبدآن فى تبادل الاتهام بالتآمر على الزوج الراحل وقتله دون مبالاة بأمه المشلولة التى تسمع وترى ما يجرى أمامها وتكتشف لصدمتها الهائلة أنها إنما تعيش تحت رحمة قاتلى ابنها . ويستقر الفزع فى نفسها . . وتسكن الكراهية الصامتة للزوجين القاتلين فى عينيها .

وتنهار مقاومة الزوجة بعد فترة أخرى فتركع على ركبتيها أمام الأم وتعترف بكل شىء وتطلب عفوها عنها وغفرانها . . لكن نظرة الأم القاسية المتحجرة تؤكد لها أنها لن تصفح ولن تغفر أبداً . . وتواصل معنوياتها الانهيار بلا نهاية . . فتجد قدماها الطريق ذات يوم إلى حى الرذيلة بالمدينة لتمارس فيه عملاً تحتقره من أعماقها لكنها ترى نفسها جديرة به وتراه جديراً بمن كانت مثلها !

ويلاحظ زوجها كثرة خروجها وتغيبها عن المحل الصغير فيراقبها ذات يوم إلى أن يراها تقف فى أحد شوارع حى الرذيلة تعرض نفسها على المارة لقاء أجر ، فلا ينزعج لما رآه ويعود وهو يقول لنفسه : كلانا جدير بصاحبه . . فما وجه العجب ؟! .

ثم يبدأ فى مطالبتها بالنقود فتعطيه بلا مقاومة لأنها تعرف جيداً أنها لم تسقط إلى الحضيض من أجل النقود وإنما فعلت ما فعلت برغبة غير واعية فى أعماقها فى امتهان نفسها وتدميرها وعقابها على جريمة أفظع من هذا الهوان . وتكثر مشاجراتهما أمام الأم العاجزة . . ويفكر كل منهما

أكثر من مرة فى أن يتوجه للشرطة ويعترف لها بما فعل ويذهب إليها بالفعل ثم يتراجع فى اللحظة الأخيرة إشفاقاً على نفسه مما ينتظره من عقاب .

وتستقر الكراهية العميقة فى نفس كل منهما للآخر . . وتترسخ الكراهية الصامتة بلا حدود فى نفس الأم المشلولة الحسيرة ويتنفس المسكن الصغير هواء الحقد الثقيل طوال الوقت .

ثم يبدأ الشريكان السابقان فى التفكير فى أن يتخلص كل منهما من الآخر كما سبق أن فكرا معا فى التخلص من «العقبة» التى كانت تعترض طريق سعادتهما الموهوبة . وتجمع إحدى الأمسيات بين الثلاثة فى صالة الشقة . . فتلمح الزوجة زوجها وهو يضع لها السم فى كوب الماء الذى اعتادت أن تضعه بجوار فراشها وتشربه بمجرد أن تنهض من نومها فى الصباح ، واستدار الزوج فجأة فلمح زوجته تخفى فى ثيابها سكيناً كانت تعده لتقتله به وهو نائم !

وتنظر العمة الصامتة إليهما وتعرف أن النهاية وشيكة . .

وتترقب ما سيفعلان . . فإذا بكل منهما ينظر للآخر لفترة طويلة نظرة تجمع بين العتاب . . والتماس العذر . . وفهم الأسباب . . وينفجر الاثنان باكيين فى لحظة واحدة ويندفع كل منهما إلى أحضان الآخر ويواصلان البكاء طويلاً فى صمت وهما يفكران فى تلك الحياة القذرة التى عاشاها والتى سيعيشانها للأبد إن لم يضعا حداً لها الآن . . وبلا تردد . .

ويتفاهم الاثنان بالنظرات الصامتة . . فلقد أصبح كل شىء واضحاً . . والسعادة الآثمة التى سعيا إليها لم تتحقق وتحولت حياتهما إلى جحيم ، وانتهت القصة ولم يبق إلا إسدال الستار . ومدت الزوجة يدها للكوب الذى أعده لها زوجها وشربت نصفه وهو يتابعها «بعطف» لأول مرة منذ تزوجا ثم قدمته له فتناوله وشرب ما تبقى فيه وعيناه لا تفارقان عينيها ، وبعد دقائق هوى الاثنان على الأرض فتلاحما للمرة الأخيرة على الأرض ووقع وجه الزوجة على عنق زوجها فكان موضع شفتيها للصدفة المعبرة على أثر الجرح القديم الذى أحدثه زوجها الأول بأسنانه فى رقبة قاتله . ويتمدد الاثنان على الأرض تحت قدمى العمة المشلولة فاقدة النطق ، فتثبت عينيها اللتين تشعان بريق الكراهية القاتل على الزوجين المتداخلين فى عناقهما الأخير . ويظل المشهد الرهيب على هذا النحو حتى ظهر اليوم التالى إلى أن تأتى الخادمة التى اعتادت الحضور لتنظيف الشقة مرتين كل أسبوع وتفتح الباب بمفتاحها وتقف مذهولة أمام المشهد الكئيب .

وتنتهى هذه القصة البشعة التى لم يروها لى أحد من قراء بريد الجمعة فى رسالة ولم يحكها «لى» صديق وإنما حكاها لى بأسلوبه الممتع الروائى الفرنسى العظيم إميل زولا فى روايته الشهيرة «تريزا راكان» فتأكدت فور انتهائى من قراءتها من فكرة طالما راودتنى كلما انتهيت من قراءة قصة أو رواية أدبية خالدة ، وهى أن أعظم الأعمال الأدبية هو ما يشعر الإنسان بعد أن ينتهى من قراءتها بأن كاتبها كأنما كان «يحكيها» له وحده وليس لملايين القراءة معه . . وأنه يخصه بها ويسر إليه بأحداثها كما يفضى

الصديق إلى صديقه بقصة عاشها أو شهدها عن قرب .. ثم يطالبه بالتفكير معه فى مغزاها ومدلولها . وبعد أن قرأت هذه القصة أحسست كأن إميل زولا يقول لى شخصياً : ألست معى فى أن السعادة الحقيقية لا يمكن أن تتحقق إلا لمن يطلبها بوسائل شريفة ومشروعة وإلا لمن لا يحطم خلال سعيه إليها قلوب الآخرين وسعادتهم ولا يطأ فى طريقه لها قيمه الدينية والخلقية . . وإلا فإنه لن يعرف الراحة يوماً واحداً فى حياته ولن يجنى من محاولته الآثمة إلا الشقاء وتعذيب الضمير . . ثم الكراهية بديلاً عن الحب ؟

وأحسست أنى أقول له بنفس النغمة الهامسة التى سألنى بها هذا السؤال الحكيم :

معك يا سيدى للنهاية . . لكن من يسمع ومن يتعلم من تجارب الآخرين . . أو من مثل هذه الأعمال الأدبية العظيمة !

وما أكثر ما سمعت «أصوات» الأدباء العظام وهم يُسرون إلىّ بأسرار أعمالهم وأفكارهم . . وما أكثر ما أجبت على مثل تساؤلاتهم الحكيمة هذه بغير كلام !

١٨

حفلة حقد !

كانت السيدة تعيش
وحيدة بعد ترملها
دون أن تنجب ، فى مسكن
واسع فاخر مع خادمتين
شقيقتين تربيتا فى بيت
أبيها ، وصحبتاها إلى
بيتها حين تزوجت
وبعد أن ترملت .

والسيدة متوسطة العمر جميلة ورقيقة وثرية . . دولاب ملابسها مزدحم بالفساتين الغالية ، والمعاطف الفاخرة ، ولها فى حياتها الخاصة طقوس وعادات تحرص عليها . والشقيقتان عاطلتان من الجمال وفى سن مقاربة لعمر السيدة ، وعالمهما محدود بدائرة المطبخ وغرفة نومهما البسيطة وتلبية طلبات السيدة ورعايتها . وهما تحبان السيدة لرقتها معهما وعلاقتها الطويلة بهما . . وهما تكرهانها فى نفس الوقت كراهية عجيبة لأنها تملك كل ما حرمتا منه . . الجمال والثراء والعائلة العريقة والحب والأهمية !

وفى أصيل كل يوم تصحو السيدة من نومها القصير بعد الغداء فتدق

الجرس وتدعو إحدى الشقيقتين طالبة منها الشاى . . فتأتى به إليها وتتناوله ببطء فى فراشها . . ثم تنهض متكاسلة فتدخل الحمام وتعود إلى غرفة نومها ، فتجد الشقيقتين قد أعدتا لها ملابس الخروج الأنيقة وتتشاركان فى مساعدتها على خلع ملابس النوم وارتداء الفستان وتسريح شعرها ووضع المساحيق التى تزيدها جمالاً ، ثم تقدمان لها حقيبة اليد وتصاحبانها إلى باب المسكن لتخرج فى زيارة لإحدى صديقاتها أو للذهاب إلى المسرح أو السينما . . وتودعها السيدة باسمة وشاكرة وتغيب وراء الباب . فما أن تتأكد الشقيقتان من مغادرتها للبيت حتى تبدآن ما تسميانه «حفلة الحقد» اليومية على السيدة التى يعيشان فى كنفها .

ففى كل يوم تتقمص إحدى الشقيقتين شخصية السيدة فترتدى ملابسها وتنام فى فراشها وتدق الجرس وتطلب الشاى من «خادمتها» بلهجة أرستقراطية مفتعلة ، وتصدع الأخرى بأوامرها . . وتمضى المساء فى تلبية طلباتها ومساعدتها على دخول الحمام وخلع ملابسها ، وتدليك قدميها كما تفعلان مع السيدة الحقيقية ، حتى إذا حان موعد عودتها ، أسرعت السيدة المزيفة بخلع ملابسها وارتداء ملابس العمل ، وتقف مع شقيقتها بجوار الباب تستقبلان السيدة بخنوع واحترام بعد أن أفرغتا كل طاقتيهما من الحقد عليها خلال ساعات غيابها !

وفى اليوم التالى تتبادل الشقيقتان الدور فتنام الأخرى فى الفراش وتمضى شقيقتها المساء فى خدمتها .

وفى إحدى هذه «الحفلات» يكشف الحديث بين الشقيقتين أن

إحداهما قد أرسلت بلاغاً مجهولاً إلى الشرطة ضد رجل ظهر فجأة فى حياة السيدة وبدا من تصرفاتها معه أنها قد بدأت تميل إليه وربما تزوجته .

وكان الرجل هارباً من جريمة قديمة فأرسلت إحدى الشقيقتين بلاغاً للشرطة تكشف فيه أمره ، وأُلقى القبض عليه . وهرولت السيدة وراءه تسعى لمساعدته وتوكل محامياً كبيراً للدفاع عنه وقد كشفت المحنة عن عمق مشاعرها تجاهه فقررت أن تتبعه إلى أى مكان ينزل فيه لو حكم عليه بالسجن وتنتظر خروجه منه .

وكثر خروج السيدة للقيام بمساعيها للإفراج عن صديقها . . ووجدت الشقيقتان فرصا عديدة لممارسة هوايتهما فى الحقد عليها ووجدتا فى حزنها وقلقها على صديقها فرصة أكبر للشماتة فيها خلال هذه الحفلات ، وتتكرر أمسيات الحقد فيتضح من تطورات الأحداث فيها أن كلتا الشقيقتين تتنافسان على حب اللبان الشاب الوسيم الذى يورد اللبن للمسكن ، لكنه لا يعير إحداهما انتباهه مما يضاعف من كراهيتهما للسيدة التى وجدت من يحبها وتهتم بأمره ! ويتبين أيضاً أن علاقة الشقيقتين كل منهما بالأخرى من نوع علاقة الحب والكره الغريبة فكل منهما تحب الأخرى حب عبادة ولا تتصور حياتها بعيداً عنها وكل منهما تكره الأخرى فى نفس الوقت كراهية عميقة ولا أمل فى ذوبانها مع الأيام .

ويتصاعد «الحقد» على السيدة مع تكرار الحفلات فتبدأ الشقيقتان تخططان فى أحلام يقظتهما لقتل السيدة بلا أى دافع حقيقى لذلك وتقرران وضع السم لها فى فنجان الشاى الذى تشربه كل أصيل .

وتنهض السيدة الحقيقية من نومها فى أحد الأيام وتطلب الشاى كالعادة فتقدم لها إحدى الشقيقتين الفنجان المسموم . . لكن السيدة تتلقى مكالمة تليفونية مفاجئة تعرف منها أنه قد أفرج عن حبيبها وأنه ينتظرها فى مقهى قريب فتهرول لارتداء ملابسها وتخرج للقائه ناسية تناول الشاى ، وعلى الفور تبدأ الشقيقتان حفلة جديدة من حفلاتهما فترتدى إحداهما ملابس السيدة وتنام فى فراشها وبعد قليل تدق الجرس وتأتى «الخادمة» فتشير لها بترفع إلى كوب الشاى الموضوع فى مكانه و«تأمرها» بتقديمه لها ! وتحاول شقيقتها أن تنبهها إلى ضرورة إيقاف اللعبة الآن لأن الشاى مسموم ، كما تعرف من قبل لكن الأخرى تتمادى فى الدور حتى النهاية وتكرر نداءها لها باللهجة الأرستقراطية الآمرة : الشاى !

وتعاود شقيقتها تنبيهها لكن الأخرى كانت قد مضت بعيداً فى عالم الوهم فلا تتنازل عن أرستقراطيتها ولا عن المطالبة بالشاى فتنجرف الأخرى إلى اللعبة . . وتقدم لها الشاى . . فتتناوله وتموت ! وينزل الستار على المسرحية البديعة «الخادمات» التى كتبها الأديب الفرنسى صاحب الماضى الإجرامى العجيب جان جينيه والتى عرضت لأول مرة عام ١٩٥٢ فصورت أغوار النفس البشرية تصويراً مفزعاً .

لقد قرأت هذه المسرحية أكثر من مرة فتوقفت فى كل مرة أمام تبرير الشقيقتين الغريب لحقدهما على السيدة التى تعيشان فى كنفها وتترفق بهما فقد قالت إحداهما معلقة على ذلك :

نعم إنها تحبنا ولكن كما تحب مقعداً جميلاً من مقاعد مسكنها ثم تختم كلمتها بتعليق مرير فتقول :

ما أسهل أن يمتلىء الإنسان بالعطف إذا كان جميلاً وثرياً ! كأنها تريد أن تقول لنا : إنه لا فضل لمن كان جميلاً وثرياً فى أن يكون عطوفاً !

وهو منطق فاسد بالطبع لأن الجميل الثرى قد لايكون عطوفاً ولأن المحروم من الجمال والثراء قد يفيض عطفاً ورقة مع الآخرين لأنه يملك ماهو أهم من الثراء والجمال الظاهرى وهو جمال الروح وطيبة القلب والنفس السوية التى تفطر على حب الآخرين والأمل فيهم إلى أن تثبت لها التجربة غير ذلك .

ولقد تذكرت هذه المسرحية التى قرأتها منذ خمس عشرة سنة حين شاهدت منذ فترة قصيرة فيلم الحارس الذى لعب بطولته النجم الأمريكى الشهير كيفين كوستنر فلقد وجدت قصته تدور حول مطربة أمريكية شهيرة ومحبوبة وثرية ثراءً فاحشاً تتلقى تهديدات بالقتل فتستعين بحارس شخصى لحمايتها ، وتتواصل خطابات التهديد فتحمل إليها فى كل مرة جملة واحدة مخيفة هى : «أنت تملكين كل شىء»! أى أنها تملك الجمال والشهرة والمال وحب الجماهير ، ولابد أن من يهددها لا يملك شيئاً من ذلك ، ويرى فى ذلك سبباً كافياً لأن يحقد عليها ويسعى لقتلها ، مع أنه لن ينال جمالها ولا شهرتها ولا حب الجماهير لها إذا فعل ذلك ، وبعد أحداث مثيرة طويلة يكتشف الحارس الشخصى فى النهاية أن من دبرت كل محاولات قتل هذه النجمة الشهيرة هى شقيقتها التى تلازمها كظلها وتعيش معها وتنعم بثرائها ، لكن الحقد ينهش قلبها كل لحظة وهى تراها دائماً متألقة . . متوهجة . .

. . وتدور الحياة فى بيتها وعملها حول محورها هى . . والجميع كالأقمار التابعة التى تدور حول النجم الساطع !

وتنهار الشقيقة فى النهاية وتعترف للحارس الشخصى بمسئوليتها عما فعلت فينظر إليها فى رثاء وأسف ولا يتكلم فتقول له من خلال دموعها :

لم تسألنى لماذا فعلت . . ما فعلت ؟

فيجيبها بازدراء بأنه لا حاجة له بسؤالها عن السبب ، لأنها قد أوضحته فى خطابات التهديد العديدة وهو أن شقيقتها . . تملك كل شىء !

ومع أنه ليس سبباً عادلاً لأن يحقد إنسان على آخر إلا أنه قد يسهم فعلاً فى تفسير دوافع بعض صغار النفوس الذين يرون فى سعادة الآخرين مبرراً كافياً للحقد عليهم ، مع أن هؤلاء الآخرين لم يغتصبوا شيئاً منهم . . ولم يعترضوا طريقهم للسعادة . . ولربما كانوا بعد كل ذلك غير سعداء بما يتوهم الآخرون سعادتهم فيه فضلاً عن أن زوال أسباب سعادتهم . . لن يضيف إلى حياة الآخرين شيئاً وربما أشقاها !

ترى كم «حفلة حقد» يقيمها البعض كل يوم ويبددون فيها من الطاقة النفسية ما لو وجهوه إلى عمل مفيد لحياتهم لنالوا بعض أو كل أسباب نجاح الآخرين وسعادتهم ؟

وترى كم حفلة أخرى تمادى الآخرون فى أداء أدوارهم فيها حتى اختلطت عندهم الحدود فالتهمهم حقدهم وراحوا ضحايا لأحقادهم على غيرهم . . تماماً كما راحت تلك الخادمة البائسة ضحية لحقدها على سيدتها فى مسرحية جان جينيه العجيبة هذه ؟

١٩

اكشف ظهرك !

فقد ذاكرته فجأة

فى ظروف عصيبة

وهو بعيد عن أسرته فضاع فى الزحام . وجد نفسه بلا ماض ولا ذكريات . .

ولا هوية . .

فمن هو ؟

ومن أين جاء . . وإلى أين يتجه . . وماذا يحب فى الحياة وماذا يكره ومن هم أصدقاؤه وأعداؤه ؟ لا يعرف . . ذاكرة بيضاء كأنه مازال جنيناً فى بطن أمه لم يخرج للحياة بعد ، وشخصية ملساء بلا علامات كأنها صفحة بيضاء لم تكتب تجارب الحياة فيها سطراً واحداً .

ولكن هذه السيدة الأرستقراطية الثرثارة تلتقى به مصادفة وتعرف قصته وتقرر أن تستضيفه فى بيتها ، وتساعده فى التعرف على نفسه وأسرته . . ليس إشفاقاً عليه ولا إعجاباً بوسامته وشبابه وإنما طمعاً فى أن تحصل من أسرته التى لابد أنها تبحث عنه على مكافأة كبيرة فى المستقبل . . وبعلاقاتها الاجتماعية العديدة تصطحبه إلى الحفلات . .

وصالونات الأسر الراقية وتجمع بينه وبين شخصيات المدينة الهامة وعائلاتها عسى أن يعرفه أحد أو يتذكر هو شيئاً يبعث ذاكرته من العدم .

وأسر المدينة تتلهف على رؤية الشاب المجهول والتعرف عليه ، فكثير منها فقدت بعض أبنائها فى الحرب الأخيرة . . والأمل يراود الجميع أن يكون هذا الشاب المجهول هو الإبن المفقود . . والسيدة الأرستقراطية ترفض أن تسلم باحتمال أن يكون الشاب ابنا لأسرة فقيرة . . وتأبى السماح للأسر البائسة التى سعت للتعرف عليه برؤيته وبحسها المادى تتجه به إلى أغنى أسرة فى المدينة التى فقدت ابنا لها فى الحرب منذ بضع سنوات وتقدمه إليها فتصدق توقعاتها . . وتخفق قلوب أفراد الأسرة بالانفعال الصاخب عند رؤيته . . إنه هو فعلاً وما أجمل أن يعود إلى أسرته وأمه وبيته بعد الغياب . لكن الشاب يتصفح وجوه الأم والإخوة وزوجة الأخ فلا تثير لديه أية انفعالات كأنها لم يرها من قبل أو التقى بها .

وتتمسك الأسرة بالفرصة الذهبية التى أتيحت لها وترفض السماح له بالانصراف فى صحبة السيدة الأرستقراطية ، ويحاول أفرادها عبثا إقناعه بأنه واحد منهم . . ويتفننون فى محاولات إحياء ذكرياته القديمة . . فيحدثونه عن أحداث الطفولة . . وأصدقاء الصبا . . ويصطحبونه إلى غرفة نومه الخالية ويتحايلون عليه ليمضى ليلته فى فراشه ويحيطونه وهو نائم بكل الأشياء التى اعتاد رؤيتها قديماً فى غرفته الخاصة ، لكى يفتح عينه فى الصباح فيجد نفسه فى بيئته السابقة ، فتصحو ذاكرته من

نومها ، ويصحو الشاب فى اليوم التالى ، فلا يتوقف عند شىء له دلالة خاصة وتمعن ذاكرته فى النسيان .

ويحس الشاب بعد قليل بالجهد المخلص الذى يبذله كل من حوله لإحياء ذاكرته ، فيبذل جهداً صادقاً لمعرفة هذا الماضى المجهول ، ويروح يستجوب أفراد الأسرة والخدم عن وقائع هذه الحياة التى يقولون له : إنه عاشها بينهم من قبل ويلح فى السؤال حين يبدو على البعض التردد أو الحرج فى الإفضاء إليه ببعض الأحداث والوقائع ، فتجيئه الإجابات كالصدمات المتوالية ! .

يا إلّهى . . هل هو حقاً هذا الشاب الذى يحكون عنه ؟ هل هو الشاب الذى تشاجر ذات مرة مع أقرب أصدقائه بسبب تنافسهما على جمال خادمة الأسرة ، فدفع صديقه من أعلى السلم لينفرد باغتصابها ، وسقط الصديق فى الهاوية وكسر عموده الفقرى وأصيب بالشلل التام بقية حياته ؟

وهل هو حقا ذلك الشاب جامد القلب والمشاعر الذى كان يقسو على أمه وشقيقه الأكبر وأصدقائه وخدم البيت ، ويتلذذ بقتل الطيور الصغيرة وتعذيبها ويتحايل على إحدى صديقات أمه فيستولى على بعض نقودها اعتماداً على ثقتها فى أمه ؟ .

بل هل هو أيضاً هذا «الوغد» الذى لم يتورع عن إغواء زوجة شقيقه الأكبر وأنشأ معها علاقة آثمة فاحت رائحتها المخجلة فى أوساط الأسرة كلها ؟ .

إن زوجة أخيه تصر على أنه هو . . وتقنعه بكل وسيلة بألا يتنصل من شخصيته القديمة . . وتطالبه بالبقاء مع الأسرة ، وعدم الرحيل . . وتصارحه برغبتها فى استئناف علاقتها القديمة ، لأنها مازالت مفتونة به كما كانت فى الأيام البعيدة . . وهو ينفر من هذه الصور البشعة التى تصدمه بها زوجة الأخ ، ويصر على أنه ليس هذا الشاب البشع فتتحداه أن تثبت له أنه هو . . وتطالبه بالكشف عن ظهره ، ليتأكد من وجود أثر جرح قديم فيه تحت كتفه الأيسر ، فلقد كان عشيقها وهى تعرف تضاريس جسمه التى تخفيها الثياب الفاخرة ولا مجال للشك فيما تعرفه عنه . وتتحداه أن يفعل فيستجيب للتحدى متمسكاً بخيط الأمل الأخير فى أن يكشف له الامتحان عن كذب ادعائها . . ويعرى ظهره أمامها فيظهر أثر الجرح القديم فى المرآة كالصفعة المدوية! ويدقق الشاب النظر ذاهلاً فى المرآة ثم ينهار فجأة باكياً .

إنه هو فعلاً ذلك الشاب الأنانى . . العابث القاسى الذى غدر بصديقه . . ولوث شرف أخيه . . ونهب مال صديقة أمه . . واغتصب خادمة الأسرة . . ولم يعد هناك مجال للإنكار . . وقد سلم الآن بأنه هذا «الشاب» لكن هل يريد أن يكونه مرة أخرى؟ لا . . إنه لم يسعد «باكتشاف نفسه» على عكس ما توقع له الجميع حين يستعيد ذاكرته ونفسه . . ولا يريد أن يكون هذا الشاب مرة أخرى مهما كانت الإغراءات ، فالشاب فاقد الذاكرة الذى كان منذ قليل أشرف كثيراً من هذا الوغد الذى أطل عليه الآن بوجهه القبيح من بئر الذكريات . ولابد أن يتبرأ من «نفسه» القديمة ويقطع صلته بها ، نعم سيقطع صلاته

معها ، وسوف يهجر هذا البيت بكل ما فيه إلى غير رجعة . . وسيتنازل عما ورثه من مال وأملاك لأسرته وسيغادر بيت الأسرة كما جاء إليه بلا حقائب .

وينفذ الشاب «الجديد» قراره الجرىء بإصرار عنيد ويستبسل فى مقاومة زوجة أخيه التى سعت بكل وسيلة لاستبقائه بالإغراء أحياناً وبالتهديد بفضح علاقتها القديمة .. فى أحيان أخرى . . ويصمد أيضاً لمقاومة ضعفه أمام شقيقه الأكبر الذى يطالبه بالبقاء، ويعده بالصفح عما جرى فى الماضى المخجل ؟ ويحزم أمره أخيراً ويغادر البيت والأسرة . . والماضى الملوث كله خفيفاً بلا خطايا جديدة ولا متاع !

وتنتهى مسرحية «مسافر بلا متاع» الجميلة التى كتبها الكاتب المسرحى الفرنسى العبقرى جان آنوى حوالى عام ١٩٣٥ ورآها جمهور المسرح فى باريس لأول مرة عام ١٩٣٧ . ثم رآها بعدها عشاق المسرح فى معظم عواصم العالم الأخرى على مدى أكثر من ٤٠ سنة حتى الآن .

ولقد قرأت هذه المسرحية أكثر من مرة فما من مرة بلغت فيها لوحتها الرابعة التى يكشف فيها بطلها «جاك رينو » عن ظهره ويرى حقيقة نفسه لأول مرة فى المرآة . . ويجهش فى البكاء حتى توقفت أمامها طويلاً متفكراً ، وربما عزفت عن استكمال قراءة بقية المسرحية اكتفاء بهذا المشهد العبقرى الذى أعتبره قمة الرواية وذروتها . فلقد راح هذا الشاب يبحث عن نفسه ويستجوب أفراد أسرته والمحيطين به عنها ، فكان كلما ازداد



معرفة بنفسه كلما ازداد نفوراً منها . . وتنامى هذا النفور داخله إلى أن بلغ به النقطة الحاسمة التى قرر فيها أن ينفصل نهائياً عن هذه «النفس» الكريهة ويتبرأ منها .

إنها لحظة المواجهة الصادقة مع النفس التى يمكن أن تغير مجرى حياة الإنسان ونظرته للحياة وعلاقته بالآخرين .

فمن منا يقدر عليها . . وعلى تحمل تبعاتها ؟ .

لقد كانت هناك عبارة مكتوبة باليونانية القديمة على واجهة معبد دلفى بأثينا تقول : «إعرف نفسك» .

وجاء الفيلسوف سقراط فجعل منها شعاراً لفلسفته وحاول جاهداً أن يعرف نفسه وأن يساعد الآخرين من حوله على أن يعرفوا أنفسهم . وبعد قرون عديدة رفع علماء التحليل النفسى نفس الشعار وقالوا : إن معرفة النفس والصدق معها بداية لشفائها من كثير من متاعبها وبداية ضرورية لطريق الصحة النفسية .

ثم أخيراً جاء بطل مسرحية «آنوى» الجميلة هذه ، وسعى لأن يعرف نفسه فعرفها على حقيقتها وأنكرها وقطع كل صلة له بها وبعالمها القديم وتحمل تبعات المواجهة بشجاعة . .

فهل نستطيع نحن أيضاً أن نتحمل هذه المخاطرة ؟ .

إننى شخصياً أؤمن بأن الهدف النبيل يستحق عناء المخاطرة للوصول إليه ، وأؤمن بأن من واجب كل إنسان تجاه نفسه وتجاه الحياة . . أن

«يكشف عن ظهره» فى المرآة كل حين ويتحسسه بحثاً عن آثار الجروح القديمة والجديدة فيه ، وأن يرضى عن نفسه ويزداد تمسكاً بها ، وبأسلوب حياته إذا جاءت صورته فى المرآة سوية أو قريبة من الطبيعة . . أو إذا كانت آثار الجروح القديمة فى ظهره قد اختفت وتحولت بالزمن والندم الصادق إلى ندوب صغيرة لا ترى بالعين المجردة .

وأرى من واجبه أيضاً إذا عكست المرآة أمام عينيه كثيراً مما يخجل أن يعرفه عنه الآخرون ، أن يفعل ما فعله بطل المسرحية ، فيزداد نفوراً من نفسه كلما ازداد معرفة بها . . بشرط أن يقوده ذلك فى النهاية إلى لحظة الاختيار الحاسمة . . وإلى اتخاذ القرار الشجاع عند الضرورة «بالسفر» إلى حياة جديدة بلا حقائب . . ولا متاع . . سوى الرغبة الصادقة فى التطهر من أثقال الماضى وأخطائه . .

فمن منا يستطيع حقاً أن يفعل ذلك ؟ .

٢٠

طائر.. فى السماء!

ترترة لمعت فى السماء .

وكل ترترة فى السماء مرمر !

هكذا قال لنفسه بطل قصة محمد عفيفى الجميلة «حكاية بنت اسمها مرمر» . . وهو يجلس فى حديقة بيته تحت الشجرتين المتعانقتين اللتين أعطيا لهما اسميهما . . فحملت إحداهما اسمه وحملت الأخرى اسمها ، ويستمع إلى قطعة الموسيقى الكلاسيك التى يحبانها معا ، ويرفع كأسه إلى السماء ليشرب نخب حبه الضائع كلما عبرت سماء الحديقة طائرة تئز أزيزا مكتوماً ، وتلمع جنب قرص القمر كأنها «ترترة» لامعة فى فستان قاتم اللون !

إنها حكاية بنت خالته التى أحبها فى طفولته ، وكانا يختبئان معا وراء قطع الأثاث ويتبادلان الحب الطفولى ثم عشقها فى صباه حين جاءت لتقيم معه ببيت أسرته ، وتلتحق بالمدرسة الثانوية . . والتى تخاذل عن

التقدم إليها حين بلغا سن الشباب ، فتزوجت من أحد أثرياء بلدتها وفرقت الحياة بينهما سنوات اتخذ خلالها طريقه فى الحياة، وأصبح كاتباً معروفاً ، ثم فوجىء ذات يوم بزوج ابنة خالته يطلب مقابلته، ويرجوه أن يساعده فى إعداد كتاب عن أبيه فتجدد اللقاء بينه وبين فتاته القديمة .

وتأكد من أن حب العمر قد يتجمد أحياناً بجليد الفراق والزمن ، لكنه لايموت ، إذ ما أن يتلقى شحنة طارئة من حرارة الاتصال حتى تسرى فيه روح جديدة وينبض بالحياة من جديد . . تماماً كذلك الرجل الذى أجروا عليه تجربة علمية جريئة فجمدوه فى درجة حرارة ٤٠ تحت الصفر حتى توقف نبض الحياة فيه ، وتركوه بضعة أسابيع ثم سلطوا عليه الحرارة ، فإذا بالثلوج التى تلفه تذوب تدريجياً ، وإذا بأعصابه تتحرك ببطء ، وإذا بقلبه ينبض بالحياة من جديد !

وهذا ما حدث معه أيضاً فقد عادت أميرة أو «مرمر» كما يسميها إلى حياته مرة أخرى بتلقائيتها الحبيبة وروحها المرحة القديمة ، وصدق مشاعرها تجاه الحياة والناس .

فاستيقظ عملاق الحب النائم فى قلبه من مرقده ، وندم حتى الموت على تفريطه فيها بتخاذله وانصرافه إلى تحقيق طموحه فى الحياة ، ولسعته نار الحرمان ، فاستعاض عن حرمانه منها بصلة القرابة التى تجددت واللقاءات الجماعية معها ومع زوجها . . واكتشف بعد قليل أن صلتها به لم تنقطع يوما واحداً خلال السنوات التى انقطعت العلاقة بينهما ،

وتشاغل خلالها عنها ، فهى تتتبع أخباره عن بعد . . وترقب خطواته فى الحياة وتقرأ له كل ما يكتب . . وتسعد بكل خطوة يحققها على طريق نجاحه .

بل وعرف أنها كانت وراء تجديد الصلة به بعد كل هذه السنوات ، فهى التى دفعت زوجها عديم الاحساس بليد المشاعر إلى الاتصال به لكى يساعده فى إعداد كتاب يريد أن يعدد فيه مآثر أبيه .

وتواصل اللقاء بينهما فاستيقظت الذكريات القديمة من سباتها . . ورجعت «المفردات» القديمة التى كانت تشكل لغتهما الخاصة التى كانا يتفاهمان بها إلى الأسماع من جديد ، وحافظ كل منهما على علاقته بالآخر فى ضوء الظروف الجديدة وفى حدود العلاقة مع سيدة متزوجة ليست على استعداد لأن تخون زوجها ولو أبغضته . ثم اكتشفت أميرة الأحلام القديمة فجأة أن زوجها البشع قد تزوج عليها منذ عام وأخفى عنها أمر زواجه ، فجن جنونها وفقدت آخر ما كان يربطها به من روابط العشرة وطالبته بالطلاق فرفض ، فطالبته بأن يطلق الأخرى فأصر على الرفض، فيئست منه وقررت أن تتشاغل عن تعاستها معه بالعمل ، ولجأت إلى فتى أحلامها القديم ليعطيها دروسا فى اللغة الإنجليزية استعداداً للعمل كمضيفة جوية .وبدآ يلتقيان بانتظام فى حديقة بيته القديم التى شهدت ذكريات الصبا الجميلة ، وبين الدروس تأججت المشاعر القديمة وأصبحت فوق قدرة كل منهما على الاحتمال ، ومع أنغام «الأليجرتو» السماوية فى السيمفونية السابعة لبيتهوفن استسلما لإحساس من عثر على واحته الظليلة بعد طول ضياع وسط لهيب الصحراء ، وأفاقا

فجأة على وجه زوجها البشع يطل عليهما .. ويتشفى فيهما منذرا بفضيحة مدوية تقودهما إلى السجن ، وفشلت كل توسلاتها إليه لكى يعفى الجميع من هذا العناء ، ويسرح زوجته بإحسان فلم يتحرك قلبه ولم يتزحزح عن موقفه ، وأمسك بسماعة التليفون ليستدعى الشرطة .. فلم تتمالك زوجته نفسها وانهالت على مؤخرة رأسه ببرطمان العسل الثقيل وسقط الرجل على الأرض فاقد النطق ، وأصاب الذهول زوجته وبرجولة تلقائية تقدم فتى الأحلام القديم ليتحمل المسئولية عن فتاته وطالبها بأن ترحل وتختفى فى بيت إحدى صديقاتها . وجلس هو مستسلماً لمصيره ينتظر وصول الشرطة ، وقبل أن تصل الشرطة تحرك الرجل من مرقده وتبين أنه لم يمت ، وعرف أن زوجته قد فرت ، وفاتته فرصة إثبات الخيانة عليها والانتقام منها ، فاستعاد سيطرته على نفسه وتذكر أثر الفضيحة على سمعته الشخصية ففقد رغبته فى إيذائها فانصرف معلنا طلاقه لزوجته .

وطار فتى الأحلام القديم إلى بيت الصديقة ليطمئن الزوجة الخائفة بأن زوجها لم يمت ففوجىء بها وقد غابت عن الجميع فى عالم بعيد !

لقد أثرت الانفعالات العنيفة .. والتعاسة الطويلة .. على صحتها النفسية فذهلت عن الأشياء !

وبدأ معها رحلة العلاج النفسى الطويلة .. ليساعدها على استرداد نفسها وتعذب بأنها تعرفه ولا تعرفه فى نفس الوقت ، فهى تعرف اسمه وتعرف أنه ابن خالتها .. لكنها لا تذكر شيئاً عن حب العمر الذى جمع

بينهما . ولا تذكر اسمى الشجرتين المتعانقتين فى حديقة بيته ، وفقدت «مفردات» اللغة الخاصة بهما مدلولاتها عندها ، فتعذب إلى غير حد بهذا التغير الأليم فى روحها . لكنه لم يفقد الأمل فى استعادتها لصحتها .. وبعد عناء طويل استغرق اثنتين وثلاثين جلسة علاج تحمل تكاليفها عنها راضيا ، عادت فتاة القلب إلى شخصيتها القديمة وتذكرت الأشياء .. وتأملت فى زيارتها الأولى لحديقة بيته الشجرتين المتعانقتين .. تساءلت فى إشفاق عما إذا كانا مازالا يحبان بعضهما كما كان الحال فى السنوات الماضية ؟

وبحماس مبالغ فيه عادت إلى دروس اللغة الإنجليزية معه ، وأصبحت جلساتهما معا عملا متواصلاً لا تقطعه إلا لحظات استرخاء عابرة .

وفى إحدى هذه اللحظات سألته : هل مازلت تريد أن تتزوجنى ؟ فكرر عليها رغبته التى أبداها بإصرار منذ طلقها زوجها .. فسرحت بأفكارها صامتة ثم طلبت العودة للعمل ! لقد تغير شىء جوهرى فى روحها .. فلم تفقد مشاعرها تجاهه لكن زواجها منه لم يعد أمل حياتها كما كان فى السنوات السابقة . لقد قاست مرارة الخيبة فى زواج بلا حب ولا احترام ، ودفعت ثمنا غاليا من صحتها وأيامها للتخلص منه ، ولم تعد راغبة فى تكرار التجربة فى المنظور القريب حتى مع من أحبته وتمنته طوال حياتها ، وتلفت هو حوله فوجد الأدوار قد تغيرت فأصبح هو الذى تخاذل عن الارتباط بها فى البداية هو الذى يلح عليها الآن بفكرة الزواج .. وهى التى تراوغ وتتهرب وترى فى العمل الذى تحلم به مخرجاً

لها من متاعبها فى الفترة الحالية .

ونجحت فى الامتحان وأصبحت مضيفة جوية تطير فى السماء وتبدأ يومها فى القاهرة، وتبيت ليلتها فى روما أو باريس ومن كل رحلة تعود إليه سعيدة مبتهجة محملة بالهدايا ، فيتقبل هداياها ويتجاوب مع مرحها، وهو يغالب الإحساس المؤلم بأن فتاة القلب قد طارت فى السماء وابتعدت ولم يعد هناك أمل فى أن يستعيدها إلى عشه القديم.

نعم مازالت تحبه . . ومازالت الكلمات تكتسب معانى خاصة بهما على لسانها ، ومازال لمفردات اللغة مذاقها الخاص بينهما . . لكن حبيبته ارتفعت إلى السماء فى طائرة تبدو من أسفل كترترة فضية صغيرة فى فستان أسود ، وكلما مضى الوقت كلما أوغلت فى الابتعاد وكادت تغيب عن الأنظار . فلم يبق له إلا الجلوس فى حديقة البيت فى الظلام تحت الشجرتين المتعانقتين يحتسى الشراب . . ويجتر الذكريات القديمة ويتطلع إلى السماء كلما سمع أزيز طائرة ، ويرفع كأسه ملوحا لها فى الظلام ، ثم يشرب نخب حبيبته المحلقة فى الأجواء البعيدة ! وهكذا يفعل كل إنسان يضيع ، بغبائه وعناده أو أنانيته وقصر نظره أو بخوفه الأحمق من المستقبل . . وجبنه عن الكفاح لتحقيق الأحلام، حب العمر الحقيقى من بين يديه ثم تسرقه الأيام وتشيخ روحه ويفقد القدرة على الاستمتاع بما حقق فى الحياة فيتوقف ليراجع الرحلة ، ويكتشف أنه قد بدد العمر فى الجرى وراء أهداف لاتستحق كل ما بذله فيها من عناء ، وأنه قد يكون قد حقق شيئاً أو أشياء على جبهة النجاح المادى أو الأدبى

فى الحياة ، لكن رصيده على جبهة السعادة الحقيقية وراحة القلب . . صفر أو ما دون الصفر ، فإذا تلفت حوله ليحاول تصحيح الأخطاء اكتشف غالباً أن أوان التصحيح قد فات وأن طائر الحب القديم قد أفلت من يديه وحملته رياح الحياة إلى حيث لا يستطيع أن يرجع أو يعود.

ومازال «الإنسان» يكرر نفس أخطائه ويأبى أن يتعلم فى بعض الأحيان من دروس الحياة . . أو تجارب الآخرين فيتواصل الشقاء الإنسانى بلا نهاية وتتجدد الأحزان !

فمتى يتخلص الإنسان من غبائه . . ويستعيد قدرته على تمييز الأشياء والأهداف والأشخاص الذين ينبغى ألا يفرط فيهم مهما كانت التبعات والتضحيات ؟

ومتى يستهدى الإنسان بفطرته الصحية فى الاتجاه إلى الأهداف الصحيحة . . والسعى إليها بلا التواء ليحقق حلمه وحلم البشرية القديم فى السعادة والأمان ؟

لقد دارت فى رأسى كل هذه الخواطر والتأملات حين عدت لقراءة هذه الرواية الجميلة منذ أيام ، فاستمتعت بها مرة أخرى ، وأسفت أكثر لأن مؤلفها الأديب الراحل محمد عفيفى لم ينل حظه العادل من تقييم النقاد لأعماله الروائية ، مع أنه قد كتب عددا من أجمل الروايات القصيرة وأعمقها فكراً وأحفلها بالمشاعر والتأملات الإنسانية والفلسفية .

ولست أعرف على وجه الدقة لماذا لقى أدب محمد عفيفى الروائى هذا

التجاهل . . هل لأن عبقريته ككاتب ساخر قد طغت على سمعته ككاتب روائى . . أم لأنه كان عازفاً عن المجتمعات الأدبية ويعيش منطوياً على نفسه فى شبه عزلة يتأمل الأشجار والورود والحشرات فى حديقة بيته ويكتب عنها ؟

أم ترى أنه السبب «الخالد» إياه وهو أن الإنسان مازال يكرر أخطاءه منذ قدم الزمان . . فيتجاهل من يستحقون الاهتمام ، وإذا ما اكتشف جدارتهم باهتمامه وتلفت يبحث عنهم اكتشف أنهم قد رحلوا إلى حيث لا يستطيعون أن يرجعوا أو يعودوا ؟

٢١

إتبعنى ولا تنظر وراءك !

توقفت سيارة الأجرة

أمام الفندق

الذى سنقيم فيه ثلاثة أيام بنيويورك

قبل أن أواصل رحلتى

فى باقى الولايات التى أعتزم زيارتها .

غادرت السيارة مع صديقى الذى سيلازمنى فى نيويورك وواشنطن ، ثم تفترق بنا السُبل فيتجه للجنوب ، وأتجه أنا للغرب قبل أن نتلاقى مرة أخرى ونرجع معاً إلى باريس . تلفتُّ حولى فرأيت ناطحات السحاب تحيط بنا من كل جانب وإعلانات النيون العملاقة تضاء وتطفأ ألوانها المبهجة فيتوقف أمامها السياح ويركزون عليها كاميراتهم .

رفيقى فى هذه الرحلة هو الذى قام بالحجز فى هذا الفندق الذى سبقت له الإقامة فيه ، فأعجبنى الاختيار لوجود الفندق فى وسط المدينة حيث أستطيع التجول على الأقدام فى شوارعها . أما حين عرفت اسم الشارع الذى يقع فيه فقد تحول الإعجاب إلى «امتنان» شديد . يا إلهى

إنه شارع برودواى الشهير الذى يرتبط فى مخيلتى وقراءاتى بالمسرح الأمريكى ، وكل الكتّاب المسرحيين المشاهير من يوجين أونيل إلى تنيسى وليامز، وبكل الروائيين العظام الذين لا يكاد يخلو سجلهم الأدبى من رواية أو أكثر ، ثم تحويلها إلى مسرحية وتقديمها على مسارح هذا الشارع، من جون شتيانيك إلى أرسكين كالدويل . فشكراً لمن هيأ لى الإقامة فيه عن غير قصد . وضعنا حقائبنا بالغرفة وأسرعنا بالنزول لنتجول فى الشارع الشهير . من بعيد رأيت إعلاناً ضخماً بالنيون يحمل صورة نجم الكوميديا القديم جيرى لويس ،فتخيلت أنه إعلان عن فيلم جديد له ، وتعجبت من أنه مازال على قيد الحياة ، ومازال نجماً سينمائياً يصور الأفلام ، فلقد ارتبط فى ذهنى بفترة الشباب التى شاهدنا له فيها كثيراً من أفلام كوميدية اقتربت من الإعلان ، فإذا به عن مسرحية جديدة يؤدى دور البطولة فيها ، واسمها «اللعنة على فريق اليانكى» ، تلهفت على رؤية المسرحية خلال فترة إقامتى القصيرة فى نيويورك ، لأتعرف على المسرح الأمريكى «فوق الخشبة» وليس على صفحات المسرحيات المطبوعة ، ودهشت حين وجدنا تذاكرها متاحة بلا عناء ولا انتظارٍ طويل . لى خبرة قديمة بالمسرح الإنجليزى ومسارح «الوست إند» فى لندن ، لكنها المرة الأولى التى سأشهدُ فيها مسرحية أمريكية معاصرة وأتعرف على شكل المسرح الأمريكى . فى المساء كنا فى صالة المسرح نجلس فى مقاعدنا نترقب رفع الستار . القاعة لا تختلف عن أية قاعة سينما حديثة وشتان ما بينها وبين صالة المسرح الإنجليزى التى توحى بالعراقة والقِدم والتقاليد العتيقة . فى حُفرة الأوركسترا فريق من العازفين

ومايسترو شاب ، بدأ يعزف الموسيقى الافتتاحية للمسرحية ، ثم انفرج الستار على مشهد تقليدى فى حياة الأسرة الأمريكية . رجال فى منتصف العمر يجلس كل منهم على مقعد مريح ويستغرق بكل جوارحه فى مشاهدة مباراة فى البيسبول ، وخلف كل منهم زوجة جميلة تتشكّى من انشغاله عنها وانصرافه كلية إلى متابعة المباراة . الرجال يتشنّجون مع أحداث المباراة . . والزوجات يندبن حظوظهن ، وتجاهل الأزواج لهن ثم يشترك الكل فى غناء جماعى يلخّص المشكلة .

وتوالت أحداث المسرحية بعد ذلك . . . فالزوج «جو بويد» رجل فى منتصف الأربعينيات يحب زوجته «لولا» وتحبه ، لكنه يقضى معظم أوقاته فى بيته مشغولاً عنها بمتابعة مباريات البيسبول ، ويتذكر متحسراً أنه كان فى شبابه يتطلع لأن يكون بطلاً محبوباً من أبطال اللعبة يقود الفريق الذى يشجعه للفوز على خصمه العتيد فريق «اليانكى» ، لكن الأحلام لم تتحقق للأسف . . . وها هو يعيش حياة باهتة بسيطة مع زوجة أحبها فى شبابه ، لكن سأم الحياة الفاترة العادية يسحب ظلاله على كل شىء .

وفى اللحظة التى يستسلم فيها لأحلام اليقظة ويتخيل حياته لو كانت الأحلام تتحقق وينال الشهرة والثروة والنجاح ، تنشق الأرض عن رجل غريب يفاجئه بالحديث عن أمنياته القديمة ويدعوه لأن يهجر زوجته ويتبعه إلى حيث تتحقق الأحلام القديمة ويرجع شابًّا من جديد وبطلاً محبوباً من أبطال البيسبول ينقذ فريقه ويقوده إلى الانتصارات !

ويرتجُ الأمر على « جو بويد» ويرفض تصديق ما يسمعه لكن الرجل

الغريب يصنع أمامه من المعجزات ما يقنعه بقدرته على أن يحول الأحلام إلى واقع بإشارة منه ، فهو يشير بإصبع يده ، فتنفجر فى الهواء الألعاب النارية ويتحرك أمامه فلا يراه سواه ، أما زوجته والجيران فلا يرونه ولا يعرفون إلى من يتحدث وهو جاهز للوفاء له بوعده بشرط واحد هو أن يتبعه ويطيع أوامره . . دون أن ينظر وراءه أو يحن ذات يوم إلى زوجته أو حياته المملة السابقة ، فالرجل أو الشيطان بمعنى أصح والذى يؤدى دوره فى المسرحية «جيرى لويس» لا يطيق ما يسميه هؤلاء البشر الأغبياء بالوفاء . . والحب . . والإخلاص إلى آخر هذه المهاترات السخيفة ، ولا يؤمن إلا بالرجال «الأقوياء» الذين يتجهون إلى أهدافهم مباشرة ، بغض النظر عما يترتب على ذلك من شقاءٍ للآخرين . . وهو يسأله : هل تريد أن ترجع شاباً وتكون بطلاً محبوباً ؟ إذن . . فلا تتحدث عن زوجتك ولا عن أصدقائك القدامى وامضِ إلى هدفك بلا تردد ، ويجيبه «جو بويد» بأنه شديد اللهفة على أن يحقق حلمه فيدرك الشيطان أنه قد انتصر وأفسد علاقة زوجين متحابين ، فيشير بإصبعه ويُظلم المسرح ، ثم يضىء مرة أخرى فإذا بالرجل متوسط العمر قد تحول فجأة إلى شاب فى أوائل العشرينيات ولاعب ممتاز من لاعبى البيسبول اسمه «جو هاردى»!

وبترتيب من الشيطان «جيرى لويس» يتقدم «جو هاردى» إلى فريقه القديم . . فيذهَل المدرب العجوز حين يرى قدراته ويبادر بضمه على الفور إلى فريقه ، وينفجر اللاعبون صخباً وابتهاجاً وهم يتطلعون إلى لحظة الفوز على خصمهم العتيد بعد أن كسب فريقهم هذا اللاعب المعجزة .

وتقام أولى المباريات فيبهر «جو هاردى» الجميع بإمكاناته ومواهبه ويفوز الفريق القديم لأول مرة على فريق اليانكى !

وتنشر الصحف والمجلات صور اللاعب الفذ . . وتهجم عليه كاميرات التليفزيون، وتنهال عليه عروض الشركات للإعلان عن منتجاتها واستخدام اسمه وصورته فى الدعاية لها .

وتلاحقه المذيعة التليفزيونية الشابة بجمالها الساحر تحاول إغراءه واستدراجه إلى علاقة عاطفية معها . فهى مساعدة «الشيطان» جيرى لويس وقد سلَّطها عليه لتنتزع من روحه آخر القيود «السخيفة» التى مازالت تربطه بعالمه القديم وهى الوفاء لزوجته «لولا» ، لكن النجم الشاب لا يستطيع التجاوب مع المذيعة الساحرة ، ويجد نفسه مشدوداً بالحنين رغم أنفه إلى زوجته التى هجرها جرياً وراء الأحلام ، ورغم تحقيق الحلم وفوز فريقه على خصمه الذى طالما تمنَّاه من قبل ورغم النجومية . . والمال . . والفتيات الجميلات اللاتى يصرخن من الفرحة حين يشاهدنه فى الطريق . . فهو لا يستشعر السعادة الحقيقية فى حياته ويشعر دائماً بالغربة وبنقص شىء جوهرى هام يتساءل عنه دائماً ولا يدرى كنهه إلى أن يتنبه لمشاعره بعد قليل ويكتشف سر هذا الشىء الناقص ، إنها زوجته التى أحبها فى شبابه وعاش معها خمسة عشر عاماً ولم يشعر بعمق ارتباطه بها إلا الآن . يا إلهى . . كم كانت جميلة . . ومخلصة . . ودافئة المشاعر ومضحية من أجله . . ، لقد كانت تحيطه دائماً بالحب والاهتمام . . وتهتم بملابسه . . وشعره وعمله وتصنع له أطباقه المفضلة ، وتفتخر به بين صديقاتها ، وتدافع عنه دائماً ضد

انتقادات شقيقتها له ، ترى ماذا تفعل الآن ؟ وكيف تعيش حياتها بدونه؟

ويتغير المشهد فجأة فنرى الزوجة فى غرفة نومها تتقلب على فراش الجمر . . تغالب حنينها لزوجها الذى اختفى فجأة من حياتها دون كلمة وداع . . وتخاطبه بعين الخيال وتسأله كيف هان عليك أيها القاسى أن تتركنى بلا وداع . . ألا تعلم كم أحبك . . وكم أفتقدك . . وأفتقد أنفاسك تتردد إلى جوارى ، ألا تدرى كم أفتقد «رائحة» جسمك التى أحبها وأشعر بها كجزء من كيانى ؟ ألا تعرف كم أفتقد صوتك وجلستك اليومية أمام التليفزيون فى غرفة المعيشة واستغراقك فى متابعة مباريات البيسبول ؟ إنك لا تعرف كم أنت ضرورى لحياتى حتى ولو انصرفت عنى لمباريات الكرة اللعينة . . فأنت الرجل الوحيد فى قلبى ووجدانى بل وفى «جسمى» أيضاً ، فأين اختفيت يا حبيبى . . ومتى تعود ؟

«والشيطان» أو «جيرى لويس» يرقب تعاسة النجم الشهير وانشغال باله بقلق وانزعاج . . فمهمته هى إفساد العلاقات الإنسانية . . وتدمير الحب على الأرض بالثروة والإغراء . . فماذا أصاب هذا الشاب الذى تتهافت عليه الفتيات لكى يبدو حزيناً دائماً ومكتئباً ؟ ثم إلى أين يذهب هذا المجنون ؟ اللعنة ! إنه يفرّ من المذيعة الفاتنة . . ويحوم حول بيته القديم يختلس النظر إلى زوجته ، وينظر إليها بحنين عجيب كأنه مسحور ! ماذا يعجبه فى هذه «الشمطاء» التى بلغت الأربعين وكيف يرفض المذيعة الفاتنة ويتشوّقُ إلى هذه المرأة عادية الجمال ؟

يا لهؤلاء البشر الملاعين . . لا شىء يصرفهم عن هذه الخزعبلات التى يسمونها الحب . . والوفاء .

ويحوم «جو» بالفعل حول بيته القديم ويرى زوجته بمريلة المطبخ تغسل الأطباق وتتحدث إلى شقيقتها . . ويسترقُ السمع إلى ما تقول ، فيجدها ياللعجب مازالت تدافع عنه ضد اتهامات شقيقتها له بالغدر وتقول : إنها واثقة من أن ظروفاً قهرية هى التى حالت بينه وبين العودة لبيته .

ويجد «جو» نفسه مدفوعاً بقوة قاهرة لدخول البيت وتندهش السيدتان لرؤية النجم المشهور أمامهما وترحبان به بحرارة وخاصة الشقيقة التى تعبر عن إعجابها الشديد به . . لكنه يبدو كالغائب عن الوعى ولا يحس بها ويركز نظراته على «السيدة الأخرى» التى تشعر تجاهه فجأة بضعف غريب !

ويتكرر اللقاء بين النجم الشهير «وزوجته» القديمة التى لا تعرفه . . وتحار السيدة فى أمر نفسها فقلبها يخفق لرؤيته وسماع صوته . . لكنها رغم ذلك لا تنسى الزوج الغائب ولا تريد أن تنساه أو تنساق مع ضعفها تجاه هذا الشاب المفتون بها . وأخيراً تصارحه بحيرتها مع نفسها وتعترف له بما تحسه من ضعف عجيب معه ، لكنها تفسره له ولنفسها بأن به شيئاً ما مشتركاً بينه وبين زوجها الذى تحبه وتفتقده بشدة . ويسألها بلهفة : هل تحبينه ؟ وتجيبه بأسى : وكيف ينسى القلب من لم يسكن أعماقه سواه؟

ويساعدها النجم الشهير فى غسل الأطباق . . فتقول له : إن زوجها لم يكن يساعدها أبداً فى أداء هذه المهمة ، ويسألها : ولماذا لم تطلبى منه ذلك ؟ إن الإنسان يحتاج أحياناً لأن يذكره شريك عمره بما يريده منه ليفعله ويُرضيه ، فلماذا لم تفعلى ذلك؟ وتجيبه بأنها ستفعل حين يعود من غيبته . ويسألها ولماذا تجزمين بأنه سيعود ؟ فترد بأن قلبها يحدثها بذلك ، وقلبها لا يكذبها أبداً .

ويرجع النجم الشهير إلى عالمه البراق وقد حسم أمره ، سيلعب آخر المباريات ويحقق الفوز لفريقه ، ثم يترك كل مغريات عالمه الجديد ويرجع لحياته البسيطة الهادئة الباهتة وزوجته الجميلة المخلصة . . لقد قدم له عالمه اللامع المال والشهرة والنجومية وكل شىء ، لكنه لم يقدم له ما يحتاجه الإنسان قبل ذلك وبعده ، وهو الحب المخلص لشخصه وذاته وليس لنجوميته وشهرته . والمرأة الوحيدة التى تستطيع أن تقدم له هذا الحب المبرأ من كل الشبهات هى زوجته الحبيبة التى مازالت تغسل الأطباق وتتحدث عنه بحب وحنين .

إذن فليذهب الشباب والنجومية وكل شىء إلى الجحيم وليعُد له الحب النقى الصادق الذى تحمله له زوجته ، ولتعد له السكينة وسلام القلب الذى يحّسه إلى جوارها!

وينفذ النجم الشهير قراره . . ، وتظلم خشبة المسرح لحظة ثم تضىء مرة أخرى فنرى «جو» القديم ابن الخامسة والأربعين فى غرفة المعيشة ببيته يشهد مباراة أخرى فى التليفزيون ، ويرقب بعطف عجيب زوجته

وهى تتحرك حوله تؤدى الواجبات المنزلية . . وتصنع القهوة وتهتم بنباتات الظِل فيستفيد من درس تجربته «السحرية» ويحرص على ألا ينسى خلال استغراقه فى المباراة أن يجيب على سؤال لها . . أو يعلّق على ملاحظة أبدتها أو يشاركها الحديث عن الشئون اليومية البسيطة لكى يجنبها مرارة الإحساس بالتجاهل التى طالما جرعها لها بغير قصد فى السنوات الماضية ، ولأن هذه الأشياء الصغيرة هى التى تنسج ثوب الاهتمامات المتبادلة بين الشريكين .

أما الشيطان «جيرى لويس» فإنه ينصرف عنه يائساً وهو يتمتم فى سخط : اللعنة على هؤلاء البشر الأغبياء !

وينزل الستار على المسرحية . . وينفجر المشاهدون فى التصفيق تحيةً لأبطالها ، ويتحول التصفيق إلى صراخ هيستيرى حين يظهر على الخشبة النجم القديم «جيرى لويس» الذى مثل وغنَّى ورقص طوال ثلاث ساعات رغم أنه قد استبدل مؤخراً ثلاثة شرايين فى قلبه ، ورغم سنواته التى تقترب من السبعين !

إنها قصة بسيطة وفكرة متكررة فى أعمال روائية ومسرحية كثيرة أشهرها على الإطلاق ملحمة «فاوست» للشاعر الألمانى العظيم «جوته» ، وتدور دائماً حول ذلك «الاتفاق» الشهير بين الإنسان وبين الشيطان على أن يسلِّم له قياده مقابل أن يحقق له أكبر أمنياته فى الحياة ويهبه كل ما رأى نفسه محروماً منه . كما تدور أيضاً حول سِمةٍ أزلية من سِمات الإنسان ، هى أنه يزهد غالباً فيما بين يديه ويتطلّع إلى ما لم يُتح له

متصوراً أنه السعادة الحقيقية التى حرم منها ، حتى إذا تخلى عما ضاق به وتحققت له الحياة التى طالما حلم بها اكتشف بالثمن الغالى أن السعادة كانت بين يديه وهو لا يدرى حين شكا من جفاف حياته ورتابتها . إنه «الدرس الأزلى» الذى لا يتعلمه الإنسان أبداً إلا بعد فوات الأوان . . وهو أن السعادة لا تتحقق بالشهرة ولا بالثراء وإنما برضا النفس وسكون القلب إلى من يحبه .

الفكرة ليست جديدة إذن ، لكن الجديد فيها هو هذه التقنية المسرحية المتطورة التى استُخدمت للتعبير عنها فى هذه المسرحية الأمريكية .

فالمسرح الذى رأيته فوق هذه الخشبة كان أقرب إلى السينما أو المسرح السحرى أو السيرك منه إلى المسرح التقليدى . والمسرحية عبارة عن لقطات عديدة متتابعة تتغير خلالها المشاهد فى سرعة رهيبة ، وتُستخدم فيها أساليب المسرح السحرى العديدة من قنابل وهمية ، وانفجارات فوسفورية وحيل شبيهة بالحيل السينمائية . أما الممثلون فهم يحتاجون لأداء أدوارهم فيها ليس فقط إلى إجادة فن التعبير بالكلمة والإشارة وإنما أيضاً إلى إجادة الألعاب البهلوانية وإلى «صحة» تهد الجبال لأداء ثلاثين مشهداً راقصاً على الأقل تخللت المسرحية وأداء ألعابٍ كألعاب الأكروبات فيها ، ناهيك عن حِيَلِ الإضاءة الملونة وأشعة الليزر التى تذكرك بعروض الملاهى أكثر مما تذكّرك بالمسرح .

إنه شيء مختلف تماماً عن المسرح الإنجليزى التقليدى الذى خَبرته ، لكنى كنت فى حاجة لأن أستكشفه وأتعرف عليه . وقد فعلت والحمد لله . . فشكراً لصديقى الذى اختار لنا فندقا فى شارع برودواى وهو لا يعرف ماذا يعنى هذا الشارع بالنسبة لى ، فكانت رميةً من غير رام . . وليلة ممتعة ومفيدة فى أحد مسارحه !

٢٢

شريفة ليوم واحد!

هل تذكر هذا الفيلم القديم
«أبداً فى يوم الأحد »
الذى لعبت
دور البطولة فيه
«ميلينا ميركورى»
وزيرة الثقافة فى حكومة
اليونان فيما بعد ؟ .

لقد كان يحكى قصة بائعة هوى محترفة تستقبل زبائنها فى بيتها كل أيام الأسبوع ما عدا يوماً واحداً هو يوم الأحد ، فإذا أخطأ «زبون» جديد وطرق بابها فى ذلك اليوم غضبت بشدة وطردته بعنف ، فهى فى يوم الأحد امرأة أخرى لا ترتكب إثماً ولا خطيئة وإنما امرأة تتمنى لو استطاعت أن تذهب إلى الكنيسة كما يفعل الأتقياء صباح كل أحد . . وأن تعيش حياتها كأى امرأة أخرى . . ، وربما تمنت أيضاً فى هذا اليوم من كل أسبوع أن تلتقى برجل تحبه من أعماقها ويحبها بإخلاص ويتزوجها ويغار عليها . . وتستغنى به عن كل الرجال . . وتمضى بقية عمرها إلى جواره تحتمى به ضد غوائل الحياة.

إنه يوم للتطهر من الخطايا والآثام كل أسبوع ثم تدور الأيام دورتها العادية بعد ذلك . . ويرجع كل شيء فى حياتها إلى طبيعته المألوفة . . لقد أراد هذا الفيلم أن يقول لنا إن كل مخطىء وكل مخطئة تتمنى فى أعماقها أن تتطهر من خطاياها ، وأن تعيش حياتها كامرأة فاضلة شريفة، لكن بعض الظروف أو الأسباب قد تحول بينها وبين تحقيق أمنيتها المكتومة هذه . قد تكون أسباباً مادية واجتماعية وقد تكون ضعفاً فى الإرادة وعجزاً عن تحمل تبعات قرار الاستقامة والالتزام به، لكن الجميع يتمنون فى أعماقهم أن يكونوا أطهاراً شرفاء حتى ولو لم يخطوا خطوة واحدة على طريق الاستقامة ، ولن يكون غريباً أن يتوقفوا فى لحظة تنوير مفاجئة ويراجعوا حياتهم ويسخطوا عليها ويقدموا على تغييرها تماماً . أما متى تجيء هذه اللحظة . . فلا أحد يعرف موعدها . . فقد تجيء فى أى مرحلة من العمر . . وقد تأتى من داخل الإنسان بلا أى تدخل خارجى وقد تتلقى «مساعدة» خارجية تطلق شرارتها فى أعماقه .

لكن قلة فقط من البشر هم الذين قد لا يتوقفون عن الخطأ حتى نهاية العمر حتى ولو سخطوا على حياتهم أحياناً هم أصحاب الشخصية السيكوباتية المنحرفة التى تدمن الخطأ . . وتعجز عن التوقف عنه أو تتوقف عنه وترجع إليه بعد حين لأن نداء الانحراف أقوى تأثيراً عليها دائماً من أى نداء آخر ، أو لأن خللاً جوهرياً فى القيم قد استقر فى أعماقها ولم يعد هناك أمل فى إصلاحه إلا بمعجزة ، أما باقى البشر فهم

جميعاً كميلينا ميركورى فى فيلمها الشهير يُسعدهم أن يكونوا شرفاء كل « الأسبوع » ، فإن عجزوا عن ذلك فلستة أيام كل أسبوع أو خمسة أو أربعة أو حتى ليوم واحد كما كانت تفعل بطلة هذا الفيلم القديم .

ومنذ أيام كنت أقرأ كتاب «وحى الرسالة» للأستاذ أحمد حسن الزيات الذى جمع فيه مقالاته الافتتاحية فى مجلة الرسالة القديمة فتوقفت أمام قصة غريبة رواها فى مقال له بعنوان «إشعاع الإيمان» . . وتذكرت ميلينا ميركورى وفيلمها الشهير ! .

فلقد روى الأستاذ الزيات فى مقاله قصة حقيقية جرت فى القاهرة فى بداية العشرينيات من هذا القرن حين كان البغاء مسموحاً به وله حى يُمارس فيه بمنطقة كلوت بك بالقرب من ميدان العتبة بالقاهرة . . ففى ذلك الحين كان يعيش فى القاهرة فقيه من الطراز القديم من رجال الأزهر الذين كان بعضهم كما روى ذات مرة الدكتور زكى مبارك يتفاخر أحياناً بأنه لم ير نهر النيل فى حياته . . وأنه أمضى عمره جالساً أو نائماً على حصير الأزهر طالباً يتلقى العلم فى البداية . . ثم شيخاً يعلمه للتلاميذ بعد ذلك . وكان الشيخ عمر من هذا الطراز من رجال الأزهر القدامى الذين لا يعرفون الكثير عما يجرى فى الدنيا خارج دائرة الأزهر . وكان رجلاً صالحاً وهب حياته للعلم ولا يعرف من الدنيا سوى الصلاة والكتب الأزهرية ويقضى نهاره فى الأزهر منذ صلاة الفجر . . وليله فى حجرته الأزهرية المجاورة للأزهر يقرأ ويعد لدروس اليوم التالى ، فإذا جاء يوم الجمعة خرج إلى نزهته الأسبوعية الوحيدة و«جازف» باختيار

مسجد من مساجد أولياء الله الصالحين «البعيدة» وتوجه إليه ماشياً ليؤدى فيه صلاة الجمعة ويزور ضريحه ، ويعود عقب الصلاة سعيداً بنزهته الروحية ، ليواصل حياته وانقطاعه للدرس والعلم .

وفى أحد أيام الجمعة تاقت نفسه إلى أن يصلى الجمعة فى مسجد سيدى أبى العلاء بحى بولاق «البعيد» عن عالمه الصغير فى منطقة الأزهر ولم يكن يعرف الطريق إليه فخرج فى صباح الجمعة وراح يسأل المارة عنه حتى بلغ ميدان العتبة وواصل سعيه إلى هدفه فضل الطريق ووجد نفسه يسير فى شارع البغاء وهو لا يدرى عنه أو عن أهله شيئاً . . فواصل سيره فيه مطأطأ الرأس يداعب سبحته الطويلة ولا يكف لسانه عن الهمهمة بالدعاء والاستغفار ، والنساء المتهتكات يقفن أمام بيوتهن شبه عاريات يتعجبن لمنظر هذا الشيخ الغريب على عالمهن ويتساءلن عما جاء به إلى هذا المكان . واستثار منظره إحداهن فمدت يدها تجذبه من يده معابثة ، فاستغفر الله منزعجاً وابتعد عنها لكنه أحس بحاجته إلى تجديد وضوئه بعد أن لمست يده هذه المرأة العابثة ، وبسلامة نية سأل صبياً من صبيان الحى عن مكان يتوضأ فيه، وكان الصبى فاسد الخلق من أثر البيئة المنحرفة التى تربى فيها ، فأشار له عابثاً إلى بيت من بيوت البغاء زاعماً له أنه دورة مياه «الجامع الأحمر»! . ولم يتشكك الرجل الطيب فى كلام الصبى العابث ودخل إلى البيت المفتوح دائماً فى انتظار الرواد فرأى فتاة جميلة تجلس نصف عارية على أريكة فى مواجهة الباب فما إن رآها حتى غض بصره وهمهم مستغفراً وطلب منها أن «تستتر» نفسها لأن موعد الصلاة قد اقترب ولن يلبث أن يتوافد المصلون ليتوضأوا ولا يصح

أن يروها هكذا ! . فذهلت الفتاة لما سمعت ونهضت مدفوعة بإحساس تلقائى بالتهيب والاحترام وارتدت روبا فوق قميص نومها العارى . . ثم سألته باستغراب :

ـ ماذا تريد يا سيدنا الشيخ ؟ .

فأجابها وهو يغمض عينيه حتى لا تقعا على جسمها العارى بأنه يريد أن يتوضأ ، وطلب منها أن تستدعى «أباها» ليرشده إلى مكان الوضوء معتقداً أنها ابنة خادم ذلك «المسجد الأحمر» الذى دله عليه الصبى العابث! . وأدركت الفتاة الموقف كله فى لمحة واحدة . . وقالت له كذباً إنها فعلاً ابنة خادم المسجد ، وطلبت منه أن يفتح عينيه لأنها قد ارتدت ملابسها ، وقادته إلى حمامها ليتوضأ . . فلم يثر ريبته فيه أنه معطر وحافل بأدوات الزينة النسائية . . ولماذا يستريب فى ذلك وهو الذى لا يعرف الكثير عن شئون الحياة العصرية فى زمانه ، ألا يجوز أن يكون قد أنشئت فى القاهرة مساجد حديثة يتوافر فى أماكن الوضوء بها العطر وأدوات الزينة ؟. وانتهى الشيخ من وضوئه ، وجاءته الفتاة بفوطة كبيرة ملونة ومعطرة . . فجفف وجهه وذراعيه وهم بالانصراف فاقسمت عليه الفتاة بألا ينصرف إلا بعد أن يشرب فنجاناً من القهوة ، فوافق بسماحة وجلس على الأريكة يذكر الله ويسبح بحمده وهى تعد له القهوة وتنظر إلى وجهه السمح المطمئن مستغرقة فى التفكير ، وقدمت له القهوة باحترام ، وبعد أن شربها شاكراً سألته عن وجهته فأجابها بأنه يرغب فى الصلاة فى مسجد أبى العلاء ، فخرجت من بيتها واستدعت عربة حنطور ودعته لركوبها ونقدت الحوذى أجره بسخاء وطلبت منه أن

يصطحب هذا الرجل الطيب إلى المسجد المطلوب ، وانحنت على يد الشيخ تريد تقبيلها فسحبها بسرعة قبل أن تلمسها وهو يعتذر لها بضيق الوقت عن أن يتسع لوضوء جديد ، وسألته الدعاء فدعا لها بالهداية والمغفرة وتحركت عربة الحنطور حاملة الشيخ بعيداً عن شارع الخطيئة . . والفتاة ترقبها ساهمة . . متفكرة .

ولم تمض أيام بعد هذا اللقاء الغريب حتى هجرت الفتاة حى البغاء بلا وداع ولم يرها أحد بعد ذلك إلا فى ثوب سابغ طويل تخيط الفساتين للنساء والفتيات مقابل أجر زهيد . . أو تصلى مستغفرة نادمة على ما كان من أمرها .

وفى تفسيره لذلك . . قال الأستاذ الزيات إن «إشعاعاً» قوياً من إيمان هذا الرجل الصالح قد مس هذه الفتاة المخطئة . . بلا كلمات وعظ ولا إرشاد فأخذ بيدها إلى طريق الفضيلة .

وقلت أنا لنفسى حين قرأت هذه القصة الغريبة وتوقفت أمامها : إن هذا «الإشعاع» قد صادف فى روح الفتاة نفس هذه الرغبة الكامنة فى أعماقها للتطلع إلى الحياة النظيفة بلا آثام ولا خطايا ، فشد من أزر نوازع الخير فيها وأعانها على الانتصار على نداءات الخطيئة .

وهذا الإشعاع نفسه هو الذى أعان «تاييس» الغانية الثرية الجميلة التى قيل إنها قد عاشت بالاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى فاعتنقت المسيحية وتبدلت حياتها تماماً وعاشت بقية عمرها راهبة متطهرة .

ثم جاء الأديب الفرنسى العظيم أناتول فرانس فخلد قصتها فى روايته



الشهيرة . . وربط بين لحظة التنوير التى نقلتها من حياة إلى حياة ولقائها براهب زاهد هداها إلى الخير .

فهل يختلف الشيخ عمر كثيراً عن راهب تاييس ؟ .

ربما يكون الاختلاف الوحيد هو أن راهب تاييس قد تحدث إليها كثيراً ليهديها بكلامه وإشعاع الإيمان الصادر عنه . . أما الشيخ عمر . . فقد تكفل إشعاع الإيمان المنبعث منه وحده بهداية هذه الفتاة الجميلة . . بلا كلام ولا إرشاد ! .

وتختلف الوسائل فى النهاية والإشعاع واحد . . والرغبة فى التطهرالكامنة فى أعماق الإنسان واحدة لكنها تنتظر أن تتغلب على المعوقات . . لتخرج إلى الوجود وتصبح كل أيامه كيوم الأحد عند ميلينا ميركورى فى فيلمها القديم . . قل يارب ! .

٢٣

أسرارصغيرة !

شاهد الشاب الوسيم
سيدة جميلة
من نافذة العربة
التى تسير بها
فى أحد شوارع العاصمة ،
فجذبت انتباهه بشدة ،
وتمنى لو أتاحت له الأقدار
أن يتعرف عليها ، ثم بات ليلته وصورة وجهها الجميل فى خياله ، بعد أيام دخل إلى أحد المطاعم ففوجىء بالسيدة ذات الجمال الحزين تجلس وحيدة إلى المائدة المجاورة له ، فحياها بجرأة وقال لها : إنه رآها فى الشارع منذ عدة أيام ، ففوجىء بها يصفر وجهها وترتبك وتتلفت حولها فى قلق ، ثم ترجوه أن يخفض من صوته حتى لا يسمعه أحد ! وتعجب الشاب لارتباكها ، لكنه سعد بمبادلتها له الحديث . . وقدم لها نفسه ، وأبدى لها رغبته فى أن يزورها فى بيتها ، فأعطته عنوانها وموعداً فى اليوم التالى . وفى الموعد المحدد كان يطرق باب بيتها ، فخرجت إليه الخادمة وأبلغته بأن سيدتها قد غادرت البيت منذ دقائق ! وأحس الشاب بضيق

شديد . . وكتب لها رسالة يرجوها فيها أن تحدد له موعداً جديداً، وانتظر الرد ، فمضت أيام قبل أن تصله على بيته رسالة تحدد له موعد الزيارة. وذهب إليها فاستقبلته فى صالون بيتها بترحاب .

وتكررت زياراته لها . . وفى كل مرة يزداد افتتاناً بها ، وقد عرف من ظروفها أنها أرملة منذ سنوات ولم تنجب وميسورة الحال ، واعترف لنفسه بأنه يحبها بجنون ، ويريد أن يتزوجها . . وكل الظروف تؤهله لذلك ، فهو أيضاً ثرى ولا يواجه أية مشاكل مادية ، وشخصية هذه الأرملة جذابة . . وجمالها لافت للأنظار ، لكن شيئاً واحداً فيها يثير فى نفسه الشكوك ، هو غموضها الغريب . فهى تتكلم معه دائماً بصوت خافت، كأنها لا تريد أن يسمعها أحد ، وتتلفت حولها بقلق كأنها تخشى شخصاً مجهولاً يمكن أن يفاجئها فى أية لحظة ، وهى رغم أنها تعيش وحيدة فقد طلبت منه ألا يتصل بها مباشرة ، وإنها عن طريق صديقة لها تعمل بإحدى المكتبات العامة .

وبالغ فى شكوكه فتصور أنها خاضعة لسيطرة شخص مجهول لا تريده أن يعلم بأمره ، ولا يعلم الشاب به ، وزاده هذا الغموض رغبة فى أن يعرف كل شىء عنها قبل أن يرتبط بها .

وفى أحد الأيام كان يسير فى شوارع حى فقير متوجهاً إلى دعوة غداء . . ففوجىء برؤية الأرملة الجميلة تمشى فى الشارع وهى تغطى وجهها بإيشارب أسود . . ودهش لرؤيتها فى هذا الحى الفقير ودهش أكثر لهيئتها المضطربة وهى تسرع فى خطواتها وتتلفت حولها قبل أن تدخل بيتاً متواضعاً فى نهاية الشارع .

ووقف ذاهلاً فى مكانه وضربات قلبه تتزايد . . إذن هذا هو السر الذى تخفيه عنه . . رجل آخر تأتى إلى لقائه فى هذا البيت القديم . . فلماذا إذن رحبت بالتعرف إليه واستجابت لتودده ؟ . . وطاف حول البيت حائراً وخمّن أنه بيت يؤجر كغرف مستقلة ، فازداد سوء ظنه بها . . وقادته قدماه إلى مدخل البيت ، فرأى منديلاً صغيراً عرف أنه منديلها الذى سقط منها فى ارتباكها ، والتقط المنديل ، ثم غادر الشارع مكتئباً . كان لديه موعد معها فى نفس اليوم فى بيتها فى السادسة مساء ، فقرر ألا يذهب إليه . . ثم تراجع وقرر أن يزورها ليضع حداً لحيرته معها ، وفى الموعد استقبلته فى الصالون فأتته مبتهجة . . مرحبة . . وقالت له إنها أمضت ساعات اليوم كله فى البيت تنتظر زيارته . فلم يتمالك نفسه من الانفعال وأخرج لها منديلها وقدمه لها قائلاً إنه شاهدها ظهر اليوم فى شارع كذا ، تدخل بيتاً تؤجر غرفه مفروشة! ثم سألها بانفعال عن الرجل التى تلتقى به هناك . فأجابته مرتعبة بأنها لا تلتقى بأى رجل سواه . وهاج الشاب المخدوع . . وثار عليها ثورة هائلة وطالبها بأن تعترف له بالحقيقة لكى يستطيع أن يثق فيها . . فأجابته باكية بأنه ليس لديها ما تعترف به . . وأن الحقيقة هى ما ذكرته من أنها لا تلتقى بأى رجل آخر.

ولم يصدقها . . ووجه إليها كلمات قاسية . . قابلتها بالانهيار والدموع ، ثم ألقى منديلها على الأرض وغادر بيتها منفعلاً . . وفى بيته أدرك أنه لن يستطيع تحمل انهيار أحلامه فجأة ، فقرر السفر خارج العاصمة لفترة طويلة . وسافر بعيداً ورجع بعد أسابيع ومازال حبها كامنا فى أعماقه لكنه لم يستطع أن يعود إليها . . وبعد شهر واحد علم

بوفاتها المفاجئة ، فصدم صدمة هائلة . . واحتجب فى بيته عدة أيام لايقدر على الخروج منه ، ثم خرج أخيراً فوجد نفسه يتجه إلى البيت القديم فى الشارع الفقير ويطرق بابه . وخرجت إليه صاحبة البيت ، فسألها عن السيدة التى تستأجر إحدى غرف بيتها وتأتى إليه وقت الظهيرة . . فتذكرتها على الفور ، وقالت له عنها : إنها سيدة محترمة استأجرت غرفتها منذ عامين لكنها لم تأت إليها منذ ثلاثة شهور .

وتردد قليلاً قبل أن يسألها عمن كانت تلتقى به حين تأتى إلى غرفتها ، فانزعجت السيدة وأكدت له أنها لم تلتق أبداً بأى رجل فى هذا البيت ، وإنها كانت تأتى وحدها . . فتجلس فى غرفتها ساعة أو ساعتين تقرأ المجلات وتشرب القهوة ، ثم تنصرف فى هدوء !

ولم يصدقها الشاب فى البداية . . لكنها أقسمت له على صحة ما قالته فانصرف متعجباً وحزيناً .

ومضت الأسابيع . . وصورة الأرملة الجميلة لاتفارق خياله ، ومع كل يوم يمضى يتزايد إحساسه بأنه قد آلمها كثيراً فى لقائهما الأخير ، ويتمنى لو كانت على قيد الحياة ليعتذر لها ويواصل معها قصة الحب المبتورة .

وذات يوم التقى بصديق قديم له من أيام الدراسة . . وحكى كل منهما للآخر عن حياته ، فروى له الشاب قصة هذه الأرملة المحيرة وسأله : هلى تصدق أنها لم تكن تلتقى بأحد فعلاً فى ذلك البيت ؟ ففكر صديقه الخبير بالنفوس البشرية طويلاً ثم فاجأه بقوله :

ـ نعم أصدق ذلك وأصدق أنه لم يكن فى حياتها رجل سواك !

فقال له متحيراً : إذن كيف تفسر تصرفاتها هذه . . وغموضها ؟

فأجابه الصديق : تفسيرى الوحيد هو أنها كانت أرملة جميلة ثرية تعيش وحيدة مع خادمتها وليس لها أبناء . . وحياتها رتيبة خالية من الأسرار ، فلا هى تحب أحداًتحلم بالارتباط به . . وليس هناك من يحبها ويرتب معها للارتباط بها . . وساعات النهار طويلة مملة . . وساعات الليل بطيئة ثقيلة . . وكل من حولها من النساء لهن أسرارهن الخاصة مع أزواجهن أو خطابهن أو أصدقائهن ، فقررت أن تصنع لنفسها «سراً خاصاً» بها تتخفى به عن الآخرين ، وتحس بالإثارة والمتعة وهى تحرص عليه من الانكشاف ، واستأجرت هذه الغرفة وأصبحت تذهب إليها كل بضعة أيام ، فتكذب على خادمتها وهى فى طريقها للخروج ، وتقول لها إنها ذاهبة إلى النادى . . ثم تركب عربة إلى الميدان القريب من ذلك البيت القديم ، وتخفى وجهها بإيشارب وتمضى على قدميها إلى شارعه وهى تتلفت حولها فى حذر وخوف من أن يراها أحد ، ثم تدخل الغرفة فتلتقط أنفاسها المبهورة بعد المغامرة المثيرة ، ثم تسترخى وتقرأ وتشرب القهوة . . وقد لا تفعل شيئاً سوى الاستلقاء على أريكة لمدة ساعتين ثم تنهض وتتخفى بالإيشارب استعداداً «لفصل» العودة المثير.

هذا هو التفسير الوحيد . . لقد كانت حياتها خالية من الأسرار فاشتاقت لأن يكون لها هذا السر الخاص . . ولو لم تفسد أنت الأمر مبكراً لأصبحت أنت سرها المثير . . وتخلت عن استئجار تلك الغرفة !

وسواء اقتنع الشاب الحزين بتفسير صديقه له أو لم يقتنع فإننى شخصياً قد اقتنعت به لا لشىء ، إلا لأن هذا الصديق المفسر كان أوسكار وايلد الكاتب الإيرلندى العبقرى ، ولأن قصته الجميلة هذه «أبو الهول بلا أسرار» قد ساعدتنى على فهم جانب غامض من جوانب النفس البشرية . . وأضاءت لى جانباً مظلماً فى شخصية هذا اللغز الذى لم يحل غوامضه أحد حتى الآن . . وهو الإنسان !

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتشوق دائماً لأن تكون له «أسرار» شخصية لا يعرف بها أحد . . وهو فى حاجة دائماً إلى أن تكون له «خصوصية» لا يقترب منها الآخرون . . وينزعج بشدة إذا هتكت أستاره، وتعرت أمام الجميع حتى الأزواج والزوجات الذين يتبادلون الحب الصادق يحب كل منهم أن يكون له جانب شديد الخصوصية لا يشاركه فيه حتى شريك العمر والقلب . . جانب يستأثر به لنفسه . . وكلما سقط عنه حاجز السرية بحكم العشرة والحب . . بحث لنفسه عن سر جديد ! وهذه الخصوصية فيما يبدو هى جزء من اعتبار الإنسان لنفسه وإحساسه بذاته وبامتيازه عن الآخرين .

لكن الفارق الهام بين الإنسان السوى . . وغير السوى ، هو فى حدود هذه الخصوصية وفى عدم تجاوزها لحد الأمان . فالإنسان السوى تتقاطع دائرة حياته مع دوائر أصدقائه وأهله والمقربين منه ، فيجمع بينه وبينهم هامش محسوب تذوب فيه هذه الخصوصية ، ويتسع هذا الهامش أكثر حين تتقاطع دائرته مع دائرة شريكة حياته وقلبه ، لكن

تبقى دائماً ، رغم كل ذلك ، أجزاء من دائرته خارج دوائر الجميع تمثل خصوصيته وذاتيته . . وأسراره .

وفى رواية «قدر الإنسان» للأديب الفرنسى أندريه مالرو تتساءل إحدى شخصياتها :

ما الإنسان ؟ . . إنه ليس سوى كومة بائسة من الأسرار !

وهذا صحيح . . لكن الكارثة قد تقع حين تخلو حياته من كل ما يمكن اعتباره من الأسرار . . فيسعى إلى أن يصنع لنفسه «أسرارها » بيديه . . فيستسلم لأحلام اليقظة . . ويعيش فى الخيال ما كان يتمنى أن يعيشه فى الواقع . . وتتداخل عنده الحدود بين الواقع والخيال . . فتضطرب الشخصية . . وتصبح زيارة الطبيب النفسى أمراً ضرورياً . فإذا تمادى أكثر من ذلك فقد يفعل شيئاً شبيهاً بما فعلته بطلة قصة «أبو الهول بلا أسرار» فيفتعل الخصوصية والغموض والأسرار ، ليحس بذاته وبجدارته بأن يكون موضع تساؤل الآخرين ورغبتهم فى فهمه وتفسير تصرفاته !

لقد قرأت تعريفات كثيرة عن الحب ، لكن من أجملها فى رأيى هو تعريف الكاتب الفرنسى أبيل بونار الذى قال فيه :

إن الحب هو أن تهرب مع إنسان ما . . من تفاهة الأشخاص الآخرين !

ولاشك أنه شىء جميل أن يهرب الإنسان فعلاً مع من يحب من تفاهة الآخرين . . لكن بشرط أن يكون هناك فعلاً من يحب ومن يحبه فى الواقع

.. وليس فى الخيال ، لكيلا يضطر لأن يصنعه فى خياله .. ثم «يتخفى» للذهاب إلى لقائه الموهوم . إن الأدب الرفيع قادر فعلاً على الغوص فى أعماق البشرية واكتشاف المزيد من أسرارها المجهولة .. ولقد غطس أوسكار وايلد غطسة واحدة فى هذه الأعماق السحيقة .. فخرج إلينا بهذه الحقيقة الجديدة المذهلة عن الإنسان .. تلك الكومة البائسة من الأسرار الكبيرة والصغيرة الحقيقية والوهمية على السواء .

٢٤

الحب « لناتالى ».. والصداقة لى !

رأيتها فبهرنى جمالها .. وعرفت قصتها فوقعت فى غرامها !

أما متى رأيتها لأول مرة فمنذ أحد عشر عاماً ، وأما أين التقيت بها ففى متحف اللوفر الشهير فى باريس الذى رأيتها «معلَّقة» على جدرانه .. فاتنة جميلة .. رقيقة تكاد تقول لك : لماذا لاتحضر لزيارتنا ؟ مع أنك لم ترها ولم تعرفها من قبل .. لكن هكذا « الحسن قد أمر » بأن تكون رقيقة مجاملة وودوداً مع الجميع .

أما قصتها التى عرفتها بعد ذلك فلقد زادتنى إعجاباً بها .. وأتاحت لى أن أفهم لماذا «تكررت» لوحاتها فى اللوفر بريشة أكثر من فنان من عصرها ؟ ولماذا رسمها خمسة أو ستة رسامين على الأقل تباروا كلهم فى إظهار رقتها وجمالها وفتنتها ؟

إن اسمها هو جولييت ريكامييه .. وهى ابنة طبيب تزوجها مليونير فرنسى من رجال البنوك والصناعة اسمه جاك ريكامييه ، وكان صديقاً

لأبيها ويكبره فى السن أيضاً ، ولا أعرف لماذا قبلت الزواج منه وهو أكبر من أبيها ، لكن معاصريها قالوا : إنها عوضت فارق السن الكبير بينها وبينه بالاهتمام بالثقافة والفن والرياضة وتعلم اللغات ، والاختلاط بصفوة المجتمع الفرنسى ومثقفيه وعقد صداقات حميمة معهم ، فكان لها صالونها الذى يجمع كل حين عدداً منهم يتحدثون فى أجمل الموضوعات . . ويتنافسون فى إطراء جمال سيدة البيت ونيل ثقتها ، ورغم كثرة من أحاطوا بها من نجوم المجتمع والفكر والفن المشهورين بغزواتهم الغرامية ، ورغم ظروفها المغرية كزوجة صغيرة السن لرجل شيخ ، فإنها لم تتورط أبداً فى خيانة زوجها هذا مع أحد من رواد صالونها ومعجبيها ، وإنما أحبّت الجميع حباً أخوياً واستمتعت بصداقاتهم ، وقيل فى تفسير ذلك إنها كانت رغم جمالها الأخاذ بارده من الناحية الأنثوية ، وإن ذلك ربما يرجع إلى تربيتها الصارمة ، فى طفولتها أو لأسباب صحية ، وسواء كان هذا السبب أو ذاك فلقد شهد لها الجميع بأنها لم تستجب لغرائزها مع أحد من رواد صالونها ، وأن أحداً منهم لم ينل من شرفها أبداً رغم شهرتهم فى التأثير على النساء وجاذبيتهم الشخصية .

رجل واحد فقط تحرك له قلب هذه الفاتنة التى دوخت أشهر رجال عصرها ، فانحنى أمامه مسلماً له مقاليده بلا مقاومة هو الأديب الفرنسى «شاتوبريان» !

وقبل أن يلتقى بها شاتوبريان كانت حياته قد شهدت تقلبات وعواصف عديدة فهاجر إلى أمريكا عند قيام الثورة الفرنسية ، إذ كان

ضابطاً بحرس الملك لويس السادس عشر ، ورجع من أمريكا كاتباً مشهوراً ، وتزوج من فتاة طيبة من طبقة النبلاء واضطرته الظروف السياسية إلى مغادرة فرنسا على عجل إلى بلجيكا وبريطانيا إلى أن استولى نابليون على الحكم وكان مفتوناً بأدبه فسمح له بالعودة من المنفى ، فرجع وواصل حياته ونشر آراءه الجريئة والمعارضة لنابليون فتغاضى عنها الامبراطور الصاعد ولم يسجنه أو يأمر بإعدامه بالمقصلة حتى قيل إنه لم يضعف تجاه أحد من معاصريه إلا تجاه هذا الأديب المتمرد . .وحتى أنه التقى به ذات يوم فى إحدى الحفلات العامة فبدأه بالحديث مبدياً إعجابه بكتبه وخاصة كتابه القيم « أتالا » ثم عرض عليه وظيفة دبلوماسية فى مفوضية فرنسا فى روما .

وظل نابليون على تسامحه العجيب مع شاتوبريان حتى لم يعد يستطيع الصبر على معارضته أكثر من ذلك ، فأمر بنفيه من باريس العاصمة وليس من فرنسا كلها وكان بمقدوره أن يرسله للمقصلة ، فارتحل شاتوبريان مع زوجته إلى إحدى القرى ، وعاش فيها عشر سنوات ، ولم يرجع إلى باريس إلا بعد سقوط نابليون ، فكانت هذه السنوات العشر هى أخصب فترات حياته فى الإنتاج الأدبى وكتب فيها عدداً من أهم مؤلفاته . وخلال هذه الفترة كانت تحيطه برعايتها سيدة مثقفة اسمها مدام « دى دوراس » جمعت بينها وبينه صداقة حميمة قال عنها مؤرخو الأدب : إنها لم تتخطّ أبدا حدود « صداقة الرجال » بعضهم لبعض ، فى نفس الوقت الذى كانت تتدلّة فى حب شاتوبريان سيدة أخرى اسمها «ناتالى » وكان هو يبادلها حباً مشبوباً بحب أشد ، ويبدو أن ذلك قد

أثار غيرة مدام « دى دوراس » أو على الأقل تأملها وعجبها فكتبت فى مذكراتها هذه العبارة : الحب لناتالى . . والصداقة لى !

ففهم بعض نقاد الأدب هذه العبارة على أنها تعبير عن الحسرة والغيرة . . وفهمها البعض الآخر على أنها اعتزاز بصداقه « شاتوبريان » أكثر منها تطلعاً إلى عشقه !

ومع ذلك فقد كانت مدام دى دوراس هى الصديقة الوفية التى خففت عنه أحزانه وجففت له دموعه الغزيرة حين أصيبت ناتالى بالجنون وأودعت المستشفى بعد ذلك .

وحين رجع شاتوبريان من الريف إلى باريس تألق نجمه فى صالوناتها . . فسعت جولييت ريكامييه إلى التعرف عليه واكتساب صداقته ، وكانت فى الأربعين من عمرها وكان هو فى الخمسين من عمره وكان زوجها العجوز قد رحل عن الحياة منذ سنوات . . ومع ذلك فقد طلبت جولييت من شاتوبريان أن تتوقف علاقتهما عند حدود الصداقة المخلصة لأنه متزوج وزوجته طيبة وحائرة معه ، ومع غيرتها الجنونية عليه فلم يقبل ذلك وتطلع إلى المزيد منها كامرأة ، لكنها لم تستجب له وأصرّت على ألا يجمعها به إلا الحب العذرى والعاطفة الرومانسية غير الحسية فانشغل عنها بمجده الأدبى وبالفاتنات اللاتى يخطبن وده من أجمل نساء باريس ، وأصيبت مدام ريكامييه بطعنة قاسية فى قلبها ، فراحت تنتقل من مدينة إلى أخرى لتتشاغل عن جراح قلبها الذى انهزم لأول مرة أمام هذا الأديب الفاتن !

وبعد رحلة طويلة من الاستشفاء والنقاهة النفسية رجعت إلى باريس . . وسعت إليه مرة أخرى فوجدته هذه المرة وحيداً بعد أن يئست زوجته الطيبة من أن تتوقف مغامراته العاطفية ورحلت عنه إلى الريف ، ووجدت مدام ريكامييه أيضاً قلبه خالياً ومستعداً لأن يمنحها الحب الذى تتمناه وبنفس العاطفة القوية التى اعتاد عليها شاتوبريان . فعاشت بجواره وعاش بجوارها السبعة عشر عاماً الأخيرة من حياته مكتفياً بحبها العذرى المخلص . . وسعيداً بقربه منها وحياته إلى جانبها بغير رقابة زوجته .

وتقدم العمر بكل منهما . . وتداولتهما الأدواء والأمراض فأصيبت الفاتُنة الجميلة بالعمى . . وأصيب الأديب العظيم بالشلل ، فلم تضعف الشيخوخة أو المرض من عاطفة كل منهما المشبوبة تجاه الآخر ، ولم ينل العمر من جمال وجه هذه الفاتنة جولييت ريكامييه فظل محتفظاً بسحره و إشعاعه الغامض رغم التجاعيد .

وكتب الأديب العظيم فيكتور هوجو فى مذكراته بعد ذلك بسنوات : يعلم الناس جميعاً أن عاطفة قويةً من الحب قد جمعت بين الأديب شاتوبريان وبين مدام ريكامييه فى أواسط عمريهما ، ثم مضت الأعوام وأصبح الاثنان شيخين ، وأصيبت مدام ريكامييه بالعمى وأصيب شاتوبريان بالشلل ، ومع ذلك فقد ظل يأمر خدمه بأن يحملوه فى الثالثة من عصر كل يوم إلى جوار فراش حبيبته العمياء ، وكان الأسى يملأ قلبى كلما رأيتُ يدها تبحث عن يد الشيخ الذى فقد الإحساس باللمس حتى إذا عثرت عليها قبضت عليها فى حنان شديد! » .

وعلى هذا الحال عاشا سنواتها الأخيرة حتى فرّق بينهما مفرق الأحباب ومات شاتوبريان عام ١٨٤٨ ، بعد عام واحد من رحيل زوجته الطيبة التى حزن لموتها رغم كل شىء حزناً شديداً وخففت عنه بعضه حبيبته العمياء التى لم تحب سواه رغم كثرة من تزاحموا عليها واستجدوا حبها طوال سنوات العمر .

فهل عرفت إذن لماذا وقعت فى غرام هذه السيدة الفاتنة ولماذا انبهرت دائماً بجمالها كلما «زرتها » فى بيتها الحالى بمتحف اللوفر ؟

٢٥

عزاء التافهين !

سألوا الممثل المطرب
الأمريكى الشهير
فرانك سيناترا ،
ما هو تعليقك
على ما يشيعونه عنك
من فضائح
شخصية

من بينها اتصالك فى بداية حياتك الفنية بعصابات المافيا ؟ فأجاب بعد تفكير قصير : لا تعليق لى على ذلك .. سوى أن نقائص العظماء والناجحين هى دائماً عزاء التافهين !

.. وأعجبنى هذا الرد منذ قرأته لأول مرة منذ سنوات وتأملته طويلاً وتذكرته فى مناسبات كثيرة .. فالناس مولعون فعلاً بتتبع نقائص المشاهير وتضخيمها .. والحديث عنها ، وقد يهتم بعضهم بها أحياناً أكثر مما يهتمون بأعمال هؤلاء المشاهير نفسها .. فتجد مثلاً من لم يقرأ كتاباً واحداً لتوفيق الحكيم .. لكنه مع ذلك يعرف أنه كان متهماً بالبخل ! وقد تجد من لا يعرف شيئاً عن القيمة الفنية لقائد الأوركسترا

العالمى الإيطالى الأصل توسكانينى . لكنه يعرف أنه كان فى حياته الخاصة وغداً وزير نساء ، وأن أحد أصدقائه قد ضبطه فى موقف مخز مع زوجته فقال له :

أما عن توسكانينى «الفنان» فإنى أنحنى له احتراماً وأما عن توسكانينى «الإنسان» فإنى . .

ثم خلع حذاءه وانهال به فوق رأسه !

وقد تجد من لم يقرأ ديواناً واحداً لشاعر عربى كبير معاصر رغم كثرة دواوينه وذيوعها . . ومع ذلك تجده يعرف عنه أنه يصبغ شعره ويتصابى ويتهتك فى محاولة يائسة للتمسك بشباب مضى وانقضى منذ زمن طويل .

وقد تجد من لم يقرأ عملاً أدبياً واحداً لأديب عربى آخر معاصر لكنه يعرف عنه أنه زير نساء وشبه مخمور بصفة دائمة ، وأنه قد أشقى زوجته بمغامراته العديدة فماتت حسيرة منذ سنوات .

وغير ذلك كثير . . وكثير واهتمام البعض بتتبع النقائص الخلقية «بضم الخاء واللام» لهؤلاء المشاهير يرجع فى جزء منه إلى أن هؤلاء المشاهير يعيشون تحت دائرة الضوء باستمرار . . ويتعذر عليهم غالباً أن يتخفوا بأسرارهم الشخصية خاصة وأننا نعيش فى عصر لم تعد فيه حدود واضحة بين الحياة العامة والحياة الخاصة للمشاهير فى كل المجالات من رجال السياسة إلى رجال الأدب . . والفن . . والعلم وغيرهم . . كما يرجع هذا الاهتمام فى جانب آخر منه إلى سبب لخصه

شاعر عربى قديم فى إيجاز معجز حين قال : «وعيب الكبير . . كبير» !

أى أن عيوب الصغار لا تشد انتباهنا كثيراً ولا نتحدث عنها طويلاً لأنهم صغار لا يعنينا أمرهم . . ولا تمثل نقائصهم لنا هذا التناقض الحاد بين الصورة البراقة للمشاهير ، والواقع المزعج بنقائصه لبعضهم أو بين ما نتخيله نحن فى هؤلاء العظماء من مثالية وكمال . . وبين ما نصدم به من عيوبهم الشخصية ، مع أنهم بشر مثلنا فى كل الأحوال ، سواء أكانوا مشاهير أم مغمورين ولا يخلو إنسان من عيب ، لكن عيوننا لا تثبت إلا على عيوب العظماء والمشاهير لأننا كنا ننتظر منهم أن يكونوا مثلاً عليا لغيرهم . . وألا تتناقض أفكارهم ومبادئهم المعلنة . . مع حياتهم الخفية . .

وربما لهذا السبب ضجت أوروبا والغرب بالصخب حين اكتشفوا فضيحة علاقة سارة فيرجسون زوجة الأمير اندرو ابن ملكة بريطانيا بصديقها المليونير الأمريكى . . وحين نشرت الصحف صورها وهى عارية الصدر فى حمام السباحة بالفيللا التى قضت فيها أجازة غرامية مع صديقها . وضجت أيضاً بالصخب حين نشرت الصحف البريطانية تسجيلاً لحديث غرامى منسوب للأميرة الجميلة ديانا زوجة ولى العهد الأمير تشارلز مع أحد أصدقائها . ولم يكن مبعث الضجيج هو الاستنكار الدينى أو الغضب لانتهاك القيم الخلقية ، بقدر ما كان بدافع الفضول . . والرغبة فى التخفف من ملل الحياة اليومية بالحديث عن شىء يبدد الملل . . ويحرك الحياة الراكدة .

أما البعض الآخر فقد وجد فيه تخفيفاً عما يحس به هو نفسه من شعور

بالذنب لارتكابه نفس الإثم فى حياته الخاصة فكأنما يقول لنفسه : لسنا وحدنا الخاطئين . . فهؤلاء الأثرياء المشاهير أيضاً غارقون أكثر منا فى الخطأ ، وإذا كان لنا بعض العذر من ظروف حياتنا . . فما هو عذر هؤلاء الذين توفر لهم كل شيء . . ومع ذلك ففضائحهم تزكم الأنوف !

أما البعض الثالث فهم من عناهم فرانك سيناترا بعبارته الشهيرة تلك، وهم الذين يتلذذون بسلخ جلود الآخرين ، ويتهللون لأى نقيصة تنسب إليهم ، كأنما تعزيهم هذه النقائص عن تفاهة شأنهم وخمول ذكرهم وجفاف حياتهم ، وكأنهم يقولون لأنفسهم بذلك : هؤلاء الأوغاد . . لا أخلاق لهم رغم شهرتهم وذيوع ذكرهم ، فإذا كانوا يفضلوننا بما حققوا من نجاح وشهرة ، فنحن نفضلهم بسمعتنا التى لا تشوبها شائبة!

أستثنى من ذلك بالطبع الأغلبية السوية من البشر من ذوى الضمير الدينى والفطرة السليمة التى تنفر من الخطأ وتحرص على نقاء السيرة ، وتفزع مما يقال عن الآخرين ، وهؤلاء للدهشة هم الذين لا يخوضون فى سير الآخرين . . ولا يتلذذون بذكر نقائص غيرهم أو فضائحهم ، وينزهون ألسنتهم وأسماعهم عن الخوض فيها . . مكتفين بالاستنكار الصامت . . وتجنب الحديث عنها والإفاضة فيها . ودستورهم فى ذلك هو عدم الخوض فى الأعراض والأشخاص خشية الإثم ، ولو كانت الدنيا كلها تخوض فيها. وقانونهم هو أن الله قد أمر بالستر وأن حساب الخطاة مع ربهم وليس معنا ، ونحن بشر خطاءون مثلهم ، ولا نعرف ماذا كان يمكن أن نفعل لو كنا قد وضعنا فى نفس ظروفهم ، فلننصحهم سراً إذا



كنا نعرفهم عن قرب ، فإن لم يسمعوا لنا . . فالله يهدى من يشاء حين يشاء ولابد أن يلقى المخطىء جزاءه ذات يوم ، إن لم يكن فى الدنيا . . فيوم يكون الحساب ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ندنس نحن ألسنتنا وأسماعنا بسيرهم، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من ذلك حين قال : « إن الله يكره من عباده اللحميين» .

و«اللحميون» هم أكلة لحوم البشر وأعراضهم وكراماتهم بألسنتهم الحادة كالمناشير فى غيبتهم . . وأمثال هؤلاء من مدعى الشرف كأمثال رفاق السفر فى قصة جى دى موباسان الرائعة «كرة الشحم» الذين ركبوا مركبة تجرها الخيول من باريس إلى هافر خلال الحرب الفرنسية البروسية ، وكانت معهم امرأة بدينة محترفة ، فما أن تعرفوا على حقيقتها حتى ازدروها واعتزلوها وعاملوها بجفاء وكبرياء «ولهم الحق فى ذلك» لكنهم ما إن اكتشفوا بعد أن طالت بهم ساعات السفر أنهم جميعاً لم يحضروا معهم طعاماً للرحلة فى حين كانت هى الوحيدة التى استعدت للسفر بإحضار طعام كاف ، حتى تنازلوا على الفور عن أنفتهم وكبريائهم حين دعتهم إلى طعامها وأقبلوا عليه بكل سرور، شاكرين لها كرمها وظرفها وكياستها!

ثم توقفت العربة أمام فندق صغير يحتله الألمان لقضاء الليل فأمر القائد الألمانى بالقبض على المسافرين وتوسلوا له للإفراج عنهم والسماح لهم بمواصلة السفر فأعلنهم أنه لن يفعل ذلك إلا إذا قضت السيدة البدينة الليلة معه فى غرفته ، ورفضت المرأة المحترفة ذلك غاضبة وثائرة ، فإذا برفاق السفر يتضرعون إليها لكى تقبل ! وتستجيب فى النهاية تحت

إلحاحهم وتوسلاتهم . ويسمح القائد الألمانى للمسافرين بالسفر فى الصباح وتواصل المركبة رحلتها . . فإذا برفاق السفر يعودون مرة أخرى إلى تجاهل المرأة البدينة واحتقارها خاصة وأنهم قد اشتروا من المدينة طعاماً كافياً لبقية الرحلة فى حين نسيت المرأة فى اضطرابها أن تشترى طعاماً لنفسها هذه المرة ، وحان موعد الغداء ففتحوا حقائبهم وأخرجوا طعامهم وراحوا يأكلون بغير أن يدعوها أحد منهم للطعام . . وبكت المرأة تأثراً فلم تحرك دموعها قلوبهم . . وإنما تمتموا بأنفة أهل الشرف :

إنها دموع العار !

ولم يكن العار فى الحقيقة عارها وحدها . . لأن عارهم هم أشد . . وأبشع لكنه النفاق والتظاهر بالفضيلة حين لا يكلف الإنسان التمسك بها شيئاً . . ثم المسارعة بالتخلى عنها إذا كان فى ذلك نفع صغير كمشاركة رفيقة سفر ليست فوق مستوى الشبهات طعامها . . أو دفعها دفعاً بالضراعة والتوسل إلى أحضان رجل يملك أن يسجنهم ، وأن يفرج عنهم دون أن يمنعهم من ذلك مانع من شرف أو فضيلة .

وأمثال رفاق السفر هؤلاء كثيرون فى كل زمان ومكان .

وهؤلاء هم الذين عناهم أحد العارفين بالله حين كان يخرج من بيته كل صباح فيقول : اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على عبادك !

يقصد أنه قد أباح لهم أن يخوضوا فيه بالحق وبالباطل فإن كان ما قالوه عنه بالحق فهو عقاب يستحقه . . وإن كان بالباطل فلقد كتب الله له بكل ما تقولوا عليه ظلماً حسنة !

وهذا صحيح فلقد جاء فى الأثر ما معناه أن المرء إذا ذكر بما ليس فيه كتب الله بكل ما نسب إليه زوراً وبهتاناً حسنات .

وتتبع نقائص الغير لا يقتصر فقط على النقائص الأخلاقية ، وإنما يمتد أيضاً بنفس الدوافع تقريباً إلى العيوب الجسمية والأمراض ، كأن أصحابها هم المسئولون عنها . وبالتالى لابد أن نسلخ جلودهم بالحديث عنها والإشارة إليها . . والغمز بها ، فهذا الرجل الوسيم الذى يتخايل بشعره الهفهاف أصلع . . وما نراه فوق رأسه باروكة ، وهذه السيدة الرشيقة تخفى تحت ثيابها عيباً جسمياً خطيراً تحرص على ألا يعرف به أحد . وحتى التاريخ لم يسلم من هذه الآفة فحرص على أن يسجل لنا عيوب العظماء ، والمشاهير ، فالملك فؤاد الأول ملك مصر «من ١٩ ـ ١٩٣٦» كانت قدمه صغيرة جداً . . وحذاؤه من مقاس ٣٦ ! وكان يصدر عن حنجرته عند الحديث صوت غريب يفزع من يسمعه لأول مرة، لأن هناك رصاصة استقرت فى حنجرته منذ شبابه ، ونابليون كان قصيراً ويرتدى حذاء بكعب عال ، وهتلر لم يكن مكتمل الرجولة أو ذا ميل كبير للنساء ، وتيمور لنك كان أعرج الخ الخ ، والتاريخ يسجل لنا هذه العيوب إلى جانب تسجيله لأعمال هؤلاء المشاهير ، والمشكلة أن البعض لا يشاركون التاريخ نفس هذا الحرص فيهتمون بالنقائص ويتغافلون عن المزايا والإنجازات أو يسقطونها من الحساب .

وإذا كان عالم النفس جون ديوى يقول لنا : إن أعمق دافع للإنسان إلى العمل هو أن يصبح (شيئاً مذكوراً) . . فمن حق كل إنسان أن يعمل وأن يجتهد لكى يصبح كذلك ، لكن من واجبه أيضاً أن يتجنب

الشبهات . . وأن يلتزم بالفضائل وأن يحرص على سمعته وعلى نقاء حياته الشخصية من المتاعب . . ليس فقط لأن فى هذا صلاح دينه ودنياه . . وإنما أيضاً لكيلا يقدم للتافهين ما يتعزون به عن ضآلة شأنهم بمضغ سيرته وباجترار عيوبه وتضخيمها . فقل يا صديقى كما نصحنا رسول الله ﷺ : آمنت بالله . . ثم استقم . . ودع بعد ذلك نقائصك الجسمية لا الأخلاقية تتولى عنك عزاء التافهين وإرضاء مناشير ألسنتهم !

الفهـــرس

كتب للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نفذ)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نفذ)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٨ (نفذ)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٠ (نفذ)
		الطبعة الثالثة	١٩٩٣
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٠
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩١
		الطبعة الثانية	١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
		الطبعة الثالثة	١٩٩٤
٩ ـ إفتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢
١٠ ـ إندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٢

١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
١٤ ـ وقت للسعادة . .	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
ووقت للبكاء		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٥ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٣
		الطبعة الثانية	١٩٩٤
١٦ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
١٧ ـ لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٨ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٥
		الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٩ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
٢٠ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
٢١ ـ خاتم فى إصبع القلب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى	١٩٩٦
٢٢ ـ سائح فى دنيا الله . .	أدب رحـلات	الطبعة الأولى	١٩٩٦
حول العالم فى ٣٠ عاماً			

خاتم فى إصبع القلب

بنفس الأسلوب الجميل الرقيق الذى يستمتع به قراؤه، يغوص بنا الكاتب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى أعماق بحار المشاعر الإنسانية التى يعيشها البشر فى كل زمان وكل مكان . .

وفى هذا الكتاب الذى يتضمن خمسة وعشرين موضوعاً ، يعرض لنا المؤلف الكبير فى أسلوب أدبى ورفيع مجموعة من نماذج سعادة الإنسان ومعاناته فى الحياة . . ويتنقل بنا بين تجارب إنسانية ساخنة اختارها من بين قراءاته الواسعة فى الأدب الإنسانى المصرى والعالمى، ومن بين بعض الأعمال الفنية العالمية الراقية ، أو استقاها من خلال تعامله المباشر مع هموم الآخرين .

هى تجارب تفيض بها قلوب البشر ، تتقلب فيها مشاعرهم وأهواؤهم بين الحب والكراهية ، والاخلاص والغدر ، واللذة والألم ، والكبرياء والخنوع ، والمقاومة والاستسلام والسعادة والشقاء . . وكل ما يصبح ويمسى فيه الإنسان من مصائر وأقدار .

« الناشر »





- نائب رئيس تحرير الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب بريد الجمعة الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له أكثر من ٢٧ كتابا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة وصوراً أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : « أماكن فى القلب » و « لا تنسنى »، و« الحب فوق البلاط » .